وتمكّنَ الموكّلونَ بهذهِ المهمّةِ مِنْ تنفيـذِها على خيرِ وَجْهٍ ، دُون تمثيلٍ ولا تَشْويه ، وهٰذا جزاءٌ عادِلٌ لأبي رافعٍ ، وسَيَكونُ الجزاءُ نفسُهُ ضِدَّ كلِّ مَنْ تُسوِّلُ لهُ نفسُه عَملاً كعملِ أبي رافعٍ أوْ كعبِ بنِ الأشْرف أو حُيَيّ بْنِ أَخْطب ، والويْلُ لزعماءِ اليهودِ مِنْ عاقِبةٍ وخيمةٍ لهُمْ ولأتْباعِهِم ، ولكلِّ مَنْ يَسْمعُ نَصيحتَهم الشِّرِّيرة .

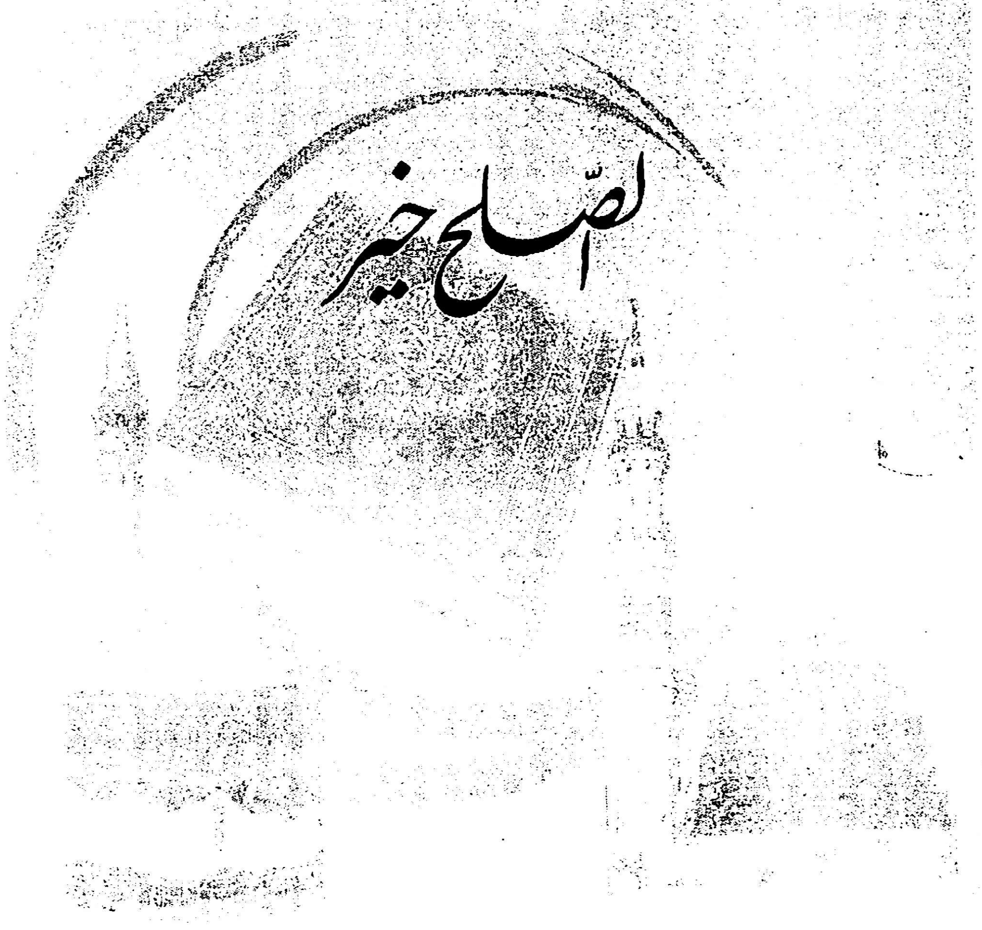
الدِّفاعُ الهُجُوميُّ

ومضت السّنةُ ورسولُ اللهِ ﷺ على هذه الحالِ مِنْ إرْهابِ الأعْداءِ في اتّجاهاتِ الجزيرةِ الأربعِ حوْلَ المدينةِ ، وإنَّ كلَّ ما حَدَثَ لمْ يكنْ لغايةِ الاعتداءِ على أَحَدٍ ، إنّما كانَ رَدّاً على عُدْوانٍ يَبْدأُ بِهِ الأعْداءُ ، أوْ يُحاولونَ العمـلَ لهُ ، وعلينـا أنْ نفهمَ هـدفَ رسـولِ اللهِ ، وأنْ نَحصرَهُ في غايـةٍ واحدةٍ : هي (ردُّ الاعتداءِ) ، واللهُ يقولُ : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ ولقـدْ أدّتْ هذهِ المناوَشاتُ أغراضَها على أتمِّ وجهٍ ، واستقرّتْ هيبةُ المسلمينَ في نفوسِ العـربِ حـوْلَ المدينـةِ ، وأخَـذَ الجوُّ يتهيـأُ لحيـاةِ استقـرارٍ وسِلْـمٍ بيْنَ المسلمينَ وجيرانهم .

وصارَ مِنَ الممكنِ أنْ تقومَ عـلاقَةُ الجوارِ على تناسي الثّاراتِ ، ودفْنِ الحزازاتِ ، وعلى التّعاونِ والتّـلاقي في سبيلِ مجتمعٍ أوْسعَ وأكْبر ، يحيا تحتَ ظِلِّ الخَير ..

قصص السِّيرةِ النّبويّة

٤٦



الصّلح خير

رُؤيا وشَوْقٌ

والآن يا أحبَّتي ستتحدَّثُ عنِ الشَّوطِ الهامِّ الذي سَيقطعُهُ الرَّسولُ ﷺ معَ قريشٍ في تاريخِ العلاقاتِ بَيْنَهما حيثُ سيَعْقدُ صُلْحاً سياسِياً مَعَها، وإنَّه لصُلْحٌ قدْ يَبْدو غَريباً إذا اسْتَعجلْنا الأُمورَ، فاقرؤوا هذهِ القِصَّةَ بهدوءٍ وتمهُّلٍ..

جَميلٌ أَنْ أَبْدأَ معكُم لقاءَنا برؤيا جميلةٍ رآها الرَّسولُ ﷺ فلقَدْ رأى نَفْسَهُ أنَّه دخَلَ المَسْجدَ الحرامَ في مكَّةَ مَعَ أصحابِهِ المؤمنينَ، لا يَخافونَ عدُوّاً، ويمْشُونَ بأمانٍ، ويطوفُونَ بطمأْنينةٍ، ولمَّا أفاقَ مِنْ نَوْمِهِ حَكَى لأَصْحابِهِ ما رآهُ مُسْتَبْشِراً فَرِحاً، فأدْخلَ السُّرورَ إلى قُلوبِهم، وحرَّكَ شَوْقَهم وحَنينَهم، ولا سيَّما مَنْ هاجرَ منْهم. وسأَلُوا الرَّسولَ أَنْ يتحققَ هَذا في العامِ الذي يَعيشُونَهُ، فرأوْا منْهُ عزْماً على الزِّيارةِ في العامِ نفسِهِ دونَ أَنْ يُحدِّدَ لهُمْ ذلكَ.

في الشَّهرِ الحَرام

ولقد كانَتِ الفرصَةُ مواتيَةً، والظُّروفُ كلُّها مهيَّأةً لهذه الزيارةِ، فالأَمْنُ في المدينَةِ قَدْ خيَّمَ بَعْدَ خُلُوِّها منَ اليهودِ، والمنافقونَ مكْسُورو الجَناحِ بعْدَ ذهابِ حُلَفائِهم اليهودِ، والأَعرابُ في الباديةِ قَدْ أدَّبَهم رسولُ اللهِ ﷺ بسَراياهُ وغزواتِهِ، فلِمَ لا يَسْتفيدُ المسلمونَ مِنْ هذه

الفرصَةِ؟ فالشَّهرُ الحرامُ سَيَحملهم إنْ أرادوا إلى بيْتِ اللهِ، ليدْخلوهُ مَعَ الدَّاخِلينَ؟ وإنْ سَألتموني عَنْ قريْشٍ فيما إذا كانَتْ ستأبى دخُولَ محمَّدٍ وزيارتَهُ معَ صحبِهِ لمكَّةَ أَمْ لا؟ أقولُ لكُمْ: إنَّهُ قَدْ لانَتْ عريكةُ قريْشٍ، وخفَّفتْ مِنْ عَداوتِها لدعْوةِ محمَّدٍ، بعْدما جَرَّبَتْ في حَرْبِها كلَّ وسائِلِ القُوَّةِ، وكلَّ وسائِلِ اللِّينِ، فَلَمْ تَسْتطع أنْ تَفْعلَ شيْئاً، والبَيْتُ بَيْتُ اللهِ في مكَّةَ، إنْ منعَتْ قريشٌ أحداً مِنْ زيارتِه فقَدْ أظهرَتْ أمامَ العربِ ظُلْماً وعُدْواناً وطُغْياناً، وصَحيحٌ أنَّها لا تحبُّ محُمَّداً، ولكنْ ليْسَ لها أنْ تمنَعهُ مِنَ الحجِّ أوِ العُمْرةِ.

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ

وخَرجَ الرَّسولُ ﷺ بهيئةِ مسالِمٍ لا يحْمِلُ مَعَ أصْحابِهِ غيْرَ السُّيوفِ التي لا بُدَّ للمُسافرِ منْ حَملِها، وسارَ مِنَ المدينةِ حتَّى وصلَ إلى مكانٍ اسْمُه (ذُو الحُلَيفَةِ) على بُعْدِ ستَّةِ أَميالٍ مِنَ المدينةِ، فصلَّى هُنالكَ الظُّهْرَ، ثُمَّ أَحْرَمَ (لَبِسَ لباسَ الإحْرامِ)، ففعَلَ أصْحابُهُ مثْلَهُ وأَحْرموا، واتَّجهَ الجمعُ بَعْدَها إلى مكَّةَ محرِماً يتجاوَبُ أَفْرادُهُ بهذا النَّشيدِ الجميلِ:

(لبَّيكَ اللَّهمَّ لبيكَ، لبَّيْكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمَةَ لكَ والملْكَ، لا شَريكَ لكَ)، فكانَ كُلُّ مَنْ يراهُم في هذا المظْهَرِ مُلبِّينَ، يتأكَّدُ مِنْ أنَّهم خَرجوا مُسالمين لا يَبْغونَ حَرْباً ولا سُوءاً، وإنَّما هِيَ فريضةٌ يؤدُّونَها، واحْتِياطاً في الأمْرِ، فقدْ وضَعَ الرَّسولُ في الطَّليعةِ

(عبّادَ بْنَ بِشْرٍ في عِشْرينَ فارساً) ، وبَعَثَ (بِشْرَ بنَ سُفيان) ليعْلَمَ لَهُ أَخْبارَ قريْشٍ ونَواياها ، وماذا يكُونُ مِنْ أَمْرِها يا تُرىٰ ؟ .

خَافَتْ قُرَيْشٌ

ويَا للعَجَبِ ! غَضِبَتْ قريشٌ عِنْدَما بلَغَها أَمْرُ مجيءِ محمَّدٍ ﷺ وأصحابِهِ ، وصمَّمتْ على أنْ لا يدخُلَ محمَّدٌ عَليها مكَّةَ ، مَهْما كلَّفَ الأَمْرُ ، وأخذَتْ تُعِدُّ عدَّتَها للحربِ لتَمنَعَ المسْلمينَ مِنْ دُخولِ البيتِ الحرام . . وبَلَغَ رسولَ اللهِ خَبرُ اسْتِعْدادِها ، فقالَ ﷺ : (يا وَيْحَ قريْشٍ، قَدْ أَكَلَتْهم الحربُ ، ماذا عَليهِم لَوْ خَلَّوا بَيْني وبَيْنَ سائِرِ النَّاسِ، فإنْ أَصابوني كانَ الذي أَرادوا، وإنْ أَظْهرَني اللهُ دَخلوا في الإِسْلامِ وافرين ؟ واللهِ لا أَزالُ أُجاهِدُهم على الذي بعثني اللهُ بِهِ ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفرِدَ هذهِ السَّالفَةُ) أي العنقُ . وفي هذا يا أَحِبَّتي دليلٌ على أَنَّ الرَّسولَ لَمْ يكنْ راغِباً في قتالٍ ، ولكنَّه لَنْ يَسْكتَ إذا حاربَتْهُ قريشٌ وقاتَلَتْهُ . .

وها هيَ ذِي قريْشٌ حقّاً ترسِلُ إليهِ مَنْ يَعْترِضُ طريقَهُ ، وكأَنَّها تَجرُّهُ إلىٰ العُنْفِ والقُوَّةِ ، وهُوَ لا يَرْغَبُ في ذلكَ ، وإنَّها لَتضطرُّهُ إلى القتالِ وهُوَ لَمْ ينوِهِ أبداً .

حابِسُ الْفِيلِ

وتمهَّلَ الرَّسولُ ﷺ في الردِّ على العُنْفِ ، وقالَ : مَنْ رجُلٌ يخْرجُ بنا علىٰ طريقٍ غيْرِ طريقِهم ؟ فقالَ رجلٌ مِنْ قبيلةِ أَسْلم : أنا يا رسولَ اللهِ ، أَدُلُّكَ علىٰ طريقٍ تَسْلكُهُ غير طريقِ جُنودِ القُرشيينَ ، ولكنَّهُ طريقٌ وعْرٌ وصعْبُ المَسْلكِ . فوافقَ الرَّسولُ ﷺ ، وسارُوا طريقاً وعرةً شقَّ علىٰ المسلمينَ اجتيازُها ، ثم وصلوا إلىٰ أرضٍ سهلةٍ عنْد مُنْقطعِ وادٍ فأَمرَ رسولُ اللهِ أَنْ يَسْلكوا ذاتَ اليمينِ حتَّى بلَغَ مهبطَ الحُدَيْبيةِ أَسْفَلَ مكَّةَ ، وصارَ قَريباً مِنَ مكَّةَ (على بُعْدِ يوم واحدٍ) . وهُناكَ في مكانِ الحُدَيْبية برَكَتْ ناقتُهُ على حِين فجأَةٍ . فجعَلَ المسلمونَ يَصيحونَ بِها لتَنْهضَ ، ولكنَّها ظلَّتْ في مَكانِها باركةً ، فدهِشَ الجميعُ لرَفْضِها النُّهوضَ ، فقالُوا : حرنَتْ ناقةُ رسولِ اللهِ ، فقالَ الرَّسولُ : (ما هوَ لَها بخُلُقٍ ، ولكنْ حَبَسَها حابِسُ الفيلِ عَنْ مكَّةَ) . أيْ إنها قدْ برَكتْ لأمْرٍ هامٍّ . .

السَّفارَةُ الأُولىٰ

وأَمَرَ ﷺ النَّاسَ بعْدَها أَنْ يَضْربوا الخيامَ هُناكَ حيْثُ وقفتِ النَّاقةُ ، وبركَتْ . وقالَ : (والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ ، لا تَدْعوني قريشٌ اليومَ إلىٰ خطَّةٍ يَسألوني فيها صِلَةَ الرَّحمِ ، وتعظيمَ حرماتِ اللهِ إلا أعْطيْتُهم إيَّاها) .

وأرسلَتْ قريْشٌ لَهُ سَفيراً مِنْ معارفِها يُسمَّىٰ (عُرْوَةَ بْنَ مسعودٍ)

وهُوَ سيِّدُ ثقيفٍ ، وكانَ رَجُلاً حكيماً ، فقالَ للرَّسولِ ﷺ : يا محمَّدُ إنِّي تركْتُ قَوْمَكَ قَدِ اسْتعدُّوا لِقِتالِكَ ، وهُمْ يُقْسمونَ باللهِ لا يُخْلُونَ بينكَ وبَيْنَ البيتِ، حَتَّى لا يَبْقى مِنْهُم رجُلٌ حيٌّ ، وإنَّما أَنْتَ مِنْ قِتالهم بَيْنَ أَمْرين : إمَّا أَنْ تقتُلَ قومَكَ وأَهْلَ بلدِكَ التي خَرجْتَ منْها ، وإمَّا أَنْ يخذلَكَ أَتْباعُكَ ! ! فاسْتوقفَهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ بصوْتٍ مرتفعٍ : وَيْحكَ يا عُروةُ : أَنَحنُ نخذلُهُ ؟ فرجَعَ عروةُ إلى قريشٍ يحدِّثُها عن حُبِّ أصحابِ محمَّدٍ لمحمَّدٍ وينصحُ لها بمسالمتِه وقبولِ زيارته .

والسِّفارةُ الثَّانيةُ

ولَمْ تسمَعْ قريْشٌ نصيحَةَ عروةَ ، فانْصرفَ عروةُ وَمَنْ مَعَهُ إلى الطَّائفِ، وقامَ سيِّدٌ آخرُ (هُوَ : الحُلَيْسُ بْنُ عَلْقَمةَ) سيِّدُ الأحابيشِ كَسفيرٍ ثانٍ إلى محمَّدٍ ، فأرسلَ رسولُ اللهِ إليهِ قَبْلَ وصولِهِ نَفراً مِنْ صحابتِهِ ومعَهُم بعْضُ الجمالِ والنُّوقِ التي أتَى بها المُسْلمونَ للتقرُّبِ إلى اللهِ بذَبْحِها أثْناءَ الزِّيارةِ. فلمَّا رأى الحُلَيْسُ هذا المنْظَرَ ، والمسلمونَ يلبُّونَ قائلين : (لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ) رجعَ قبْلَ أَنْ يصِلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وعادَ إلى قريشٍ يَنْصح لهم غاضِباً، ويقولُ : إيَّاكُم أَنْ تصدُّوا عَنْ بيْتِ اللهِ مَنْ جاءَهُ مُعظِّماً لحرمتِهِ ، مؤدِّياً لحقِّهِ ، والذي نَفْسي بيدهِ إمَّا أنْ تتركُوا هذا الرجُلَ لما جاءَ لَهُ ، أوْ لأنفرنَّ بالأحابيشِ نفرةَ رجلٍ واحدٍ أَمنعُكُم مِنْ صدِّهِ ، فقالَ لَهُ أشرافُ قريشٍ : مَهْلاً يا بْنَ عَلْقمةَ ،

إنَّ كُلَّ ما رأَيْتَ عنْدَ محمَّدٍ مكيدةٌ وحيلةٌ منْهُ ومِنْ أصحابِهِ ، فتريَّثْ واكفُفْ عنَّا حتَّى نأخذَ لأنفسِنا بَعْضَ ما نَرْضىٰ بِهِ .

بَيْعَةُ الرِّضْوانِ

وأرسَلَ الرَّسولُ ﷺ لقريشٍ (خراشَ بْنَ أميَّةَ) ليَحْكيَ معهُمْ ، فلَمْ يَقْبلوا منْهُ شَيْئاً ، وكادوا أَنْ يَقْتلوه ، فمنَعهُ منهُمُ الحُلَيْسُ سيِّدُ الأحابيشِ، وغَفَرَ لهمُ الرَّسولُ ذلكَ ، ثُمَّ بعثَ إليهمْ (عثمانَ بْنَ عفَّانَ) وهُوَ مكِّيُّ الأَصْلِ ، فمكَثَ عثمانُ ثلاثَةَ أيَّامٍ ، وطالَتْ مدَّتُهُ دونَ فائدةٍ ، وشاعَ بيْنَ المسلمينَ خطأً أَنَّهُ قُتِلَ . ووصَلتِ الإشاعةُ إلى الرَّسولِ ، وكأنَّها حقيقةٌ . . وعندها غضِبَ أشدَّ الغضبِ ، فجرأةُ قريْشٍ علىٰ العُدوانِ أصْبحتْ لا تُطاقُ ، ولا تُعالَجُ بالصَّبرِ واللِّينِ والمسالمة ، وسَمِعَ الصَّحابةُ رسولَهم يقولُ : لا نَبْرَحُ حتَّى نُناجِزَ القَوْمَ . فَبدؤوا يُبايعونَه علىٰ قِتالهم ، وتَمَّ أَمْرُ المبايَعةِ علىٰ الرَّغْمِ مِنْ عَددِ الصَّحابةِ القليلِ ، وعُدَّتِهم البسيطةِ وسِلاحِهم الضَّعيفِ ، وقَدْ أَقْدموا على بَيْعتِهم في حماسةٍ وقوةٍ ، فرضيَ اللهُ عَنْهم ، وباركَ مُبايعتَهم لَهُ ، وسُمِّيتِ البيعةُ (بيعَةَ الرضْوانِ) ..

الصُّلْحُ أَوْلىٰ وأَنْسَبُ

وكأَنَّ هذا العمَلَ الجريءَ مِنَ المسلمينَ قَدْ أعْطىٰ دَرْساً عظيماً لقريْشٍ جعَلَها تَتَراجعُ عَنْ عِنادِها وطُغْيانِها ، وتَسْعىٰ إلى الصُّلحِ مَعَ

رسولِ اللهِ ، فقدْ وجـدت أَنَّ الصُّلحَ أَفْضل لأَنَّها تعْلم عِلْـم اليقين مَن يكونُ رسولُ الله ؟ ومَـنْ يحمي رسولَ اللهِ ؟ ومَنْ يأتمِرُ بـأَمْرِ رسولِ الله ؟ فماذا عَليها الآنَ لو حَفِظَـتْ سُمْعتها بيْنَ العربِ ، وأَبعدَتْ مـا أَظهرتْهُ مِنَ الخوْفِ قَبْلَ قليلٍ على زعامَتِها ؟ ولِمَ لا تُصالِحُ محمَّداً وقَدْ رأَتْ نَصْرَ اللهِ لعبادِهِ المؤمنينَ ضِدَّ كُلِّ مَنْ عـاداهُم ، أَوْ حاوَلَ حَرْبَهم ، أَوْ تحالَفَ لغزْوِ بلادِهم ؟ وإنَّهُ لدرْسٌ عظيمٌ حَقّاً ، فإلىٰ رُشْدكِ يا قُرَيْشُ ، وسَعْياً إلى الصُّلحِ بكُلِّ ما بوسْعِك ، فلَيْسَ لكِ حَوْل ولا طاقةٌ بالوقوفِ عنيدةً أمامَ نَصْرِ اللهِ لمحمَّدٍ وأَتْباعِه . وحقّاً فقَدْ أَرْسلَتْ قريْشٌ إلى الرَّسولِ مَنْ يُفاوِضُـهُ في الصُّلْحِ ، ويعْقِـدُ اتفاقيَّةَ سـلامٍ معَهُ ، ووصَـلَ المفاوِضُ واسْمُه (سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو) إلىٰ مُعَسكَرِ المسْلمِينَ .

شُروطُ الصُّلْحِ

ومَعَ قدومِ سُهَيْلٍ ، أظْهَرَ المسْلِمونَ التَّلبيةَ في أنْحاءِ المعسْكرِ ، وتَمَّ الصُّلحُ بيْنَ الفريقَيْنِ ، وكُتبَتْ شُروطُ الصُّلحِ مفصَّلَةً على النَّحو التَّالي:

(بِاسْمِكَ اللَّهـمَّ ، هَذا ما صالَـح عليهِ محمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ سهيلَ بْنَ عَمْرو : اصْطَلَحا على وَضْعِ الحرْبِ مِنَ النَّاسِ عَشْرَ سنِينَ يأْمَنُ فيهِنَّ النَّاسُ ، ويكفُّ بعْضُهم عَنْ بعضٍ ، علىٰ أَنَّه مَنْ أَتىٰ محمَّداً مِنْ قريْشٍ بغَيْرِ إذْنِ وليِّهِ رَدَّهُ عَليهم ، ومَنْ جاءَ قُرَيْشاً ممَّنْ مَعَ محمَّدٍ لَمْ يردُّوه عَليْه ، وأَنَّ بيْننا عَيْبـة مكفوفة ، وأَنَّهُ لا إسْـلال ولا إغْلال ، وأَنَّهُ مَنْ أَحبَّ أَنْ

يَدْخلَ في عقْدِ محمَّـدٍ وعهْدِهِ دَخَل فيهِ ، ومَنْ أحبَّ أَنْ يـدخُلَ في عقْدِ قريْشٍ وعَهْـدِهم دَخَلَ فيهِ ، وأنَّـكَ تَرجع عنَّا عـامَكَ هَذا فلا تَـدْخلْ علينْا مكَّةَ ، وأَنَّهُ إذا كانَ عامٌ قابِلٌ خرجْنا عَنْك ، فَدخَلْتَها بأَصْحابِكَ ، فأَقَمتَ بها ثَلاثاً معَكَ سلاحُ الراكِبِ ـ السُّيوف في القُرُبِ ـ لا تَدْخلها بغَيرِها) .

غَضَبُ المسْلمونَ

. . (إنَّهم سَيَعودونَ هَذا العـامَ دُونَ عُمرةٍ ! !) قَبلوا هَذا علىٰ كُرْهٍ ، (وإنَّهم سَيُسالِمُونَ قـريْشـاً مدَّةَ عَشْرِ سنـواتٍ مَـعَ نسيـانِ الضَّغـائِنِ والأَحْقـادِ !) قبِلـوا هَذا دونَ خـلافٍ . . (وإنَّهم سَيفْتحـونَ البـابَ لمَنْ سَيُحالِفُهم مِنَ القبـائِلِ) وهَذا قبِلُوه راضِينَ ، ولَمْ يعْترضوا عـليْه ، أَمَّا (أَنْ يردُّوا من جاءَهُـمْ مُسْلماً ، ولا ترُدُّ قرَيْشٌ مَنْ جاءَهـا مِنْ أَصْحاب محمَّدٍ ؟ ! !) فهـذا صَعْبٌ تحمُّلُهُ ، وتمثَّلَ الغَضَـبُ الجماعيُّ بعمَرَ بْنِ الخطَّـابِ الذي قـالَ : يا رسـولَ اللهِ، أَلسْتَ بـرسولِ اللهِ ؟ قـالَ : بَلىٰ ، قال: أَلَسْنا علىٰ الحقِّ ؟ وعدُّونا علىٰ الباطِلِ ؟ قـالَ : بَلىٰ ، قالَ : فَعلامَ نُعطي الدَّنيَّةَ والـذُّلَّ في دِيننا إذاً ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ قولَةَ الـواثِقِ مِنْ نَصْرِ ربِّهِ : (أَنا عَبْدُ اللهِ ورسولُهُ ، لَـنْ أُخالفَ أَمْرَهُ ، ولَنْ يُضيِّعَني . . .) أيْ لَمْ يفعلِ الرَّسولُ إلا ما أَمرَهُ بِهِ اللهُ ، وإنَّهُ لَهُ لمطيعٌ .

وَرَضِيَ الرَّسُولُ والصِّدِّيقُ

لَقَدْ رضيَ الرَّسولُ عَنِ الصُّلحِ إذْ غضِبَ عُمَرُ والصَّحابةُ إلا واحداً ، وأَفْهَمَهُم رسولُ اللهِ بقولِهِ وجوابِهِ لِعُمَر بأنَّ الأَمْرَ قَدْ تدخَّلَتْ فيهِ العِنايةُ الربَّانيَّةُ وهُمْ لا يَشْعرونَ ، بدْءاً مِنْ بُروكِ النَّاقةِ وانتهاءً بالشَّرطِ الذي رَأَوْا فيه غُبْناً وإجْحافاً . . ولكنَّ عُمَرَ وأَمْثالَهُ لَمْ يَنْظُروا إلى أَبْعد مِنْ ذلكَ أيْ إلى حيْثُ نَظرَ أَبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ إذ قال لِعُمرَ : (أيُّها الرَّجُلُ إنَّهُ رسولُ اللهِ ، ولَنْ نَعصيَ رَأْيَهُ ، فاسْتَمسِكْ برَأْيِه حتَّى تموتَ ، فواللهِ إنَّهُ لَعلىٰ الحقِّ) .

أليْسَ رسولُ اللهِ هو الذي أَمَرَ بالبيْعةِ قَبْلَ المعاهَدةِ ؟ أَليْسَ هُوَ الذي اشتَدَّتْ حماستُهُ للدِّفاعِ عَنِ الحقِّ عِندَما اشتدَّ عِنادُ قرَيْشٍ ومُجاهرتها بنيَّةِ العُدْوانِ ؟ . ومَعَ ذلكَ فقَدْ رضيَ رسولُ اللهِ عَنِ الصُّلحِ ، ومالَ إلى رجْحانِ كَفَّةِ السَّلامِ ، ولَنْ يكتشِفَ المسْلمونَ سلامَةَ الصُّلْحِ إلا بعْدَ مدَّةٍ مَنَ الزَّمنِ .

أَبُو جَنْدَلٍ

وأَرادَ اللهُ أنْ يمتحنَ صَبْرَ المؤمنينَ وقُوَّةَ إيمانِهم ، فَساقَ إليهم في هذِهِ السَّاعةِ (أَبا جَنْدل بْنَ سُهَيل) هارِباً مِنْ مكَّةَ يجرُّ معَهُ قيودَ سِجْنِهِ ، ففرِحوا بهِ ، وتلَقَّوهُ في الحدَيْبيةِ أَمامَ أَبيه سُهَيل الذي ما زال أَمامَ رسولِ اللهِ يكْتُبُ العَهْدَ ، فقامَ سُهَيل يَضْربُ وجْهَ ابنِهِ أَبي جَنْدل ، فصاحَ أبو

جَنْدل: يا مَعشَرَ المسلمينَ أَتَتركونني أُرَدُّ إلى المُشْركينَ يُؤْذونني في دِيني؟ فبَكىٰ المسلمونَ لِكَلامِ أبي جنْدلٍ ، وردَّهُ الرّسولُ ﷺ ، لأنَّ الشَّرطَ كانَ قَدْ كُتِبَ في الصُّلْحِ ، وقالَ لَهُ : (يا أَبا جَنْدلِ اصْبِرْ ، واحْتَسِبْ ، فإنَّ اللهَ جاعِلٌ لَكَ ولِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفينَ فَرجاً ومَخْرجاً ، إنا قَدْ عَقَدْنا بَيْنَنا وبَيْنَ القَوْمِ صُلْحاً ، وأَعْطَيناهم علىٰ ذلكَ ، وأَعْطونا عَهْدَ اللهِ ، وإنَّا لا نَغْدرُ بِهم) ، وتثورُ الحَمِيَّةُ بابْنِ الخطَّابِ ، ويَنْصرفُ سُهيلٌ وابْنُهُ أمامَ دموعِ المُسْلمينَ المنْهمِرةِ حُزْناً علىٰ أَبي جَنْدل .

أُمُّ سَلَمَةَ مُنْقِذَةُ الموقفِ

وطَلَبَ الرَّسولُ ﷺ مِنَ المسلمينَ أَنْ يُطيعوهُ ، فيتحلَّلوا مِنْ إحرامِهم ، ويَذْبحوا ما أَتَوا بِهِ مِنْ قُرُباتٍ للهِ ، ويَحْلقوا رُؤوسَهم ، وهيَ مناسِكُ العُمرةِ والزِّيارةِ ، فلَمْ يجِبْهُ أحَدٌ مِنَ الصَّحابةِ ، وكَرَّرَ أَمْرَهُ ثلاثَ مرَّاتٍ ، ثُمَّ دَخلَ إلى خَيْمتِهِ وفيها أُمُّ سَلَمةَ زوْجَتُهُ ، فرأَتِ الزَّوجةُ غَضَبَهُ ، وعَرفَتْ ما بِهِ فقالَتْ : يا رسُولَ اللهِ لا تَلُمْهُم ، فَقَدْ نَزلَ بِهم أَمْرٌ عظيمٌ مِنْ أَمْرِ الصُّلحِ ، ورُجوعِهم بغَيرِ فَتْحٍ ، ثُمَّ أَشارَتْ إليهِ أَنْ يخرُجَ إليهم دُونَ كلامٍ ، فَيَحْلِقَ رَأْسَهُ أمامَهم ، ويَنْحرَ ذبيحتَهُ ، ويتحَلَّلَ مِنْ لِباسِ الإحرامِ ، ففعَلَ الرسولُ ﷺ بنَصيحةِ أُمِّ سَلَمةَ ، فلمَّا رأَىٰ النَّاسُ ذلكَ قاموا ، فنَحروا ، وحلَقوا ، وتحَلَّلوا ، ورسولُ اللهِ يتَبسَّمُ لهُمْ ، ويَعِدُهم أنَّ الرُّؤيا التي رَآها سوْفَ تُنفَّذُ ، ومِمَّا قالَهُ لهُمْ : (إنَّكُم سَتَدْخُلونَ ، وتَطُوفون بِهِ إنْ شاءَ اللهُ) أيْ بالبيتِ الحَرامِ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٤٧

الفتح المبين



رُجُوعُ المُسْلِمِينَ

مَرْحَباً بكُمْ يا أحبَّائي في تتمَّةِ الحديثِ عنِ السَّلامِ بيْنَ قريْشٍ ومحمَّدٍ ﷺ . . لقَدْ عرفْنا بنُودَ الصُّلْحِ التي اتَّفقَ عليْها الطَّرفانِ في الحديْبِيةِ.. والآنَ ، سنَرجِعُ مع الصَّحابةِ الكرامِ إلى المدينَةِ ، لنَقِفَ علىٰ مَدىٰ الفائِدةِ العظيمةِ مِنَ الصُّلْحِ الكَريم . . بَدْءاً منْ لحظَةِ الوُصولِ وقُبَيْلَها . . ها هُمْ أُولاءِ المسلمونَ يعودون وفي أَنْفسِهِم حيرَةٌ شديدةٌ من انعقادِ هذا الصُّلْحِ ، إنَّهم لَمْ يُدْرِكُوا حتَّىٰ الآنَ ما فِيه مِنْ خيرٍ .

أَراكُم تتذكَّرونَ بنُودَ الصُّلحِ ، وتَتصوَّرون معي سَبَبَ ما أَصابَ الصحابةَ أَثْناءَ كتابةِ شُروطِ الصُّلحِ ، وإنَّهُ لَمْ يحدثْ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَركَ رسولُ اللهِ مشاوَرةَ أصحابِهِ كَما فعلَ في الحديْبِيةِ ، ولَمْ يحدُثْ أَنْ وقَفَ أصحابُهُ مِنْ قَبْلُ أبداً مثل موقفِهم آنذاكَ . لَقَدْ تَساهلَ أمامَ عِنادِ قريْشٍ قائِلاً : (أنا عَبْدُ اللهِ ورسولُهُ ، ولَنْ أُخالِفَ أمْرَهُ ، ولَنْ يُضَيِّعَني) .

الصُّلْحُ رَبَّانيٌّ

ويَرتَسِمُ سؤالٌ مُلِحٌّ علىٰ وُجوهِ الصَّحابةِ : أَيْنَ الخيْرُ في هَذا الصُّلحِ؟ . . ويتْلُو رسولُ اللهِ عَنْ هَذا الصُّلحِ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ فيقُولُ عُمرُ : أَوَ فتْحٌ هُوَ يا رسولَ اللهِ ، وقَدْ لَقِينا ما لَقِينا ؟ ! قالَ ﷺ : نعَم ، والذي نَفسي بيدِهِ إنَّهُ لَفَتْحٌ ، فقالَ أَحَدُ السَّامِعين مُعْترِضاً : ما هَذا بفَتحٍ ، فبلَغَ كلامُه رسولَ اللهِ ، فغضِبَ الرَّسولُ ،

وقال: بِئْسَ الكَلامُ ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الفَتْحِ ، أَنَسِيتُم يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُصْعِدون ولا تَلْوون على أَحدٍ ، وأَنا أَدْعوكم في أُخـراكم ؟ أَنَسِيتُم يوْمَ الأَحْزابِ إِذْ جَاؤُوكم مِنْ فَوْقكم ومِنْ أَسْفل مِنْكم ؟ .

وفَهِمَ المسلمُونَ مِنْ جوابِ الرَّسولِ أَمْراً هامّاً ، فقَدْ كفاهُم ما كانَ مِنْ حُروبٍ ومعاركَ ، وإِنَّ الحَرْبَ لو حدثَتْ عِوضاً عنِ الصُّلح ، لكانَتْ مجازَفَةً خطيرةً ، ولقَدْ نَصرَهُم اللهُ في الحديبيةِ إِذْ جعلَ قُريْشاً تَقْتنعُ بالصُّلحِ والعُدولِ عنِ الحرب . .

سِلْمٌ مَعَ قُرَيْشٍ

لَقَدْ أَدْركَ المسلمونَ أَنَّ خَيْراً لا بُدَّ وسَيَحصُلُ إِذاً ، ولكنْ مَتىٰ ؟ لَمْ يُدْركوا نَوْعَ هَذا الخيرِ ، ولا مكانَهُ ولا زمانَهُ ؟ ولا كيفَ سَيكونُ ؟ إِنَّ أَوَّلَ فائدةٍ سَيَحصلُ عَلَيْها المسلمونَ هُوَ السِّلْمُ مَعَ قُريْشٍ ، فَقَدْ وَضَعَتِ الحربُ أَوْزارَها بناءً على شُروطِ الصُّلْحِ لمدةِ عشْرِ سَنواتٍ ، وفي هَـذا مُنْتهىٰ السَّلامِ ، وكأَنَّ الهزيمَةَ ستَلْحقُ بها على مَرِّ الحروبِ إِن اسْتمرَّتْ في عُدْوانِها ، وأَنَّ صِلةَ الأَرْحَام . . وتَعْظيمَ حرماتِ الله أَوْلىٰ ، فلا مانِعَ مِنْ هذا السِّلْمِ الطَّويلِ ، وإِنَّهُ لاعترافٌ منها بدولةِ المسلمينَ .

السَّلامُ يا أَحبَّتي أَجْملُ مظهرٍ لِلْفتحِ الذي سَمّاهُ اللهُ فَتْحاً مُبيناً ، ففي السَّلامِ خيْرٌ ، وكلُّ الخيرِ ، وأيُّ خيْرٍ أجملُ مِنَ السَّلامِ يخيِّمُ على الرُّبوعِ؟ ولا سِيَّما وأَنَّهُ سَلامٌ مَعَ أَلدِّ الأعداءِ : (قُرَيْشٍ) . وبإِخمادِ

المعاركِ مَعَها الآنَ يَخمدُ لَهَبُها . .

سُهُولَةُ الدَّعْوةِ

اسْتفادَ الرَّسـولُ ﷺ مِنْ فُرصةِ رُضوخِ قريْشٍ للسَّلامِ ، فهـيَ فرصَةٌ يَنْبغي أَلا تُضيَّعَ ، فَضَربَ بذلكَ مَثَلاً رائِعاً في الحكْمَةِ والسِّياسةِ ودقَّةِ البصرِ وقُوَّةِ النَّظرِ إلى المُسْتقبلِ .

وفي هَذا السِّلمِ سيَفْتحُ الرَّسولُ أَبْوابَ الدَّعوةِ ، وسيُسهِّلُ العملَ لَها ، وسيُصبحُ المسلمونَ أَقْدرَ على الاتِّصالِ بالنَّاسِ في دِيارِهم ليَشْرحوا لهم مَبادئَ الدَّعوةِ ، ويُوصلوها إلى قُلوبِ الدُّنيا ، وإِنَّه لرائعٌ عملُهُم . . حيْثُ انْتشرَ الإِسلامُ ، وزادَ عددُ المسلمينَ على عَشَرةِ آلافٍ في سَنةٍ ونصْفِ السَّنةِ بعْدَ الصُّلحِ ، بيْنما كانَ جَيْشُ الرَّسولِ في الصُّلْحِ لا يَزيدُ على أَلْفٍ وستمائةِ رَجُلٍ ، وسَهَّلَ بذلكَ الأَمْرَ على رَسولِ اللهِ في مُراسلةِ الملوكِ والرُّؤَساءِ فيما جاوره مِنْ أَقطارِ الدُّنيا ، حيثُ كانَ وَقْعُ المراسلاتِ أَقوىٰ ، يكْتُبُها رسولُ اللهِ مِنْ مَرْكزِ عزَّةٍ وأَمْنٍ وسلامٍ وقوَّةٍ . .

انْعزالُ اليهودِ

وبهَذا الصُّلْحِ أَيُّها الأَحبةُ انعزَلَ اليهودُ في قَوْقَعةٍ وحيدينَ لا نَصيرَ لَهُم ولا مُعينَ ، في شِبْهِ عزلةٍ عَنِ العربِ ، وضاقَتْ عليْهمُ الدَّوائرُ ، فانْحصروا في محيطٍ ضيِّقٍ ، وحاولوا الغَدْرَ بالمُسلمينَ مِنْ جديدٍ دُونَ أَنْ يجِدوا مَنْ يُساعِدُهُم ، مِمّا سَهَّلَ القَضاءَ على غدْرِهِم في مَكانِهِم ،

وأعطاهم الرّسولُ ﷺ الدّرسَ الأخيرَ في حياتِهِ عندَما غزاهم وهُم متحصِّنونَ في خيبَرَ ، وستحدثُ عَنْ غزوةِ خيبرَ في قِصةٍ أُخرىٰ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وإنّها لفائدةٌ كبيرةٌ ، استفادَها المسلمونَ ، ولَمْ يكُونوا يُدرِكونَها عنْدَ كتابةِ شُروطِ الصُّلْحِ ، واليومَ قَدْ أخذوا يفسّرونَ شَيْئاً فشَيْئاً خطأَ غضبهم وعَدَم جدْواهُ أمامَ رسولٍ يَعدِهُم بأنّه أعظَمُ الفُتوحِ .

ولعلَّ في انعزالِ اليهودِ وهزمِ الرَّسولِ لهُم في أوكارِهم عِزّةً للإسلامِ والمُسْلمين معاً .

اعْترافُ قُرَيْشٍ

وإذا راجعْنا الشَّرْطَ الذي اتّفقَ فيهِ الطَّرفانِ على أنْ يعودَ محمّدٌ ﷺ إلى مكّةَ زائراً مُعتَمِراً في العامِ القادمِ ، رأيْنا في ذلكَ اعترافَ قريْشٍ بحقِّ المسلمين في هذه الزِّيارةِ ، وفي هذا فوزٌ عظيمٌ للمسلمين في المدينةِ ، وخيرٌ وبركةٌ على المسْتضعفينَ في مكّةَ ، ولو حدَثَ قتالٌ قبْلَ الصُّلحِ لذهَبَ ضحيّتَهُ المسْتَضْعَفون دونَ أنْ يَعلَمَ المُسْلمون بإيمانِهم وأنّهم معَهُم لا يَبْغونَ قِتالَهم .

إنَّ اعترافَ قريْشٍ بالزِّيارةِ وحقّها للمُسلمينَ هُوَ اعترافٌ بدَوْلةِ الإسْلامِ أيْضاً ، واعترافٌ بدينٍ جديدٍ لا يَرْضىٰ بآلهتِها وأصْنامِها ، واعترافٌ برجلٍ اسمُهُ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ كرئيسِ دَوْلةٍ يَعْقدونَ مَعَها

الصُّلحَ عَنْ طريقهِ .

ألا ترونَ يا أحبّائي إذاً كَمْ للصُّلحِ مِنْ فوائدَ تتّضِحُ يَوْماً بعْدَ يومٍ ؟

ألا ما أعظمَكَ يا رسولَ اللهِ ! . .

الشرطُ المُؤْلِمُ

ومَعَ أنَّ قُرَيْشاً قدِ اشْتَرطَتْ شَرْطاً مُؤْلماً وهُوَ أنْ يَرُدَّ المسلمونَ كُلَّ مَنْ يأْتيهِم مُسْلِماً مِنْ قُرَيْشٍ إلىٰ أهْلِهِ ، إلا أنّنا نَجِدُ قريْشاً نفْسَها تَضِيقُ ذرْعاً مِنْ هَذا الشَّرْطِ ، وتُناشِدُ رسولَ اللهِ ﷺ أن يقْبَلَ كلَّ مَنْ جاءَه مُسْلِماً مِنْ قريْشٍ ، والسَّببُ هُوَ أنَّ أبا بصيرٍ القُرشيَّ قَدْ هرَبَ إلى المدينةِ ، فأرسلتْ قُريْشٌ في أثرِهِ تطالِبُ بِرَدِّهِ وفاءً للشَّرطِ ، فيقولُ الرّسولُ : (يا أبا بصيرٍ ، إنّا قَدْ أعْطيْنا هؤلاءِ القومَ ما قدْ عَلِمْتَ ، ولا يَصْلحُ لَنا في دِينِنا الغَدْرُ ، فانْطلِقْ إلىٰ قومِكَ ، فإنَّ اللهَ سَيَجعلُ لكَ ولمنْ معَكَ مِنَ المسْتضعَفينَ فرَجاً ومَخرجاً . .)

وعادَ أبو بصيرٍ مَعَ مَنْ جاءَ يطلُبُه ، وفي الطَّريقِ هربَ إلىٰ مكانٍ علىٰ ساحِلِ البحرِ ، وقَعدَ هُناكَ يَعْترِضُ طريقَ قريْشٍ وتجارَتَها بعْدَ أنْ تسلَّلَ إليْهِ بعضُ المسْتضعَفينَ مِنْ مكّةَ وبلَغَ المتجَمعونَ ثلاثَمائةِ مقاتِلٍ مسلمٍ يَقْطَعُونَ طريقَ التِّجارةِ القرشيّةِ .

لا حاجَةَ لَنا بِهِمْ

ولِهَذا السَّببِ لَمْ تَعُدْ قريْشٌ تتحمّلُ الشرطَ الذي آلَمَ المسلمينَ مِنْ قَبْلُ ، وغَدا يُؤلمها اليومَ بلا حدودٍ ، فاستغاثَتْ برسولِ اللهِ قائلةً : لا

حاجةَ لَنا بمَنْ يُريدُ أَنْ يأْتيَ إليكَ منَ المستضعَفين ، فمنْ خرج منّا إليْك فأَمْسِكْهُ مِنْ غيرِ حَرجٍ عليْكَ ، ولا نحاسِبُكَ على الشَّرطِ الذي اتَّفقْنا مَعَكَ بِشأْنِهِمْ . .

فكتبَ الرَّسولُ ﷺ كتاباً إلى أبي بصيرٍ وأبي جندلٍ يأْمُرُهما أَنْ يقدُما إلى المدينةِ ، ويأْمُرُ مَنْ مَعَهما مِنَ المسلمينَ أَنْ يَرْجعوا إلى بِلادهم ، ويكفُّوا عنِ اعْتراضهم لتجارةِ قريْشٍ . ووصلَ أبو بصيرٍ وأبو جندلٍ فرحيْنَ إلى المدينةِ (وهُما اللذانِ ردَّهما رسولُ اللهِ منذُ مدَّة) ، وهيَّأَ لهما العيْشَ معَهُ ، وهُنا أصبحَ المجالُ مفتوحا لأنْ تسكُتَ قريْشٌ عَنْ كُلِّ مسلمٍ يلتحقُ با لمدينةِ مِنْ مكَّةَ دُونَ مطالبةٍ بِردِّهِ ، فقَدْ رأَتْ أثرَ مَنْ يُطالبونَ ردَّهم إليهمْ أمْثال أبي بصيرٍ وأبي جندلٍ . .

صَدَقْتَ يا رسُولَ الله

وكأنِّي بالصَّحابةِ يُدْركونَ عجلَتَهم في غضبِهم لشرُوطِ الصُّلحِ ، ويتأكَّدونَ منَ الفتحِ المبينِ بيُمْنِه وبَركتِه على المُسْلمينَ . . إنَّهم اليومَ قَدْ رأَوْا فوائدَ الصُّلحِ : سِلْماً مع قريْشٍ ، وانعزالاً لليهودِ في أوْكارِهم ، واعْترافاً بدوْلةِ الإسلامِ مِنْ ألدِّ الأعداءِ ، وتنازلاً عنِ الشَّرطِ المؤلمِ ممنْ طَلبوا كتابَتَهُ ، ويبْتسمُ عُمَرُ ، ويَسْتسمحُ ، ويَسْتغفرُ اللهَ لاسْتعجاله في غَضَبِهِ وعَدَمِ تريُّثه وتَروِّيه ، ويُوقنُ ويَطمئنُّ بأنَّ اللهَ قَدْ فتحَ عَليْهم فتْحاً مُبيناً ، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، أَعْلَمُ وأدرى حينما قالَ لمَنِ اعْترضَ مِنْ بيْنِهم

عَنِ الفتْحِ : (بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الفُتوحِ . .) . . ويَتَوافَدُ المسلمونَ على رسولِ اللهِ ، ويَنْظرونَ إلى عَيْنيه ، وكأنَّهم يقولونَ خَجلينَ : صَدقْتَ يا رسولَ اللهِ ، وما كُنَّا لنكَذِّبَكَ . . إنَّهُ لأَعْظمُ الفتوحِ ، واللهِ يا نَبيَّ اللهِ ما فكَّرْنا فيما فكَّرْتَ فيهِ ، ولأَنْتَ أعْلمُ بالصَّوابِ وأمْرِه منَّا . .

بُعْدُ النَّظَرِ

وأَظْهرتِ الأيّامُ بُعْدَ نظرِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وحُسْنَ سياستِهِ وصَوابَ رأْيِه، وبَدا الرَّسولُ للذينَ ألمْتهُم شروطُ الحديْبيةِ أنَّه كانَ أصْوبَهم رأْياً ، وأَبْعدَهم مدىً ، وأشدَّهم يقيناً بأَنَّ اللهَ لَنْ يُضيِّعَهُ ، ولَنْ يخذلَهُ ، وأنَّ ما رآهُ هُوَ الخيرُ الكثيرُ والفوْزُ العَظيمُ . .

وسبْحانَ اللهِ . . قريْشٌ الآنَ تَلْمسُ بيَدِها قساوتَها في الشروطِ التي لَمْ تَنْجحْ ، ولَمْ تَسْتَطعْ هي أنْ تصبِرَ عليْها ، فاسْتغاثَتْ برسولِ اللهِ ، وفي هَذا اعْترافٌ منها ببُعْدِ نظَرِ الرَّسولِ أيضاً ، فالرَّسولُ ﷺ قبْلَ أمْراً يَعْرِفُ مُسْبقاً أنَّ قُرَيْشاً لَنْ تتحمَّلَهُ ، وأنَّ قساوةَ الشَّرطِ ستنْقلِبُ عليْها، وهَذا ما حَدثَ .

شُكْراً لكَ يا رسولَ اللهِ ، وهَنيئاً لكَ اعْتمادكَ الصَّحيحَ على اللهِ ، يا صاحبَ النَّظْرةِ الحسنةِ في كُلِّ الأمورِ ، وإنَّكَ قَدْ أثبتَّ للكافرينَ أنَّكَ رسولُ اللهِ حَقّاً ، تنظُر بعينِ اللهِ وبنُورِ اللهِ ، وتَرْضى بأَمْرِ اللهِ هاديكَ .

وهَنِيئاً لأَبي بكْرٍ

ويحدِّثنا أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ حـديثاً لَطِيفاً فيقُولُ : ما كانَ فَتْحٌ أعظـمَ في الإسلامِ مِـنْ فَتْحِ الحديْبيـةِ ، ولكنَّ النّـاسَ يومئـذٍ قَصُرَ رأْيُهُم عمّا كانَ بيْنَ محمَّدٍ وربِّهِ ، والعبادُ يَعجَلونَ ، واللهُ لا يَعْجلُ كعجلةِ العِبادِ ، حتَّى تَبْلغَ الأُمورُ ما أَرادَ . لقدْ نظرْتُ إلى سُهَيـلِ بْنِ عَمْرو في حِجّةِ الوَداعِ (وهـي حجَّةٌ حجَّها رسولُ اللهِ بعْدَ فَتْحِ مكَّـةَ) قائماً عِنْدَ النَّحرِ ، يُقرِّبُ إلى رسـولِ اللهِ الذَّبيحةَ ، ورسولُ اللهِ ﷺ ينحرُها بيدِهِ ، ودَعـا الحلاّقَ فحلَقَ رأسَـهُ ، فـأنْظُرُ إلى سُهيلٍ يلْقـطُ مِنْ شعرِ رأْسِ الرّسولِ ، ويَضَعُها علىٰ عَيْنيه، وأَذْكُرُ إباءَهُ يومَ الحديبيةِ حيْثُ لَمْ يكْتُبْ (بسـم الله الرحمن الـرحيم، ولَمْ يكتـبْ (محمدٌ رسـولُ اللهِ) ، بَلْ كَتَبَ (بـاسمكَ اللهـمَّ ومُحمّـدٌ بـنُ عبْـدِالله) ، فحمـدْتُ اللهَ الـذي هَـداهُ للإسْلام، فصَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ علىٰ نبيِّ الرحمةِ الذي هَدانا بِهِ، وأَنقذَنا مِنَ التهلُكَةِ .

آياتٌ كريماتٌ

وسبْحانَ اللهِ الـذي سمَّىٰ الصُّلـحَ (فَتْحاً مُبيناً) ، وها نَحْـنُ أُولاءِ الآنَ سَنحْفظ بعْضَ الآياتِ الكريمةِ عَـنْ هَذا الفتْحِ مِنْ سورةٍ اسْمُها سورةُ الفَتْحِ ، نزلَتْ في عامِ الحُدَيْبيَةِ بعْدَ مُعاهدةِ الصّلْحِ والفَتْحِ :

بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا

تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ . . ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

ولَقَـدْ آتـىٰ هَـذا الصُّلْحُ ثمراتِـهِ طيِّبةً يـانِعَـةً بأَسْرعَ ممَّـا كانَ ينتظر المسلمونَ، وبأَعْجبَ ممَّا كانُوا يتصوَّرونَهُ ، وما أَطْيبَه مِنْ صُلْح ، وأَعْظِمْ بِهِ من صُلْحٍ سمّاهُ ربّنا ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وسمّاه رسولُنا (أَعْظَمَ الفتوحِ)، وإنَّنا مَعَ اللهِ ورسولِهِ فهذا الصُّلْحُ مبينٌ وسيِّدُ الفُتوحِ . . .

حَجَرُ الأَساسِ

وصدَقَ مَـنْ قالَ : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قـدْ وضعَ بعَهْدِ الحديْبيـةِ حجَرَ الأَسـاسِ في اعترافِ الدُّولِ بـهِ ، وحجرَ السَّلامِ في سياسةِ الإسْلامِ ، وحَجَـرَ الأساسِ في الفُتُـوحِ العظيمـةِ التـي يتـمُّ دُونَ قتالٍ أوْ غـدْرٍ أوْ حربٍ أوْ إهراقِ دماءٍ .

وأَنْتُم يا أعزّائي تَعالوا نضَعْ حجَرَ الأَساسِ في عَلاقتنا الإسْلاميَّة ، أنْ لا نتسرَّعَ في الحُكْمِ على الأُمورِ ، وأنْ نُـدْرِكَ بأَنَّ كُلَّ ما يـراهُ اللهُ ورسولُهُ هُوَ خيرٌ لَنا وللدَّعوةِ .

وكمْ هوَ جميلٌ ونحنُ صغارٌ أنْ نُعـوِّدَ أنْفسنا علىٰ طاعةِ اللهِ ورسولِهِ ، فنحنُ لَمْ نُؤمِنْ بـاللهِ إلا بعْدَ أنِ اسْتَخدمْنا عُقولَنا في طاعتِهِ ، ولا معنىٰ

لطاعةِ اللهِ إلا إذا اعْتَرفنا بأَنَّ كُلَّ أوامرِهِ صحيحةٌ ذاتُ فائدةٍ لَنا وللمجتمعِ وللعالمِ كلِّهِ . . بَلْ وللكوْن مِنْ حَوْلنا ، والحمدُ للهِ العليمِ الحكيمِ . . ويَعْلَمُ بحكمتِهِ ما يَصْلُحُ لعبادِهِ .

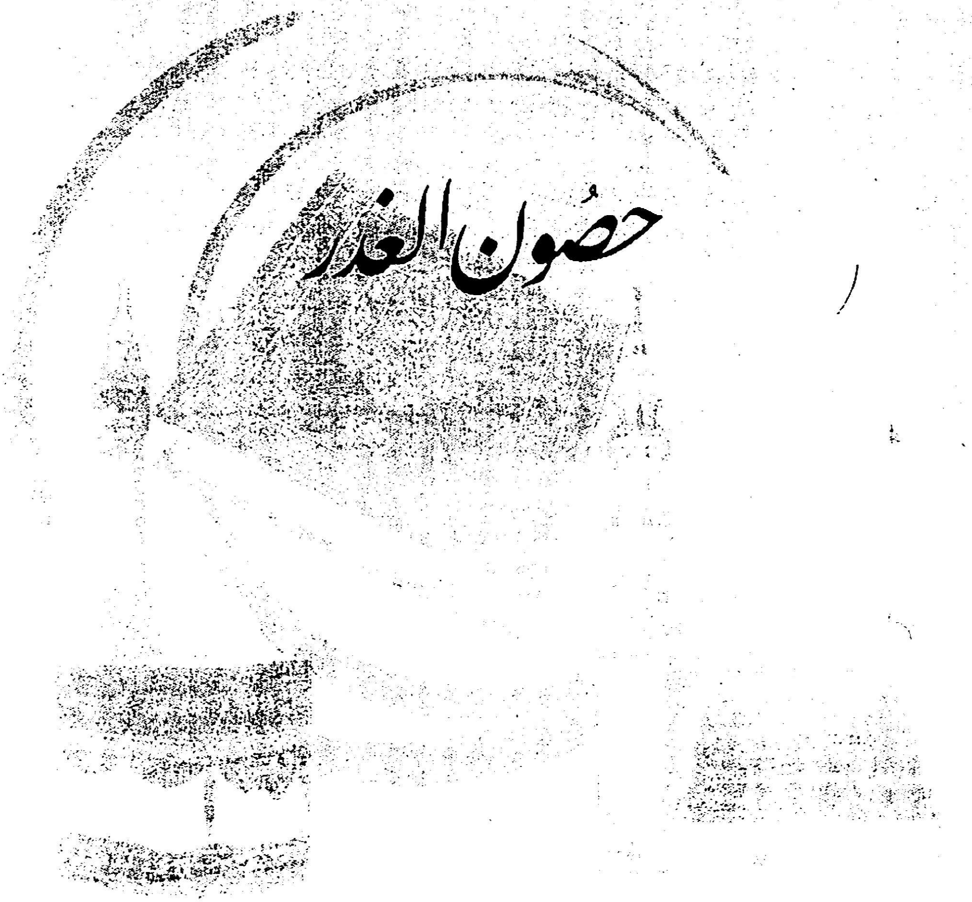
إلى مَرْتَبَةِ الصِّدِّيقِ

وإنْ فَهِمنا هَذا كُلَّه ، فقَدْ وصَلْنا بعوْنِ اللهِ إلىٰ مرتَبة التَّصديقِ التي وصلَ إليها أبو بكرٍ الصّدّيقُ ، وكَمْ هُمْ مُخْطئونَ أُولئِكَ الذينَ يُؤْمنون باللهِ ورسولِه ، ثُمَّ يَرْفضونَ أَنْ يَروا الصَّوابَ في أَوامرَ قالَها أَصْدقُ القَائلينَ ! ! . إنَّهم يُخْطئونَ ، ويُبَرِّرونَ خَطأَهُم بقوْلهم : أَيْنَ الخيرُ في هذِهِ الأَوامرِ ! إنَّنا لا نَراهُ ! ! ولا نَلْمَسُهُ ؟ وإنَّ ظاهرَها شَرٌّ لَنا وعَلَيْنا !!؟ .

والحمدُ للهِ أنَّنا لَسْنا مِنْ هؤلاءِ يا أحبّتي ، وإنْ كُنَّا قَدْ أخطأنا مرَّةً فإنَّنا سَنُعاهدُ اللهَ قائلينَ : (أَنْتَ ربُّنا تَعْلَمُ ما يَصْلحُ لَنا ، وما يَصْلحُ عليْهِ أمْر دينِنا ودُنْيانا ، لَنْ نَعْصيَكَ في أمرٍ بعد اليوم . .) وإنَّهُ لا مانعَ يا أحبّتي أَنْ نَعْرفَ الحكمةَ إذا اسْتطَعنا في كلِّ ما أَمَرَنا اللهُ بِهِ ، دونَ أَنْ يكونَ ذٰلكَ سَبباً في الاعتراضِ علىٰ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا . . والآنَ . . تابِعوا معيَ القِراءةَ لِنُفَصِّلَ في فائِدتيْن هامّتيْن مِنْ فوائِدِ هذا الصُّلحِ العظيمِ .

قِصَصُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٤٨



حصون الغدر

دُرُوسٌ ثَلاثَةٌ

لو سأَلْتكم : ما اسمُ قبائلِ اليهودِ التي كانَتْ في المدينةِ عنْد هجرةِ الرسولِ ﷺ إليها ؟ فستجيبُونَ : (قبائلُ اليهودِ التي كانَتْ هيَ : قبيلَةُ بَني قَيْنقاع ، وقَبيلةُ بَني النَّضير ، وقَبيلةُ بَني قُرَيظة) .

ولو سأَلْتكُم أيضاً : مَنْ بَقيَ مِنْهُم بعْدَ استقرارِ الرَّسولِ ؟ لقُلْتُم لي : (لَمْ يَبْقَ أيَّةُ قبيلةٍ يهوديةٍ ، فلقدِ اضطرَّ الرَّسولُ ﷺ أنْ يعطيَهُم دُروساً ثلاثَةً في السَّنواتِ الأُولىٰ التي اسْتقرَّ بها ، نتيجةَ غَدْرِهم وخِيانتِهم ونَقْضِهم العهْدَ معَهُ . فبعْدَ غزْوةِ بدرٍ الكُبرىٰ طَرَدَ قبيلةَ بني قَيْنُقاع ، وبعْدَ غزوةِ أُحدٍ طردَ قبيلةَ بني النَّضير ، وبعْدَ غزوةِ الأحزابِ حكَمَ سعدُ بنُ معاذٍ على بَني قُرَيْظَةَ بقتْلِ رجالِهم وسَبْيِ أوْلادِهم ونِسائهم وأَخْذِ أمْوالِهم) .

إذاً ، ثلاثةُ دروسٍ لليهودِ كانَتْ قاسيةً ولكنَّها عادلةٌ كُلَّ العَدْلِ ، واضحةٌ في أسْبابِها كُلَّ الوضُوحِ . .

مُسالَمَةُ الرَّسُولِ

وكانَ الرَّسولُ ﷺ قبيلَ هذهِ الدُّروسِ الثَّلاثةِ ، يحاولُ جهدَهُ أنْ يُسالِمَ اليهودَ ، فتَمْنعُهم نيَّةُ الغَدْرِ المتأَصِّلةُ في نفوسِهم ضِدَّ الحقِّ أَنْ يَقْبَلوا هذِهِ المسالَمَةَ مِنْ رسولِ اللهِ ، هَلْ لأنَّ المسالَمةَ غيْرُ مُفيدةٍ لهُم ؟ لا . . وهَلْ هُناكَ شيْءٌ أَحْلىٰ مِنَ السَّلامِ وأَغْلىٰ مِنَ السَّلامِ ، الذي تَحْويهِ

كلمةُ الإِسلامِ رُوحاً ومَعْنى ولَفْظاً ؟ لا . . وأَلْفُ لا . .

إذاً ما الذي جَعَلَ اليهودَ على مرِّ التَّاريخِ يكْرَهونَ النُّبوَّةَ والأَنْبياءَ ورسالاتِهم ؟ وحتّىٰ كِتابَ التَّوراةِ عَرفُوهُ ثُمَّ حَرَّفُوه حَسبَ أَهْوائِهم ؟ .

إنَّنا يا أحبَّائي لا نَجدُ جَواباً ومسوِّغاً لكُلِّ هَذا سِوىٰ حقْدِهم وحَسَدِهم ، الذي لا يَهْدأُ ولا يَنْقطعُ ، وَلا سِيَّما ضدَّ رسُولِنا الكريمِ محمَّدٍ ﷺ ، وسوفَ نَرىٰ أنَّهم لمْ يَرْعَوُوا ، ولَمْ يَعْتبروا أبداً علىٰ الرُّغمِ مِنْ قساوَةِ ما أَصابَهم مِنَ الطَّرْدِ والقَتْلِ والدَّمارِ والشَّقاءِ .

نِيَّةُ الغَدْرِ

إنَّهم يتجمَّعونَ الآنَ في خَيْبَرَ ، يُفكِّرونَ في أنْ يُبادِلوا سَلامَ الرَّسولِ بعَداوتِهم لَهُ ، وتَزعَّمَهُم (أسيرُ بْنُ رزام) ، وأَخذَ يُعِدُّ لحربِ رسولِ اللهِ ، فأرسلَ لهُ الرَّسولُ ﷺ وفْداً برئاسةِ عبْدِاللهِ بْنِ رواحَةَ ، يطلُبُ إليْهِ السِّلمَ والابْتعادَ عَنِ الحَربِ وسَعيرِ المعارِكِ وويْلاتِ القَتْلِ والفَتْكِ ، ووصَلَ الوفْدُ ، وعَرَضَ عَبْدُ اللهِ رَأْيَ رسولِ اللهِ ، وطلَبَ أَنْ يَقْدمَ أسيرُ ابْنُ رزامٍ إلى المدينةِ ليَتَحالفَ معَ النَّبيِّ ، وليَعيشَ الطَّرفانِ في سلامٍ ، فاسْتجابَ للأَمْرِ ، وخرجَ معَ الوفْدِ إلى المدينةِ ، ولمَّا قطعَ مرحَلةً مِنَ الطَّريقِ نَدِمَ علىٰ خُروجِهِ ، وهمَّ بالغَدْرِ ، وأَهْوىٰ إلىٰ سَيْفِ عبْدِاللهِ بْنِ رواحَةَ يُريدُ نَزْعَهُ مِنْهُ وقتْلَهُ بهِ ، فكانَ عَبْدُاللهِ أسْرعَ مِنْهُ فقالَ : (أَغَدْراً يا عدُوَّ اللهِ ؟) ثُمَّ نزَلَ فضربَهُ بالسَّيفِ ضَربةً أطاحَتْ بفَخِذِهِ وساقِهِ ،

فسَقطَ ابنُ زرامٍ عَنْ بعيرِهِ ثُمَّ ما لَبِثَ أنْ هلَكَ ، ونالَ جزاءَ نيَّةِ الغَدْرِ .

وَرَدُّ الرَّسولِ ﷺ

وتزعَّمَ اليهودَ في خَيْبر زعيمٌ آخَر ، واسْمُهُ (سلاَّم بْنُ مشْكمٍ) ، وحَمَلَ رأْيَ سالفِهِ في عدوانِهِ للمسلمينَ ، وأقامَ مَعَ اليهودِ على نيَّةِ الغَدْرِ وفكرةِ الانتقامِ ، ولكنَّ الأَمْرَ يختلفُ الآنَ ، فليْسَ هُناكَ مَنْ سيُساعدُهم مِنَ العربِ ، فقريْشٌ قَدْ صالحتْ رسولَ اللهِ حقّاً في صُلْحِ الحديْبيةِ ، ولَمْ يجدِ اليهودُ سِوى أقرباءَ مِنْ عقيدتِهم مِنْ يهودِ وادي القُرى وتَيْماء ، واتَّفقوا جميعاً أنْ يَزْحفوا إلى يَثْرِبَ ، وعَلِمَ الرَّسولُ بما يُريدونَهُ ، فأخذَ يتهيَّأُ لِقتالِهم، وكانَتْ خطَّتُهُ ﷺ أنْ يُفاجئَ أعداءَهُ قَبْلَ أنْ يُفاجِئوهُ ، ولكنَّ عبْدَاللهِ بْنَ أُبَيّ رأسَ النِّفاقِ في المدينةِ ، أرْسلَ إلى اليهودِ في خيْبرَ أنَّ محمَّداً وجيْشَهُ في الطَّريقِ إليْكُم ، فخُذوا حِذْرَكُم ، فلمَّا سَمِعَ اليهودُ هَذا ، أخذوا يخرجونَ كُلَّ يومٍ إلى حدودِ بلادِهم مُسلَّحينَ مستعدِّينَ صُفوفاً وفُرْساناً ، ثُمَّ يَقولونَ : هَيْهاتَ ! ! لَنْ يستطيعَ محمَّدٌ أنْ يغزونا . .

حُصونُ خَيْبَرَ

١ - منطِقَةُ النَّطاةِ ، وقَدْ جمعَ اليهودُ فيها المقاتِلةَ مِنَ الفُرسانِ .

٢ - منطِقَةُ الشِّقِّ .

٣- منطِقَةُ الكتيبةِ ، وقَدْ جعَلوا فيها أَمْوالَهُمْ وعِيالَهم مِنَ النِّساءِ

والأطْفالِ ليأْمَنُوا علَيْهم شَرَّ الحرْبِ .

وكلُّ هذِه الحصونِ منيعَةٌ ، على رُؤوسِ جبالٍ ، وعلَيْها رجالٌ مُدرَّبونَ ، مارسُوا القِتالَ ، وكانَتْ جموعُ اليهودِ في خَيْبَرَ مِنْ أقْوى الطَّوائفِ اليهوديَّةِ بَأْساً ، وأوْفرَها مالاً ، وأكْثرَها سِلاحاً ، ولكنَّ اللهَ أخْبرَنا عَنْ جُبْنِهم وخَوْفِهم أجْمَعينَ في ساحةِ المعركةِ ، فلا يحاربُونَ إلا أمامَ حُصونِهم ، حتَّى إذا انْهزموا دَخلوها ، وأغْلقوا أبْوابَها ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾

مَسِيرَةُ الجَيْشِ

والمسافَةُ بعيدةٌ بيْنَ المدينةِ وخَيْبَرَ ، تقْطعُها الإبلُ في خَمْسةِ أيَّامٍ ، ومَعَ ذلكَ أعدَّ الرَّسولُ ﷺ عُدَّتَهُ كاملةً ، وخرجَ في ألفٍ وستمائةِ مُقاتِلٍ ، وهُم أنفسُهم الذينَ شَهِدوا معَهُ صُلْحَ الحُديْبيَةِ ، وبيْنَهم مائتانِ مِنَ الفُرسانِ على ظُهورِ الخَيْلِ .

وقطعَ الرَّسولُ الطَّريقَ في ثلاثةِ أيَّامٍ ، وكانَ في اليوْمِ الرَّابعِ قَدْ وصَلَ أرْضَ خَيْبرَ ، فلمَّا بلَغَها نَزلَ منها بوادٍ يُقالُ لَهُ : (وادي الرَّجيعِ) على نِهايةِ طريقِ قبائِلِ غطفانَ ، ليقْطعَ الطَّريقَ على غطفانَ إذا فكَّرتْ في مُساعدةِ اليهودِ .

وبدأَ الرَّسولُ هُناكَ يخطِّطُ ويفكِّرُ ، ويسْتَشيرُ أصْحابَهُ ، فالمشُورةُ

دائماً تحقّقُ فائدَةً ، فيما إذا اجْتَمعَ الكُلُّ على رَأْيٍ واحدٍ ، ولَمْ يعصوا أَمْرَ رسولِ اللهِ ، وإنَّما لحربٌ تَسْتحقُّ كلَّ طـاعةٍ لرسولِ اللهِ ، وَلا سيَّما وأَنَّها ستكونُ حرْبَ حصونٍ لا حَرْب ميدانٍ . .

رأيُ الحُبابِ

وكـانَ المكانُ الـذي نَزَلَ فيهِ جَيْشُ رسولِ اللهِ ﷺ قَريباً مِنْ حُصونِ (النَّطاةِ) ، فقـالَ الحبابُ بْنُ المنـذِر للقائِد : (يا رسـولَ اللهِ : إنَّ أَهْلَ النَّطاةِ خَبيرونَ بـالرَّمْـي ، وهُمْ مُرْتَفِعـون علَيْنا ، وإنَّا لا نـأْمَنُ غـدْرهم وانْحِطاطَ رَمْيِهم علَيْنا ، والأنسب أنْ نتحوَّلَ قليلاً يا رسولَ اللهِ ، ونغيِّرَ مكانَنا بشَكْلٍ نأْمَنُ فيهِ عدوَّنا) فقالَ لَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ فَرِحاً : (أَشَرْتَ بالرَّأْيِ) وأراكم تتذكّرون اقتراح هذا الصَّحابيِّ الخبيرِ في بدرٍ . . وحقّاً أمرَ الرَّسولُ أنْ يتحولَ الجُندُ إلى مكانٍ بعيدٍ عنْ مدَى نِبالِ العدُوِّ ، وإنَّ رَأْيَ الحبابِ قَـدْ نُفِّذَ ، فَفُوجِئَ اليَهـودُ بتَكاثُرِ المسلمينَ عنْـدَ الصَّباح ، ونزولِهم في مكـانٍ أمينٍ وآمنٍ ، ورأَوا أنَّ رسولَ اللهِ وجُنْدَهُ قَـدْ أَتَوا حقَّـاً لقِتـالِهم ، فـاسْتَملكَ قلـوبَ الجبنـاءِ كـلُّ الخوفِ والـرُّعبِ والهَوْلِ ، وصاحـوا يُنْذِرُ بَعْضـهُم بَعْضـاً ، فَصرخَ بهم الرَّسولُ مكبِّراً : (اللهُ أكبَرُ ، خَرِبَتْ خيبرُ ، إنَّا إذا نَزلْنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المُنْذَرين) .

حِصْنُ ناعم

وفي حِصْنٍ مِنْ حصون النَّطاةِ يُسمَّى (حِصْن ناعِم) بَدأَتِ المعركَةُ ، واخْتَبأَ فيهِ اليهـودُ مع زَعِيمِهم سلامِ بنِ مشكـمٍ ، وكُلَّما حاولوا الخُروجَ

مِنَ الحصْنِ دَحَرَهُم المُسْلمـونَ ، فارتـدُّوا إلى الحِصنِ ، ليَحْتمـوا وراءَ جُدْرانهِ القويَّةِ ، وطالَ الحِصـارُ ، واشْتَدَّ القِتالُ ، حتّىٰ تعبَ المسلمونَ سَبْعةَ أيَّامٍ بلَيالِيها ، ولَمْ يتمكَّنِ المسلمونَ مِنِ اقْتحامِ هذا الحِصنِ المنيعِ إلا بعْدَ أنِ اسْتَلَمَ الـرَّاية عليُّ بـنُ أبي طالـبٍ . . وَفرَّ اليهـودُ مِنْ هـذا الحصْنِ تـاركِينَ جدْرَانه القويّـةَ المنيعةَ للمسلمينَ ، وَهربـوا إلى حِصنٍ آخرَ اسْمُه (حِصْنُ الصَّعْبِ) ، ينتظرونَ جَوْلـةً ثانيةً وقلوبُهم قد ملأها التَّشتُّتُ والذُّعرُ والهَوْلُ . .

وفي أثناءِ الحصارِ لِحِصْـنِ ناعمٍ ، تُوفِّيَ زعيمُ اليهودِ سلامُ بنُ مُشْكمٍ دُونَ قتالٍ ، واسْتَلَمَ الزَّعامةَ بعدَ موتِهِ (الحارثُ بْنُ أبي زينب) .

حِصْنُ الصَّعْبِ

وفي حِصْـنِ الصَّعْـبِ اعْتصَمَ اليهـودُ وقـاتلـوا عنْ أنفسهِـم قِتـالاً شديداً ، اضطرَّ المُسلمُونَ عِندَها إلى التَّراجُعِ قليلاً ، ثُمَّ حثَّهم الرَّسولُ مِنْ جديدٍ ، وتقدَّمَهُم الحبابُ بْنُ المُنْذِرِ ، فانْهزمَ اليهودُ ، وأغلقوا عليهم الحصْنَ ، ولكِنَّ المسلمينَ معَ المُنْذِرِ اقْتحموا الحِصْنَ ، وجَعلوا يقْتلونَ ويأسرونَ مِنَ اليهودِ ، حتَّى فَتَحوه عنْوَةً بقوَّةِ السِّلاحِ وعزم الأبطالِ بَعْد عوْنِ اللهِ تعالى .

ووجَدَ المسلمونَ في ذلك الحِصْنِ مِنَ الشَّعير والتَّمرِ والسَّمنِ والزَّيتِ والعَسَلِ والمتاع شيئاً كثيراً ، وكانوا قـد أصابَتْهم مجاعةٌ لطولِ الحرب

قَبْلَ افْتتاحَ هذا الحصْنِ ، فلمَّا فتحَهُ اللهُ عليهِم ، ووجدوا فيهِ وفرةَ الغنائم ، خَشيَ رسولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِم أنْ تَشْغَلَهُم الغنيمةُ ولمَّا ينتهِ القِتالُ بَعْدُ ، فبعَثَ منادياً ينادي في النّاسِ أن : (كُلُوا ، واعْلفوا ، ولا تَحملوا) أيْ خذوا حاجَتكُم وحاجَةَ بعيرِكُم ودَوابّكم وخُيولكم لا أكثر ..

مَخابِئُ وأسْلِحَةٌ

وفي ذلكَ الحِصْنِ أيضاً وجدَ المسلمونَ في بَيْتٍ تَحْتَ الأرضِ مِنْجنيقاً ، ودبابات ، ودُروعاً ، وسُيوفاً وكثيراً مِنْ آلاتِ الحرْبِ ، فأخذوها لينتفعوا بها في تتمّةِ المعركةِ الفاصلةِ معَ اليهودِ ، وكانَ الذي دلَّهم عليها رجلٌ من اليهودِ أسَرَهُ المسلمونَ .

وبَعْدَ سقوطِ حِصْنِ الصَّعْبِ فرَّ اليهودُ إلى حِصْنِ (الزُّبير) ، وهُوَ حِصْنٌ منيعٌ على رأسِ قمّةٍ عاليةٍ ، فحاصرهُ المسلمونَ ثلاثةَ أيّامٍ ، وظلَّ اليهودُ مُعْتصمينَ بِهِ لا يَخرجونَ منهُ ، وفكّرَ المسلمونَ في حيلة : (إنَّ أمامَ الحصنِ جدولَ ماءٍ ، يمدُّ الحِصْنَ بالماءِ ، فإذا قطعوا عنهم الجدولَ خرجوا مِنَ الحِصْنِ) ، وهذا ما حدَثَ ، فلمَّا خرجوا قاتلوهُم أشدَّ قِتالٍ ، وتَمَّ فتحُ الحِصْنِ المنيعِ الثَّالثِ بإذنِ اللهِ ، وهُوَ آخرُ حِصْنٍ منيعٍ في منطقةِ النَّطاةِ ، انْتقلَ اليهودُ بعدَها إلى منطقةِ (الشِّقّ) ، فاعتصموا بأوّلِ حِصْنٍ مِنْ حُصونِها .

وَحُصُونٌ أُخْرىٰ

وتَوالىٰ سُقوطُ الحُصونِ ، وها هو ذا أبو دجانَةَ الأنصاريُّ ، يحمِلُ حملَةً صادقَةً علىٰ حصْنِ أُبَيّ ، فيهرُب مَنْ فيهِ مِنَ المقاتلين ، وَيتركونه ليَقْتَحِموا حصناً آخرَ هُوَ حصْنُ البريءِ ، فزحَفَ عليهمُ الرَّسولُ ﷺ في أَصْحابِهِ ، وَنَصَبَ على الحِصْنِ مِنْجَنيقاً ، فوقعَ في قلوبِ أهلِهِ الرُّعبُ ، فأسلموا الحِصْنَ ، وهَرَبوا إلى منطقةِ الحصُونِ الثَّالثةِ : (الكتيبة) ، فاعْتَصَموا فيها بحصْنِ (القموص) ، فحاصَرهُ الرَّسولُ ﷺ عِشرينَ ليلةً حتَّىٰ فتحَهُ اللهُ علىٰ يَدِ عليِّ بْنِ أبي طالِبٍ ، وأُسِرَ مَنْ بِهِ مِنَ النِّساءِ والذَّراري ، وانْتهىٰ اليهودُ إلى آخرِ حصنَيْنِ لَهُم وهما : (حصْنُ الْوطيحِ والسَّلالِمِ) ، فحاصَرهما الرَّسولُ بِضْعَ عشرةَ ليلةً ، وتمَّ أخيراً اسْتِسلام اليهودِ ورُضُوخهم لأمْرِ رسولِ اللهِ بعْدَ أنْ أيقنَ اليهودُ هلاكَهم إنْ أصرُّوا على عِنادِهم ، ونزَلَ زعيمٌ لهُمْ اسمُهُ (الرَّبيعُ بْنُ أبي الحُقيقِ) ، فصالحَ الرَّسولَ ﷺ :

صُلْحٌ وَسَلامٌ

وانْتَهىٰ بعدَ شهرٍ ونصْفِ الشَّهر في السَّنةِ السَّابعةِ للهجرةِ قتالُ المسلمينَ لليهودِ ، وفُتِحَتْ خَيْبر كلُّها علىٰ أيدي المسلمينَ ، وغَنِمَ المسلمونَ ما كانَ فيها مِنْ غنائم كثيرةٍ . ولمَّا تَمَّ الصُّلْحُ ، رغبَتْ نفوسُ اليهودِ بالبقاءِ ، وتَرْكِ الهجرة ، فسألوا رسولَ اللهِ ﷺ ذلك ، فأبْقاهُم

ليعملوا بالأرضِ ، وشارطَهم على النِّصفِ من المحصول ، على أنَّهُ إذا شاءَ أخرجَهم في أيِّ وقْتٍ . وأمَّا عن يهودِ فدكٍ وتَيْماءَ ووادي القرىٰ الذين حاوَلُوا مساعدةَ اليهودِ في خَيْبرَ ، فقد استسلموا ، وبعثوا للرَّسولِ أنْ يُصالحوهُ على ما صالحَ عليهِ أهْلَ خيبرَ ، دونَ أن يقاتلَهم .

وبذلكَ دانَ اليهودُ في الجزيرةِ العربيَّةِ كلِّها لسُلْطانِ النَّبيِّ ، وانْتهىٰ كلُّ ما كانَ لهُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، وأصبحَ المسلمونَ بمأْمَنٍ مِنْ ناحيةِ الشَّمالِ إلىٰ الشَّامِ ، كما صاروا بعْدَ صلْحِ الحديبيةِ بمأْمَنٍ من ناحيةِ الجنوبِ .

وَمَغانِمُ كَثِيرةٌ

وقسَّمَ الرَّسولُ الغنائِمَ الكثيرةَ التي لمْ يحصلوا مِنْ قَبْلُ على مثلِها قطُّ بينَ المسلمينَ الذينَ اشتركوا في المعركةِ ، وأعْطىٰ اليتيمَ والسَّائلَ ، وتزوَّجَ مِنْ صفيَّةَ عقيلةِ بني النَّضيرِ التي كانَتْ من بينِ الأسرىٰ والتي أسلمَتْ . . فَرِحةً مقتنِعَةً .

وشكرَ جميعُ المسلمين لربِّهم هذهِ النعمَ الكثيرةَ ، وعاهدوا رسولَ اللهِ ﷺ من جديدٍ أن لا يَغْضَبوا لأمرٍ يفعلُه كما فعلوا عندَ صُلحِ الحديبيةِ الذي لمسوا فوائِدَهُ .

وأيُّ مغنمٍ أرضىٰ للمسلمينَ مِنْ أمنِ الشِّمال والجنوبِ ؟ فقد صار المجالُ مَيْسوراً أمامَ المدينةِ للتِّجارةِ والدَّعوةِ معاً ، وسوفَ نرىٰ أنَّ الرَّسائلَ إلىٰ الملوكِ تسيرُ وتصلُ ، وتُؤتي ثمارَها . .

ولكنَّ مَغْنماً آخرَ قدْ وصلَ الآنَ إلى المدينةِ ، هَلْ تعرفونَ ما هُوَ ؟ أراكُم تطلبونَ منِّي توضيحَ الأَمرِ ،هيَّا تابِعوا القراءَةَ ، وافرَحوا معي للمُفاجأَةِ السَّارَّةِ . .

الفَرْحَةُ فَرْحَتانِ

بَيْنَما كانَ المسلمونَ ينعمونَ في فرحتِهم بفتحِ خيبرَ ، قدمَ علىٰ المدينةِ جَعْفرُ بْنُ أبي طالبٍ ، فيمَنْ هاجَرَ مِنَ المسلمينَ إلىٰ الحبشةِ مِنْ مكَّةَ ، فسُرَّ رسولُ اللهِ ﷺ سروراً عظيماً بقدومِهِ وقُدومِهم ، وضمَّ جعفراً ابن عمِّهِ ، وقبَّلَهُ بينَ عَيْنيْهِ ، وقالَ : ما أدري بأيِّهما أنا أسرُّ ، بفتحِ خيبرَ ، أمْ بقدومِ جعفرَ ؟

وردَّدَ المسلمونَ : نَفْرحُ معكَ بالأمرينِ يا رسولَ اللهِ ، فالفرحةُ الآنَ قَدْ أصبحَتْ فرحتينِ ، والفرحتانِ قد صارتا فرحةً كُبرىٰ واحدةً .

وقد كان قدومُ جعفرَ فتحاً آخرَ بالإضافةِ إلى فتحي الحديبيةِ وخيبرَ ، وأصبحَ المسلمونَ لا يحتاجونَ أنْ يَهْربوا بدينِهم إلىٰ الحبشةِ أو غيرِها ، فالمجتمعُ المسلمُ قد رسَخَ بجذورِه ، ولَنْ يَذْهبَ المسلمونَ ليحميَهم ملكٌ مجاورٌ كما فَعلَ النجاشيُّ مشكوراً ، نَعَمْ . . وها هُمْ أولاءِ سيذهبونَ ليُعْلنوا دعوتَهم أمامَ كُلِّ الملوكِ ، ثمَّ يعودوا إلىٰ مركزِ دعوتِهم . .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٤٩

لِلعالَمِينَ كافَّةً

الفُرْسُ والرُّومُ

إليكُمْ يا أحبّائي هذِه الآيَةَ الكريمَةَ فاتحةً لِقصّتِكُم الجديدةِ . . يقولُ تعالَى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وهَذا أمرٌ قرّرَهُ القرْآنُ ، أي: إنَّ الرَّسولَ مُحمَّداً ﷺ لَمْ يُخَصَّ برسالتِهِ قَوْمٌ مِنَ الأَقْوامِ ، وإنَّما أَرْسلَهُ اللهُ رَسُولاً للْبَشرِ كافّةً وللعالَمينَ كُلِّهم ، فلا مانِعَ الآنَ وقَدِ اسْتقرَّ أمْرُ دولةِ المسلمينَ أنْ يُطبّقَ هذِه الآيَةَ ، ويدْعُوَ الملوكَ والرُّؤساءَ مِنْ حولِه إلى الإسْلامِ ، وفي ذاكَ الوقْتِ يا أحبَّتي كانَتْ دوْلتا الفُرْسِ الرُّومِ تتنازعانِ سِيادَةَ العالَمِ ، وتتسابقانِ للسَّيطرةِ على دُولِهِ ، وتتقاتلانِ لإخْضاعِ الدُّولِ لِسُلطانِها ، وكانَ الفرسُ عبدَةَ نارٍ ، والرُّومُ نصارىٰ حرَّفوا الإنجيلَ ونُبوَّةَ المسيحِ ابْنِ مريَمَ ، وتَبعَ كُلاً مِنَ الدَّولتينِ الكبيرتيْنِ شعوبٌ وقبائلُ ، فاليمنُ مَثلاً أصبحتْ تحتَ نفوذِ الفُرْسِ ، والشّامُ ومِصرُ تحتَ نفوذِ الرُّومِ .

ضَلالٌ شامِلٌ

وأمّا الأوضاعُ الخُلُقيَّةُ والاجتماعيَّةُ فقَدْ كانَتْ على أَسْوأ حالٍ في عالَمِ الكبارِ (الفُرسِ والرُّوم) وأَتْباعِهم ، فالأَخْلاقُ منحلَّةٌ ، والظُّلمُ فاشٍ ، والإثْمُ والفُجورُ طابعُ الحُكّامِ والمُسْتكبِرين .

ولذلكَ عاشَ العالمُ في ضلالٍ وفَوْضىٰ إلا في المدينةِ المنوَّرةِ ، فمَنِ الذي سيُحرِّرُ العُقولَ مِنَ الخُرافاتِ ؟ ومَنَ الذي سيَرْتفعُ بالبشريَّةِ إلى القِمَّةِ السّاميةِ ، ويُنقذُها مِنَ الدَّركِ الأَسفلِ ؟ مَنِ الرّاعي الذي

سَيُسْمِعُ القَطيعَ الضَّالَّ صَوْتَهُ فَيهْتدونَ بِهِ ؟ ومَنْ هُوَ المِصْباحُ الذي سَيُضِيءُ الظُّلمَ وسْطَ العالمِ ؟ .

إنَّهُ لا بُدَّ مِنْ محمَّدٍ ﷺ ، فهُوَ الرَّاعي حامِلُ النُّورِ مِصْباحُ الهدايةِ .

رَسائِلُ نَبَوِيَّةٌ

ومِنْ سُنَنِ الإعْلامِ الإسلامي وقوانينِهِ أَنْ يَبْدَأَ الإنسانُ بإعلامِ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الممالِكِ والدُّوَلِ بحُكْمِ الجوارِ والعلاقاتِ .

لهذا فكَّرَ الرَّسولُ ﷺ في أَنْ يُراسِلَ الدُّوَلَ التي تُجاوِرُهُ وتَرْبطُها بِهِ علاقاتٌ تجاريَّةٌ وحياتيَّةٌ ، حتَّى ينيرَ تلكَ البُلْدانَ بالإسلامِ ، فتَكْمُلَ الحَضارةُ بالتَّوسُّعِ ، ويَسْتقيمَ السَّيْرُ رُوَيْداً رُوَيْداً .

وأَخَذَ الرسولُ يكاتِبُ هذهِ الأُمَمَ المُمثَّلةَ في أَشْخاصِ مُلوكِها ، واتَّخَذَ لذلكَ خاتَماً نبويَّاً باسْمِهِ ومُهمَّتِهِ ، نُقِشَ عليهِ : (مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ) ، وكتَبَ لكُلِّ ملكٍ كتاباً يدْعُوهُ فيهِ إلى الإيمانِ باللهِ وحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، ويذْكُرُهُ بأَنَّ السَّعادةَ في الدُّنْيا والآخرةِ لا تتمُّ إلا عَنْ طريقِ الإيمانِ باللهِ وحْدَهُ ، ويبيِّنُ للملِكِ أَنَّ دعْوةَ شَعْبِهِ منوطَةٌ بالملكِ ومُرْتبطةٌ بِهِ ، فإنْ آمَنَ الملِكُ آمَنَ شعْبُهُ ، وإنْ كَفَرَ كَفَروا ، ويَخْتِمُ الرَّسولُ كُلَّ رسالةٍ بخاتَمِهِ النبويِّ ، ويبْعثُ معَ الكتابِ صحابيَّاً جليلاً ليحملَهُ إلى الملكِ المخصَّصِ لَهُ . . وفيما يلي أمثلة مِنْ ذلكَ . .

نَجاشيُّ الحبشَةِ

ها هُوَذا رسولُ اللهِ ﷺ يُرْسِلُ (عَمْراً بْنَ أُميَّةَ) إلى النَّجاشِيِّ مِلِكِ الحبشةِ ، وكانَ لهُ عِلْمٌ سابقٌ بالإسْلامِ ، عِنْدَما سَمِعَ مِنْ قَبْلُ كلامَ جَعْفَر بْنِ أبي طالبٍ متكلِّمِ المهاجرينَ إلى الحبَشةِ في السَّنواتِ الأُولى للدَّعوةِ . ويَصِلُ كتابُ الرَّسولِ إلى النجاشِيِّ ، فيَسْتَلِمُ الكتابَ ، ويضعُهُ على عَيْنيهِ ، ثُمَّ ينزِلُ عَنْ سريرِهِ ، ويَجْلِسُ على الأَرْضِ ، ويَقُولُ: « لَوْ كُنْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ آتيه لأَتيتُهُ» .

لَقَدْ دَخَلَ الإيمانُ إلى قَلْبِهِ ، وانْتَقَلَ إلى جَوارِحِهِ وأَطْرافِهِ ، فنَطَقَ لِسانُهُ كلمَةَ التَّوحيدِ : أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، وبَكى فَرَحاً بإيمانِهِ الجديدِ ، ونَدَماً على ما كانَ عليهِ ، وشتَّانَ بَيْنَ النُّورِ والظَّلامِ ، أَوْ بَيْنَ الحياةِ والموتِ . ثُمَّ كَتَبَ جوابَهُ يُعْلِمُ الرَّسولَ بإسْلامِهِ ، فأُعْجِبَ الصَّحابةُ بثمرةِ المراسلةِ وفاتحةِ الخيْرِ ، وفرِحُوا لهذا الكسْبِ .

وكِسْرى الفُرسِ

ووَصَلَ كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ كِسْرى ملِكَ الفُرسِ ، يحمِلُهُ الصَّحابيُّ (عبْدُ اللهِ بْنُ حذافَةَ) ، وعنْدَما علِمَ كِسْرى بمضمونِ الرِّسالةِ ، مزَّقها غاضِباً ، وكتَبَ إلى نائبهِ على اليمنِ (الملِكِ باذان) أَنْ يَبْعثَ إلى محمَّدٍ رجُلَيْنِ شجاعيْنِ ليأْسِراهُ إلى بلادِ فارسَ ، حيْثُ يتمُّ

تَأْديبهُ هُناكَ ، فلمَّا وصَلَ الرَّجلانِ مِنْ عِنْدِ باذانِ إلى المدينةِ ، قالَ لهما الرَّسولُ : مَنْ أَرْسَلَكُما بهَذا ؟ قَالا : رَبُّنا كسْرى ، فقال : أبلغا صاحبكما باذان أنَّ ربِّي قتلَ ربَّهُ كسرى في هذِه اللَّيلةِ . (الثّلاثاءِ . . جُمادى الأُولى سنة ٧ للهجرةِ) فَرَجعا إلى الملكِ باذانَ ، فَأَخبراه بمَا سمعاهُ مِنْ رسولِ اللهِ . ويا للعَجبِ ! ! ما هي إلا مدَّةٌ مِنَ الوقْتِ حَتَّى أَتاهُ الخبرُ مِنْ بلادِ فارسَ أَنَّ شيْرويه بْنَ كِسرىٰ قَدْ جَلسَ مكانَ أبيهِ بعْدَ مَقْتلِ كِسْرىٰ ، ومزَّقَ اللهُ مُلْكَ كسرىٰ بعدَ أنْ دعا عليه رسولُنا ﷺ ، وبذلكَ صدَّقَ باذانُ الخبرَ الذي وصلَهُ أوّلاً ، وأَسْلَمَ مؤمناً باللهِ وبرسولِهِ محمَّدٍ ، فَأَسْلَمَ مَعَهُ كثيرٌ مِنْ أهلِ اليمنِ وعددٌ ممَّنْ معَهُ مِنْ أَبْناءِ الفُرسِ .

وَمُقَوقِسُ مِصْرَ

وأَمَّا عظيم القِبْطِ في مِصْرَ واسْمُه (المُقَوقِسُ) ، فقَدْ وصلَ إليه حامِلُ الكتابِ واسْمُهُ (حاطِبُ بْنُ أبي بَلْتعة) ، فقرأَ المقوقسُ كتاب رسولِ اللهِ ، واحْتَفظَ بهِ في وعاءٍ مِنَ العاجِ الثَّمينِ ، وخَتم عليْهِ ، وكتبَ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يقولُ : (أمَّا بعدُ ، فقَدْ قرأْتُ كتابَكَ ، وفهمْتُ ما ذكَرْت فيهِ ، وما تَدْعو إليه ، وقَدْ علِمْتُ أَنَّ نبيّاً قَدْ بقيَ ، وكنْتُ أظنُّهُ يخْرج بالشَّام ، وقَدْ أكْرمْتُ حامِلَ كتابِكَ ، وبعثْتُ لكَ بهديَّتي) . ووصلتِ الهديَّةُ وهيَ جاريتان قبطيَّتان (ماريَةُ ، وسيرينَ) ، وقَدْ أَسْلمَتا في الطَّريق على يَدِ حاطبِ الصَّحابيّ ، فقبِلَ الرَّسولُ جواب

المقوقسِ ، الذي أَدْرَكَ الحقيقةَ .. واسْتَقبلَ الرَّسولُ ماريةَ وسيرينَ المؤمنَتَين على يد حامل الرسالة ، وتزوَّج مِنَ الأُولى ، وأعطى أُخْتَها إلى شاعرِهِ حسَّانِ بْنِ ثابتٍ ، وولدَتْ ماريَةُ لِرسولِ اللهِ ابْنَهُ إبراهيمَ . . وسَجَّلَها التَّاريخُ واحدةً مِنْ أُمَّهاتِ المؤمنينَ .

وَقَيْصَرُ الرُّومِ

ورسولٌ آخرُ يحملُ رسالةَ النبيِّ الكريم إلى مَلِكِ الرُّوم (هرقْل) . . ويصلُ (دِحْيَةُ بْنُ خليفَةَ) ، ويفْهَمُ هِرقْلُ ما يريدُ ، ويوشكُ أَنْ يُعلنَ إسلامَهُ ، لكنَّهُ وجَد إعْراضاً كبيراً ونُفوراً شَديداً مِنْ عُظَماء الرومِ في مجْلِسِهِ، فتَظَاهرَ بأنَّه إنَّما كانَ يُريدُ امتحانَ إيمانِهم ومَبْلغَ تمسُّكِهم بدينِهم (النصرانيَّة) .

ويحدِّثُنا أَبو سفيانَ الذي تزعَّمَ المشركينَ في غزوةِ أُحدٍ والخندقِ ، في أنَّه قد لَمَسَ صِدْقَ قيْصرِ الرُّومِ الذي بَعثَ وراءَ التُّجارِ العربِ الموجودين في الشَّامِ ، وكان أبو سفيان بيْنهم آنَذاكَ ، فسأله هرقْلُ عَنْ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ ورسالتِه فحدَّثَه صادِقاً ، ولَمْ يَسْتطع أبُو سفيانَ أَنْ يَكْذبَ خشْيَةَ أَنْ يُؤثَر عَنْهُ كذبٌ . وأبو سفيانَ يحبُّ الآنَ أَنْ يَنقل إليْكُم شَيْئاً مِنَ الحوارِ الذي دارَ بَيْنَ هرقْل وبينَهُ عَنِ الرَّسولِ ، ليدلَّنا علىٰ مَدىٰ تحرّي هرقْلَ الدقيق للحقائقِ ، وإنَّها لطريقةٌ صَحيحةٌ في كَشْفِ الصَّوابِ .

تحَرّي الحَقائِقِ

هرقل : أيزيدُ أتْباع محمّدٍ أمْ يَنْقصونَ ؟ .

أبو سفيانَ : (يزيدون) . .

وهَلْ يرتدُّ منهم أحدٌ بعْدَ إيمانِه ؟ (لا) .

وهَلْ كُنتُم تتّهمونَه بالكَذِبِ قَبْلَ رسالتِه ؟ (لا) .

وهَلْ يَغدِرُ بكُم ؟ (لا . وقَدْ صالحْناه مدّةً طويلَةً) .

وبماذا يأمرُكم ؟ (أَنِ اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه ولا تُشْركوا بِهِ شَيْئاً) . (واتْركوا ما يَقُولُ آباؤكُم ، واصْدقوا ، وصَلّوا للهِ ، وَصِلُوا الأرْحامَ) .

هَلْ كانَ مِنْ آبائِهِ ملِكٌ ؟ (لا) .

هَلْ قالَ ما يَقُوله أحَدٌ منكُم قبلَهُ ؟ (لا) .

وهُنا قال هرقلُ : (إنَّهُ لَمْ يطلبْ مُلْكاً ، وإنّه لرسولٌ حقّاً ، وإنّهُ سيَمْلكُ مَوْضعَ قَدميَّ هاتَيْنِ ، وقد كنْتُ أعْلمُ أنّهُ سيُبعثُ ، ولمْ أكُنْ أظنُّهُ منكم ، فلَو أنّي ألْقاه لكُنْتُ مِنْ أتْباعِهِ) . . شهادَةُ حقٍّ برسولِ اللهِ ﷺ يا أحبّتي مَعَ أنّهُ لَمْ يُؤمِنْ بالحقِّ ، حيثُ ضَنَّ بمُلْكِه .

والملِكُ الغسّانيُّ

وهناكَ ملكُ الغساسِنَةُ الحارثُ بن أبي شِمْر يختلفُ كثيراً عَنْ سيِّدِهِ مِلكِ الرّوم ، لقَدْ وصَلَ إليهِ كِتابُ النّبيِّ ﷺ الذي بعثَهُ مَعَ شُجاع بْنِ وَهبٍ ، فقرأَ كتابَ النّبيّ ، فزمجَرَ وزأَرَ ، وغضِبَ واشتدَّ غضبُهُ ، ثُمَّ رمىٰ

بالكتابِ على الأرْضِ ، وأظْهرَ حماقتَهُ على حامِلِ الكتابِ (شجاعِ بْنِ وهبٍ) ، وكادَ أنْ يهمَّ بسوءٍ ضدَّهُ ، ونوىٰ نيَّةَ الشَّرِّ في نفْسِه ، وكتَبَ إلىٰ قَيصرَ سيِّدِهِ ، أنَّهُ سيَسيرُ بجيشٍ كبيرٍ لتأْديبِ هٰذا الرّسولِ الذي بعَثَ بالكتابِ . وليْسَ للملِكِ الغسّاني أنْ يُقاتلَ أحداً دونَ الاستئذانِ مِن القَيْصرِ الرومانيِّ (هرقلَ) ، وقَدْ جاءَهُ الجوابُ على عكْسِ تصوُّرِه ، فإنَّ قيصرَ الرُّومِ عاقلٌ ، ويدركُ أنَّ رسالَةَ محمدٍ مكانُها التكريم لا المعاداةُ ، وأنَّ محاربةَ محمّدٍ حرْبٌ ضدَّ الحقِّ ، ولا يرْتاحُ لذلكَ الضّميرُ ، ولا داعي لحماقةِ الملكِ الغسّانيِّ التي كادَ أنْ يرْتكبَها . .

ومَلِكُ اليمامةِ

وحادثَةٌ طريفَةٌ في هذا البابِ . . فلقدْ أرسلَ رسولُ اللهِ كِتاباً مماثِلاً إلى ملكِ اليمامَةِ آنذاكَ ، فلمّا وصَلَ (سليطُ بْنُ عمْرو) حامِلُ الكتابِ إلى الملِكِ ، قرأَ الملكُ الرّسالَةَ ، فظنَّ أنَّ الرّسولَ ملكٌ ولديه أملاكٌ كثيرةٌ ، ومساحاتٌ واسعةٌ مِنَ الأراضي ، فكانَ جوابهُ مُضْحِكاً بعضَ الشّيء : (إنَّ ما تَذْكرُه في كتابِكَ حسَنٌ ، وما تدْعو إليهِ جَميلٌ ، فإذا أردْتَ أنْ أتّبعَكَ فاجعلْ لي نَصِيباً مِنَ المُلْكِ) . .

وابتَسمَ الرّسولُ ﷺ مِنْ سذاجَةِ الرّأْيِ ، وقالَ : (لَوْ سألَني سيابَةً مِنَ الأرْضِ ما فعلْتُ) ، وهَذا دليلٌ على أنَّ الرّسولَ يا أحبّائي لا يَسمح بمَنْ يَشْترطُ عليهِ مثْلَ شَرْطِ صاحبِ الرّأيِ السّاذجِ أنْ يكونَ مِنَ

أَتْباعِهِ ، ولو سَأَلَهُ بلحةً من شجرِ التَّمر لَمَا اسْتجابَ لَهُ الرَّسولُ الكريمُ.

ومُلُوكٌ آخرونَ

ثُمَّ تابَعَ الرسولُ كُتُبَهُ إلى مُلُوكٍ آخرينَ ، فهَذا العَلاءُ بْنُ الحضْرميِّ يحملُ كتاباً إلى المُنْذِرِبْنِ ساوىٰ ملكِ البَحْرين ، فيقرؤُهُ المنذرُ ، ويُعْلن إسْلامَهُ . وها هُو ذا صحابيٌّ آخر يحملُ كتاباً إلى ملكَيْ (عُمَان جيفر وعياذ وهما ولدا الجلندي) فيُسْلِمانِ فَوْر قراءَتِهما الكتابَ ، وها هو ذا المهاجِرُ بنُ أبي أميّةَ يصِلُ إلى ملكِ صَنْعاء الحارثِ بنِ عبد كلال الحميريِّ ليسلِّمَهُ كتاباً مِنْ رسولِ الله ، فيقرؤهُ الملكُ الصَّنعانيُّ ، ويُسْلمُ. ويُتْبِعُ الرَّسولُ ﷺ ذلكَ بإرسالِ أبي مُوسى الأشْعري ومعاذِ بْنِ جَبَلٍ إلى اليمن ليدْعُوا بقيّةَ أهْلِها إلى الإيمانِ ، فأَسْلَمَ أهلُ اليمنِ البَاقونَ كلُّهُم ، وكَتبَ ﷺ إلى جَبلةَ بْنِ الأَيْهَم وهُو ملِكٌ عربيٌّ غسّانيٌّ يدعُوه إلى الإسلامِ ، فأسْلَمَ بعدَ سنواتٍ ، لكنّهُ أبىٰ أَنْ يَبْقىٰ على إسلامهِ ، واستكبرَ مِنْ أَجْلِ أعْرابيٍّ بَسيطٍ داسَ علىٰ إزارِهِ في الحجِّ ، فطُلِبَ منْهُ العدْلُ قِصاصاً ومُساواةً معَهُ ، فرفضَ وهربَ مُرْتدّاً .

اِخْتلافٌ في الرَّدِّ

هَذا ما كانَ يا أعزّائي مِنْ مكاتبةِ الملوكِ ، وقَدْ عرفْتُمْ أمثلةً عديدةً فهلْ أعجبَكُمْ ذلك ؟ ستقُولونَ : لَقَدْ أعجَبَتْنا مبادَرةُ رسُولِنا في دَعْوتِه الملوكَ ، ولكنْ لماذا اخْتلفَ ردُّهُم ، ولم يُسْلِموا جميعهم على الرُّغْم مِنْ

أنَّ الملوكَ يَسْتطيعون تَمييزَ الباطِلِ منَ الحقِّ ، ويَعْرفونَ أنَّ رسالةَ محمَّدٍ صحيحةٌ ، وتأكَّدوا مِنْ ذلك ؟ . والجوابُ أيُّها الأحبَّةُ : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يعرفُ أنَّ الملوكَ لَنْ يُؤْمنوا جميعهم برسالتِهِ حتّىٰ ولو كانوا قادرينَ على ذلكَ ، ولكنَّ واجبَهُ يَدْعوه إلىٰ أنْ يُراسِلَهم جميعاً ، ويَقْبلَ إسْلامَ مَنْ أَسْلمَ مِنْهم ، ويُلاحِقَ مَنْ لَمْ يُؤْمنْ بالحجَّةِ والإقْناعِ والبُرْهانِ، وإنَّ اخْتلافَهُمْ في الرَّدِّ كانَ سببُه الوحيدُ حُبَّ الزَّعامةِ والرِّئاسةِ ، فتردَّدوا في الإذْعانِ إلى رجلٍ اسمُه محمَّدٌ ، لا يملكُ مالاً ولا عَرْشاً ولا امبراطوريَّةً ، وزَيَّنَ الشَّيطانُ للرافِضينَ منْهم أنَّ في أتباعِهم محُمَّداً مذلَّةً وهَواناً لَهُم .

ثِقَةُ الرَّسولِ

ولَقَدْ كانَتْ كتابةُ النبيِّ إلى مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الملوكِ دَليلاً على ثِقتهِ بظُهورِ الحقِّ على الباطِلِ ، ولا عَجَبَ في أنْ يُقْدِمَ الرَّسولُ علىٰ دعوةِ هؤلاءِ الملوكِ والإسْلامُ لمَّا ترسَخْ أقدامُهُ بعدُ في أنْحاءِ مِنَ الجزيرةِ العربيَّةِ .

إنَّ فَهْمَ أمرِ اللهِ بشأْنِ التَّبليغِ ونَشْرِ الدَّعوةِ كفريضةٍ على الرَّسولِ والمسلمينَ ، هُو الذي دَعا محمَّداً ﷺ إلىٰ أنْ يُراسلَ الملوكَ ، حتَّى ولو لَمْ تكُنْ لدىٰ الدُّعاةِ قوَّةٌ ماديَّةٌ كبيرةٌ وامبراطورياتٌ واسعةٌ .

إنَّ الثِّقَةَ لَتَدْفَعُ بالتردُّدِ جانباً ، وما قامَ بِهِ رسولُنا الكريمُ محمَّدٌ العظيمُ ﷺ ، يدلُّ على أنَّ الدَّعوةَ يمكنُ أنْ تَنْجح قَبْلَ أنْ تملكَ الشَّرقَ

والغَرْبَ مَعاً ، ولا يزالُ هذا الكلامُ ضَروريّـاً للذينَ يَتشكّكونَ في نجاحِ الدَّعـوةِ الإسلاميَّةِ في عالَمِنـا اليومَ ، وسنَّةُ اللهِ واحـدةٌ : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ ، حتّىٰ ولو كُنْتَ مُسْلماً فَرْداً واحِداً .

وَواقِعُنا الآنَ

فما أَجْدَرنا أَيُّها الأكـارِمُ أَنْ نَفْهَمَ مِنَ الآنَ هذهِ الحقيقـةَ ونطبِّقَها علىٰ واقِعِنـا الحاليِّ ، بعْـدَ تـدبُّـرٍ وإدْراكٍ كـامِلَيْنِ ، ولَيْسَ بِبَعيـدٍ أَنْ يَنْتصرَ الإِسـلامُ اليـومَ على الشَّرقِ والغَربِ ، كَما انْتصر مِـنْ قَبْـلُ علىٰ أَعْظَمِ قوَّتَينِ قديماً وهُما : (الفرسِ والرُّومِ) . . بدْءاً مِنْ مُراسلةِ الرُّؤساءِ وانْتِهاءً بـالفُتوحِ الإسـلاميَّـةِ ، وإنَّ كُلَّ مَـنْ يَنْجَحُ في إقـامةِ حضـارةٍ صغيرةٍ ومُجتَمعٍ صغيرٍ مسلـمٍ ، سَيتمكَّنُ حتْماً بإذنِ اللهِ بالـدَّأْبِ والمتابعـةِ مِنْ تَوْسيعِ مجتمعهِ وتَطْويرِ حَضارتِهِ ، حتّىٰ تُصْبِحَ فكرتُهُ وحضارتُهُ عالميَّةً رائعةً ، تَعمُّ البشريَّـةَ كلَّها ، وهذا ما نَنتظِرُهُ اليومَ مِنْ سواعِـدِ الشَّبابِ وسـواعِدِ الصِّغـارِ الـذين يَسْتخـدمـونَ عُقُولهم وأَدْمغتَهُـم في التَّفكيرِ والسَّعـي نَحْـوَ مستقبلٍ إسلامـيٍّ عـالميٍّ وحضـاريٍّ مُشْرقٍ . اللَّهـمَّ ساعِدْنا علىٰ ذلكَ ، وكُنْ لنا خَيْرَ مُعينٍ . . في فَتْحٍ عالميٍّ مبينٍ ، على يد أفئدتِنا الصَّغيرةِ المؤمنة يا ربَّ العالمينَ .

* * * * * *

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٥٠



عُمرة وفرحة

وَعْدٌ مَعَ قُرَيْشٍ

وظلَّتِ الأُمورُ بعْدَ غزْوةِ خيْبَرَ ، تسيرُ منْ حَسَنٍ إلى أَحْسن ، فالهُدوءُ يعمُّ المدينَةَ ، وهيْبةُ المسلمين والإسلامِ تتوطَّدُ في النُّفوسِ ، ودائرتُهُ تتَّسِعُ في أرجاءَ متعدِّدةٍ حَوْلَ المدينةِ ، وفي قَلْبِ جزيرةِ العربِ وأَطْرافِها . ويأْتي شَهْرُ ذي القِعْدَةِ ، والرَّسولُ علىٰ موعدٍ مَعَ قريشٍ ، كلُّنا نتذكَّرُهُ ، ففي العامِ الماضي صالحَ الرَّسولُ ﷺ قُرَيْشاً في الحديبيةِ ، ومِنْ شُروطِ ذلكَ الصُّلْحِ أَنْ لا يحجَّ المسلمونَ في ذاكَ العامِ ، وإنَّما يَعُودونَ إلىٰ المدينةِ ، ثُمَّ يأْتونَ زائِرينَ في العامِ القادمِ ، وعندَها يجِدُونَ البابَ مَفْتوحاً للعمرةِ ، وسَوْفَ يفي القرشيُّونَ بوَعْدِهم ، وسَيْسمحون للمسلمينَ بدخولِ مكَّةَ مُعْتَمِرينَ ، وسوْفَ تُسمَّىٰ هذِه الزيارةُ (عُمْرَةَ القَضاءِ) لأنَّها قضاءٌ عنِ العُمْرةِ التي مُنِعَ المسلمونَ منها في العامِ الماضي ، وسَنَنتقلُ معاً بأَعْيننا وأرواحِنا لنسيرَ في رَكْبِ الرَّسولِ ﷺ وصحْبِه الكرامِ إلىٰ بيتِ اللهِ الحرامِ .

لَبَّيْكَ اللَّهمَّ

وها هُوَ ذا الرَّسولُ ﷺ قدْ فرِحَ بقدومِ شهرِ ذي القِعْدَةِ ، فأَعَدَّ عُدَّتَهُ لِعُمرةِ القضاءِ ، وعليْهِ أَنْ لا يضيِّعَ الفرصَةَ الذهبيَّةَ ، فقريْشٌ قَدِ اعْتَرفَتْ لَهُ بها ، وإنَّهُ ليأْمرُ أَصْحابَهُ أَنْ يتهيَّؤوا لِقضاءِ عُمرتِهم ، وألا

يتخلَّفَ أحدٌ ممَّنْ شَهِدَ الحديْبيةَ ، فَلَمْ يتخلَّفْ مِنْ أَهلِها إلا مَنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ في خيْبَرَ شَهيداً ، وبلَغَ العددُ ألفيْنِ سوىٰ النّساءِ والصِّبيانِ ، مَعَ ستِّينَ منَ الأَنْعامِ التي أَخَذوها ليَذْبحوها هُناكَ تَقرُّباً إلىٰ اللهِ ، وسارَ الجميعُ يلَبُّونَ وراءَ رسولِ اللهِ : (لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إنَّ الحمْدَ والنِّعمةَ لَكَ والمُلْكَ ، لا شَريكَ لَكَ) .

وإنَّهُ لمنظَرٌ جليلٌ يُدْخِلُ الرَّهْبَةَ في القلوبِ ، والهيْبَةَ إلى النُّفوسِ ، مِنْ جَلالِ أَهْلِ الموكبِ وصَدىٰ التَّلبيةِ ، وإنَّه لا يُوجدُ نِداءٌ أَحْلىٰ مِنْ نِداءِ العبْدِ لربِّهِ ، يلبِّيهِ ، ويَزُورُ بيْتَهُ الحرامَ . فلبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ . .

حِيطَةٌ مِنَ الغَدْرِ

وقَدْ تَسْألونني : أَلَمْ يحملِ الرَّسولُ ﷺ وأَصحابُهُ معَهم السِّلاحَ حيطةً مِنَ الغَدْرِ القرشيِّ ؟ والجوابُ : بَلىٰ يا أحبَّتي ، ومَعَ أَنَّ الشَّرطَ قدِ اسْتَلزمَ حَمْلَ السُّيوفِ في أَغْمادِها إلا أَنَّ رسولَ اللهِ خَشِيَ غدْرَ القومِ ، فحملَ معَهُ السِّلاحَ وأَغْطيةَ الرأْسِ والدُّروعَ والرِّماحَ دُونَ أَنْ يُشهِرَ ذلكَ ، بَلْ يُشْهرُها إذا اضْطرَّ لذلكَ ، وقادَ معهُ مائةَ فارسٍ ، وقَدَّمَ السِّلاحَ والخَيْلَ أمامَهُ احْتِياطاً للأَمْرِ ، وهُو لَنْ يخلَّ بالشَّرطِ ، وسيَدْخلُ مكَّةَ في هَيْئةِ مُسالمٍ ، وسَيُؤدِّي عمرتَهُ بشكلٍ عاديٍّ ، وإذا ما احْتاجَ إلىٰ سلاحِهِ ، فسيَكُونُ السِّلاحُ قريباً لا حاجَةَ لجلْبِهِ مِنَ المدينَةِ البعيدَةِ حينذاكَ .

ولكِنْ هلْ ستسْمَحُ لهُ قُريْشٌ أَنْ يَدْخُلَ مكَّةَ ، وقدِ احْتاطَ بالسِّلاحِ

والفُرسانِ ؟ وجوابُ هَذا يتطلَّب منكُمُ الانتباهَ في الأسْطُرِ القادِمة .

فَزَعُ قُرَيْشٍ

ولقَد علمتْ قريْشٌ بالأَمْرِ ، وإنَّها علىٰ موعدٍ بالزِّيارةِ ، فبعثَتْ مكرزَ ابْنَ حفْصٍ في نَفَرٍ منها إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالُوا : يا محمَّدُ ، ما عرفْناكَ صَغيراً ولا كبيراً بالغَدْر ، أتَدْخُلُ بالسِّلاحِ على قَوْمِكَ ، وقَدْ شَرطْتَ لَهم ألا تَدْخلَ إلا بِسلاحِ المُسافرِ ؟

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (إني لا أُدخِلَ عليهم السِّلاحَ) أيْ : لَنْ أَدعَ السِّلاحَ يَدْخُلُ معي أثْناءَ الزِّيارةِ والتَنقُّلِ في مكة ، فقالَ عنْدَها مكرزٌ : هَذا الذي تُعْرفُ به منَ البرِّ والوفاءِ . ثُمَّ رجعَ إلى مكَّةَ ، فقالَ لقُريْشٍ : إنَّ محمَّداً علىٰ الشَّرطِ الذي اشترطَهُ لكُمْ ، فلمَّا سمعتْ قريشٌ بالجوابِ، اطمأنَّ أفرادُها ، وأفْسحُوا الطَّريقَ للمُسلمينَ كيْ يَدْخلوا مكَّةَ . وبعْدَ قليلٍ سَوْفَ يَصِلُ الموكبُ الجليلُ ، وسيراهُ جميعُ مَنْ في مكَّةَ مِن الكبارِ والصِّغارِ . . والأشْرافِ والعبيدِ . . والكُفَّارِ ، والمؤمنينَ المستضعَفينَ هُناكَ .

الكُلُّ يَنْظُرونَ

وها هُم أُولاءِ الأَشْرافُ والكبارُ والصِّغارُ يَنْظُرونَ بعَيْنِ التَّأمُّلِ والعَجَبِ وحُبِّ الاستطلاعِ مَعَ الدَّهشةِ إلى موكبِ الرَّسولِ ، يَدْخلُ مكَّةَ بعد سَبْع سنينَ مِنْ هجرتِه إلى المدينةِ ، وقَدْ ملأَهُ الشَّوقُ والحَنينُ ،

فكانَ موكبُهُ مَوْكِباً يبْهرُ العيونَ حَقّاً ، ويَسْحَرُ الألْبابَ ، على نافتِهِ القَصْواءِ ، والمُسْلمونَ حَوْلَه متوشِّحونَ سُيوفَهم ، يُحْدقونَ بِهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ ، ويَسْترونَهُ مِن المشركينَ مخافَةَ أنْ يُؤْذوهُ بشيءٍ .

والأَصْواتُ تعجُّ بالتَّلْبيةِ ، وبنشيدِ المعتمرين والعُمرةِ مَعاً وعبدُالله ابْنُ رواحَةَ تأخذُهُ النَّشوةُ فيُمْسِك بزمامِ ناقةِ الرَّسولِ ﷺ ، ويرتجِزُ بعضَ الأبياتِ الجَميلةِ :

قَدْ أَنْزَلَ الرحمٰنُ في تَنْزيلِه   بأَنَّ خيرَ القتلِ في سَبيلِه
خلّوا بني الكفّارِ عن سبيلِه   خلّوا فكُلُّ الخيرِ في رسولِه
يا ربِّ إنّي مؤمنٌ بقيلِه (أي بقولِه)   أعْرِفُ حقَّ اللهِ في قَبولِه

لا إِلٰهَ إلا الله

ويبلُغُ الموكبُ بابَ الحَرَم ، وتَبْدو الكعبَةُ بعدَ طولِ غيابٍ ، ويأمُرُ الرَّسولُ عبدَاللهِ بْنَ رواحةَ أنْ يسكُتَ عنِ الشِّعْرِ قائلاً : (إيهاً يا بْنَ رواحَةَ، قُلْ : لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وعْدَهُ ، ونَصرَ عبْدَهُ ، وأعزَّ جُنْدَهُ ، وهَزَمَ الأحزابَ وحْدَه) ، فجعلَ ابْنُ رواحةَ يقولُها ، والنَّاسُ مِنْ ورائِهِ يردِّدونَها في حماسةٍ وقوّةٍ ، فيَتجاوب بها الصَّدىٰ في جنباتِ مكَّةَ يَسْمعُها مَنْ فارقوا مكَّةَ كَيْ لا يَسْمعوها ، وأَمرَ الرَّسولُ ﷺ أصحابَهُ أنْ يُظهروا بمظهَرِ القويِّ أمامَ قريشٍ ، ويكْشفُوا عَنِ المناكبِ ، ويَسْعوا (يعْدُوا) في طوافِهم ليَرىٰ المشركُونَ جَلَدَهُم وقُوّتَهم ، وقالَ : (رَحِمَ اللهُ

امرءاً أَرَاهُم اليومَ مِنْ نَفْسِهِ قوَّةً) . وحقاً أُعجبَ القرشيُّونَ بما أَبْداهُ المسلمونَ ، وأتمَّ الرَّسولُ عمرَتَهُ ، وذَبَحَ مع صحبِهِ الأنعامَ ، وأرشدَهُم إلى أن يحلقوا الرُّؤوسَ أو يقصّروها كما تتطلَّبُ شعائرُ العمرةِ .

أَذانُ الحقِّ

ثمَّ أَرْسَلَ الرَّسولُ ﷺ وراءَ حُرَّاسِ السِّلاحِ أَنْ تَعالوا فاعتمروا ، ولْيَبْقَ غَيْرُكُمْ يحرسُ السِّلاحَ خارجَ مكَّةَ . والْتَقَى الجميعُ أَمامَ الكعْبةِ ، ودَخَلَها الرَّسولُ ، وظَلَّ بها حتَّى جاءَ وقْتُ الظُّهرِ ، فأَمَرَ بلالاً ، فأَذَّنَ فَوْقَ ظَهرِ الكعبةِ ، فاغتاظَ لذلكَ المُشْركونَ غَيْظاً شديداً ، إنَّهم لم يَسْمعوهُ في مكَّةَ قبْلَ الآنَ ، بَلْ كانَ المسْلِمونَ يصلّونَ دُونَ أذانٍ قُبَيْلَ الهجرةِ ، وإنَّهم الآنَ لَيُؤدُّون العُمْرةَ بمناسكَ مختلفةٍ عنهُمْ . .ودوَّى صوتُ بلالٍ يُعْلِنُ انتهاءَ عهْدِ الصَّخرةِ التي وضعوها فَوْقَ صَدْرِهِ مِنْ زَمَنٍ طويلٍ . . وبقاءَ كلمةِ (أَحَدٌ . . أحدٌ) قائلاً :

اللهُ أَكْبرُ . . اللهُ أَكْبَرُ . . اللهُ أَكْبَرُ . . اللهُ أَكْبَرُ . .

أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله ، أَشْهدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله ،

أَشْهدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، أَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ،

حيَّ على الصَّلاةِ ، حَيَّ على الصَّلاةِ ،

حيَّ على الفَلاحِ ، حيَّ على الفَلاحِ ،

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ، لا إلهَ إلا الله .

اِرْحَلْ عَنَّا

وبقِيَ الرَّسولُ ﷺ وأَصْحابُهُ ثلاثةَ أيَّامٍ حسبَ الشَّرطِ ، وهُمْ يغْدونَ ويَروحون في أَرْجاءِ مكَّةَ آمنينَ ، يَرَوْنَ ماذا حَلَّ ببيُوتِهم بعْدَ هجْرتِهم ، وتَتَوالىٰ علىٰ أذْهانِهم ذكْرياتُ المهاجِرينَ . ويَرَىٰ المُشْركونَ مِن مَظَاهِرِ القُوَّةِ والتَّضامُنِ والمحبَّةِ والإخاءِ بَيْنَ المسلمينَ ، ما بَهَرَ عُيونَهم ، وملأَ قلوبَهم إعجاباً ، وخَشِيَ أَشْرافُ مكَّةَ أَنْ تطولَ الدَّهْشَةُ ، فيَعجبوا بهذا الدِّين ، وخافُوا أَنْ يَأْسِرَ مَعهُ قلوبَ أَهْلِ مكَّةَ كُلِّهم فقالوا للرَّسولِ ﷺ: يا محمَّدُ ؛ انْقَضىٰ أجلُكَ ، فاخْرجْ عنَّا نَنْشُدُكَ اللهَ . وكانَ رسولُ اللهِ قَدْ خَطَبَ هُناكَ مَيْمونَةَ بنْتَ الحارِثِ ، فأحبَّ أَنْ يَكُونَ عُرْسُهُ في مكَّةَ أمامَ قُرَيْشٍ ، وأَنْ يصْنعَ لَهُم طَعاماً يأْكلونَ مِنْهُ ، ويحادِثُهم عليْهِ ، لكنَّهم رَفَضوا طَلَبَهُ قائلينَ: لا حاجَةَ لَنا في طعامِكَ ، اخْرجْ عنَّا نَنْشُدُكَ اللهَ والعَهْدَ ، فأَمَرَ الرَّسولُ بالرَّحيلِ إلى (سَرِفٍ) . .

زِفافٌ وبُشْرىٰ

وفي سَرِفٍ احتَفَلَ المُسْلمونَ بزَواجِ الرَّسولِ ﷺ مِن مَيْمونَةَ وهيَ أختُ زوجةِ العباسِ لُبابة بنتِ الحارثِ ، واحْتَفَلَ معهُم العبَّاسُ عمُّ الرَّسولِ الذي أَظْهر للرَّسولِ ابْنِ أخيه محبَّةً واحْتراماً ، وأَعْطاهُ صورةً واضِحةً عمَّا كانَ لعُمرةِ القضاءِ مِنْ أثرٍ في نُفوسِ القرشيين ، ووعده بخير ، وهو الأمينُ . . وأمَّا البُشْرىٰ التي قرأْتم عنْوانَها في هذِهِ الصَّفحةِ ،

فقَدْ كانَتْ بعْدَ حفلةِ الزِّفاف وانْتهاءِ العُمرةِ ، إنّها بُشرىٰ سارَّةٌ جدّاً ، هَلْ تتذكَّرونَ مَنِ الذي التَفَّ بعَسْكرِهِ حَوْلَ المسلمينَ يَوْمَ أُحدٍ ؟ إنَّهُ خالدُ بْنُ الوليدِ ، قائدُ مَيْمنةِ المشركينَ حينَذاكَ ، ثُمَّ هَلْ تَعْلمونَ مَنِ الرَّجل الذي ذَهب إلى الحَبشَةِ ليطْلبَ مِنَ النَّجاشيِّ طَرْدَ المهاجِرين من المسلمين؟ إنَّهُ عَمْرو بنُ العاصِ ذُو العَقْلِ الرَّاجِح . . والبشَارَة هي إيمانُ هٰذينِ السَّيِّديْن باللهِ وبرسالة رسولِهِ ﷺ .

بَطلانِ مِنَ الأَفْذاذِ

وخالدُ وعَمْرو . . كلاهُما مِنَ الأَفْذاذ أيُّها الأحباب الأَفْذاذُ ، وكانَ لَهُما في قريْشٍ شَأْن كبيرٌ ، فَعَمرو بْنُ العاصِ سِياسيٌّ كبيرٌ مدبِّرٌ لأُمورِ مكّةَ ، وخالدُ بْنُ الوليدِ بطَلٌ شجاعٌ مقاتِلٌ خبيرٌ في الحروب . ولا شكَّ أَنَّهما بإسلامهما سَيَنزِعانِ شَوْكَتيْنِ كبيرَتيْنِ في صَدْرِ قريْشٍ ، ممَّا يسهِّلُ علىٰ المُسْلمينَ أَخْذ مَكَّةَ دُونَ عِنادٍ كبيرٍ إذا أرادوا ، وسيكونُ إيمانُهما أَيْضاً يا أعزَّائي قوَّةً وعزيمةً ودعامَةَ نصْرٍ للمؤمنينَ في نَشْر الدَّعوةِ هُنا وهُنَاك ، وَلا ضَيْرَ إذَا اعْتَبرنا إيمانَ الواحدِ منهما كإيمانِ أمّةٍ بأكملها ، وهذا حقٌّ ، فكما رأينا فائدةَ إيمانِ حمزَةَ وعُمرَ بْنِ الخطّابِ في مكَّةَ ، فإننا سوْفَ نرىٰ أَثَرَ إسْلامِ خالدٍ وعَمْروِ بنِ العاصِ في المدينةِ ، ولَقَدْ فكَّرَ الاثنانِ قبلَ إسلامِهما بمغادرةِ مكّةَ بعد زيارةِ الرَّسولِ لَها ، فَتَرَكَ الأَوّلُ مَكَّةَ يسيرُ حائراً لا يعرفُ إلى أينَ ، وذهبَ الثَّاني إلىٰ الحبشَةِ مَع نفَرٍ مِنْ قريشٍ في حاجةٍ لَهُ ، وشتّان بيْنَ زيارتيهِ للحبشَةِ .

مُصادَفَةٌ سَعيدَةٌ

. . ووصلَ عَمْرو بنُ العاصِ إلى النَّجاشيِّ ملكِ الحَبشةِ ، وكانَ قدْ وصلَ كتابُ رسولِ اللهِ للملكِ علىٰ يدِ عَمْرو بن أميّة الضَّمري يدْعوه إلىٰ الإسلامِ فأَسْلمَ ، فلمَّا رأىٰ عمرو إيمانَ النَّجاشيِّ بمحمَّدٍ بايَعَ الملكَ علىٰ الإسلامِ ، فمدَّ لَهُ النَّجاشيُّ يَدَهُ ، وقالَ عَمْرو : أَشْهدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله ، وأشهَدُ أَنَّ مُحمَّداً رسولُ اللهِ ، ثُمَّ تركَ الحبَشَةَ ليَلْحقَ برسولِ اللهِ في المدينةِ وكانَ منْ قبلُ قدْ زارَ الحبشةَ محاولاً إقناعَ ملكِها بطردِ المسلمين، وأَمَّا خالدٌ فَقَدْ جاءَتْهُ وهوَ حائِرٌ رسالةٌ مِنْ أَخيهِ المسلمِ واسمُهُ (الوليدُ)، والذي زارَ مكَّةَ معَ الرَّسولِ ، وجاءَ في الرِّسالةِ : (بسم الله الرحمنِ الرحيمِ : أمَّا بعْدُ ، فقَدْ سَأَلني رسولُ اللهِ ﷺ عنْكَ ، فقالَ : أَيْنَ خالدٌ ؟ فقلْتُ : يأْتي اللهُ بِه ، فقالَ : ما مِثْلُهُ يَجْهلُ الإسلامَ ، فاسْتَدركْ يا أَخي ما قَدْ فاتَكَ مِنْ مَواطِنَ صالِحَةٍ) . وأحسَّ خالدُ بالإيمانِ يَطْرقُ قَلْبَهُ ، فَسارَ نَحْوَ المدينةِ، تارِكاً الحيْرةَ وراءَهُ .

إلىٰ مَنْبَعِ النُّورِ

ولمَّا وصَلا المدينَةَ أَنَاخا راحلَتيْهما ، وعَلِمَ الرَّسولُ ﷺ بهما ، فسُرَّ ، وقالَ لأَصْحابِهِ : (رَمتْكُم مكَّةُ بأَفلاذِ كَبدِها) ، وخَرجَ الوليدُ للقاءِ أَخيهِ ، فلقيَهُ ، وقالَ : أَسْرِعْ فإنَّ رسولَ اللهِ قَدْ سُرَّ بقدومِكُمْ ، وهُوَ ينتظرُكُمْ ، فأَسْرَعا المشْيَ ، وَوَصَلا إلىٰ رسولِ اللهِ ، فما زالَ يَبْتسِمُ حتَّى

وقفا ، وسَلَّما عَليهِ بسَلام النبوّةِ ، فردَّ على السَّلام بوجْهٍ طَلْقٍ ، بينما راحَ كُلٌّ منهما يشْدو: أشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله ، وأنَّكَ رسولُ اللهِ ، وقالَ الرّسولُ لخالدٍ : (الحمدُ للهِ الذي هَداك ، قَدْ كُنْتُ أَرىٰ لكَ عَقْلاً ، رَجَوْتُ أَلا يُسْلِمَكَ إلا إلىٰ خَيْرٍ) .

فقالَ خالدٌ : يا رسولَ اللهِ : ادْعُ اللهَ أَنْ يغفرَ لي تلْكَ المواطِنَ التي كُنْتُ أَشْهدُها ضِدَّكَ ، فقالَ لَهُ الرّسولُ : الإسلامُ يَجُبُّ ما كانَ قَبْلَهُ ، (أي يَمْحوه) . ويقولُ عَمْرو : فواللهِ ما عَدلَ بي رسُولُ اللهِ وبخالدِ بْنِ الوليدِ أَحَداً مِنْ أَصْحابِهِ في أمْرٍ يهمُّهُ مُنْذُ أَسْلَمْنا ، ولَقَدْ كُنّا عِنْدَ أبي بكرٍ وعُمرَ بتلْكَ الحالةِ .

سُرورُ الرَّسُولِ

إذاً لَقدْ سُرَّ رسولُ اللهِ كَثيراً بإسْلامِ البَطلَيْنِ ، وعَرفَ لَهما قَدْرَهُما ومكانَتَهما في المشْوَرَةِ والأُمورِ الهامَّةِ ، وأخَذَ يَنْظُرُ إلى أَصْحابهِ كأنَّه يدلُّهم على خيْرٍ لَمْ يدْرِكُوهُ وقتَ الصُّلحِ ، فلولا الصُّلحُ ، لما دخلَ مكَّةَ بعْدَ عامٍ بموكبٍ مهيبٍ ، ولولا الموكبُ المهيبُ لما دخَلتِ الهيْبَةُ قلوبَ ونفوسَ القرشيينَ ، ولولا دُخولُ الهيبةِ لما قرَّرَ البطلانِ ترْكَ مكَّةَ ، ولَوْلا تَرْكُ مكَّةَ لما تحرَّرَ عَقْلاهُما أَمامَ جموعِ الأشرافِ في قريْشٍ وأَمامَ عاداتِ الجاهلِّيةِ ، ولولا تحرُّرُ عقلَيْهما لما انْقادا إلىٰ الإسْلامِ طائعَيْنِ مختاريْنِ . فالحمدُ للهِ على الفتحِ المبينِ ، الذي أبْدىٰ حقّاً للمسْلمين كُلَّ الخيرِ بيْنَ

جوانحِهِ ، ويحقُّ للرّسولِ أَنْ يفرحَ ويحمدَ اللهَ ، ولعلَّ رسولَ اللهِ لَمْ يَفْرحْ برجلَيْنِ أَسْلما بعْدَ الهجرةِ كَما فرِحَ بإسلامِ خالدٍ وعَمْرو . . وكانَ إسلامُهُما في شَهرِ صفَرِ الخيرِ سَنةَ ثمانٍ للهجرةِ .

سَيْفُ اللهِ

ولقد اكْتَسبَ الإِسلامُ بإسلامِهما قائدَيْنِ عظيميْنِ ، وبطَلَيْنِ كريميْنِ، قاما بدورٍ هامٍّ في تاريخِ الفتحِ الإِسلاميِّ ، ولَمْ يَزلْ رسولُ اللهِ ﷺ يُولي خالداً أَعنَّةَ الخَيْلِ ، وتَبِعَهُ في ذلكَ أبو بكرٍ رضي الله عنه بعدَ تولّيهِ الخلافةَ .

وقَدْ لقَّبَ الرّسولُ خالداً بلقبٍ جميلٍ هُوَ (سَيْفُ اللهِ المسلولُ) ، لأنَّ اللهَ سلَّهُ على الكُفَّارِ ماضياً أبداً . . ويَنْتصِرُ أبداً . . وكلُّ بُرعمٍ خالدٍ منكُم سَيبْقى سَيْفاً كَخالدٍ . حيَّاكَ اللهُ يا سَيفَ الإِسْلامِ ، يا سَيفَ اللهِ . . ويا سَيْفَ رسولِ اللهِ ، ويا سَيفَ المسْلمينَ أجْمعينَ . . وسَيفَ الحقِّ أينما كانَ . وحيَّا فيكَ رُوحَكَ ، وعزيمتَكَ الصَّادقةَ ، ونَسْألُ اللهَ أَنْ يَجْعلَنا سُيوفاً مِثْلَكَ ، نَحمي الحقَّ ، ونَهدِمُ الباطِلَ .

إننا لَنْ نَنساكَ أيها البَطلُ الكريمُ ، ولَنْ نَنْسى فُتُوحاتِكَ وروائعَكَ العظيمَةَ ، فلنا فيها الذِّكرياتُ والفَخْرُ والدُّروسُ والعِبْرةُ ، ورضيَ اللهُ عنكَ وعَنْ عمرو معاً .

قصص

السيرة النبوية

٥١

الأمراء الأبطال



دَعْوَةُ الملوكِ

سأُحدِّثكُم يا أحبابي عَنْ معركةِ الأَبْطالِ . . هَلْ سمِعْتُم بهذا الاسمِ مِنْ قَبْلِ ؟ إنَّها معركةٌ حدثَتْ بيْنَ المسلمينَ وأَعْداءٍ لهمْ . . في السَّنةِ الثَّامنةِ للهجْرةِ . . واسْمُها يحملُ آياتِ البطولةِ ، ولكنْ قَبْلَ أَنْ أُحدِّثكم عمَّا جرىٰ فيها مِنَ البطولاتِ التي لا تُنْسىٰ ، أُحبُّ أَنْ أُعرِّفَكُم علىٰ سَبَبِها المباشرِ . .

تَعْلمون يا أَحبَّتي أَنَّ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ قَدْ أرسَلَ كُتُباً ورسائلَ إلىٰ جيرانه مِنَ الملوكِ والأُمراءِ ، فمنْهم مَنْ تلَقَّىٰ الدَّعوةَ بالقَبولِ وأَسْلَمَ مِثْل الملكِ النجاشيِّ (ملك الحبشة) ، ومنْهم مَنْ أحْسنَ لقاءَ حاملِ الرِّسالةِ ولَمْ يُؤْمنْ مِثْل المقوقسِ عظيمِ مصْرَ ، ومنْهم مَنْ تلقَّاها بغِلْظةٍ وجَفاءٍ لكنَّه لَمْ يخرجْ عَنْ عاداتِ الدُّولِ في تكريمِ السَّفيرِ وحاملِ الرَّسائلِ ، وهذا مثل كِسْرى عظيمِ الفرسِ مع أنَّهُ مزَّقَ الرِّسالةَ فمزَّق اللهُ مُلْكهُ .

شُذُوذٌ غريبٌ ! ؟

ولكنَّ واحداً مِنَ الملوكِ لَمْ يسْلكْ هذا العُرفَ ، حتَّى إنَّهُ لمَّا يصلْ إلى درجةِ الملوكِ بعْدُ ، إنَّهُ الأميرُ الغسَّانيُّ (شُرَحْبيلُ بْنُ عَمْرو) ، وإمارتُه

على حدودِ الشَّامِ ، ولقَدْ كان ردُّه شاذّاً قاسِياً خَشِناً ومهيناً ؟ .

لقَدْ لَقيَ حامِلُ الرِّسالةِ واسْمُه (الحارثُ بْنُ عُمَيْرٍ) ، وعرفَ أنَّ الرسالةَ التي يَحْملُها غيرُ موجَّهةٍ لَهُ ، ولكنَّها مِنْ محمَّدٍ ﷺ ، فقالَ للحارِثِ : إلىٰ أيْنَ أنْتَ متَّجِهٌ إذاً ؟ قالَ الحارثُ : إلى أميرِ بُصْرى ، فأمَرَ شُرَحْبيلُ أنْ يُوثَقَ الحارثُ بالحِبالِ ، ويُكَبَّلَ بالسَّلاسلِ ، ثُمَّ أقْدَمَ علىٰ أكْبرِ إساءةٍ وهيَ القَتْلُ دونَ سببٍ ، واسْتُشْهِدَ الحارثُ بيْنَ يَدَيْ شُرحبيلٍ ، ضحيَّةً نادرةً . وإنَّ ما فعَلَهُ شُرحبيلُ لغريبٌ فيما لو كانَتِ الرِّسالةُ موجَّهةً إليه ، فكيْفَ إذا كانَتْ موجَّهةً لأميرٍ غيرِه ؟ هذا هُوَ السَّببُ يا أعزّائي ، وإنَّهُ لعظيمٌ يدْفعُ إلى أكْبرِ الحروبِ .

غَضَبٌ في مَحَلِّه

وقَدْ حدثَ ما تتوقَّعونَهُ أيُّها الأكارمُ ، فها هُوَ ذا رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ بالأمْرِ ، فيغْضبُ ، ويَشْتدُّ غضبُهُ ، إنَّهُ لَمْ يَغْضبْ لأمْرٍ شَخْصيٍّ أوْ دُنيويٍّ ، ولكنَّهُ غَضِبَ لأنَّ التَّحدي كانَ صَريحاً ، وقَدْ حدثَ بشَكْلٍ لا يمكنُ للإسْلامِ أنْ يسكُتَ عنْهُ ، في الوقتِ الذي كان المسلمونَ في أوْجِ تَرْكيزهم لدَعائمِ الدِّينِ في أنحاءِ الجزيرةِ العربيةِ بعدَ صلحِ الحديبيةِ مَعَ قريشٍ ، ولا يَزالون في أشدِّ الحاجةِ إلى الاحتفاظِ بهَيْبتهم بعْدَ غزوةِ خيْبَرَ والخندقِ ، ولا سيَّما وأنَّ الفِكْرةَ التي رسَخَتْ في النُّفوسِ حينذاكَ أنَّ الإسلامَ قوَّةٌ عظيمةٌ يمدُّها اللهُ بالنَّصرِ ، لهذا كانَ رسولُ

اللهِ ﷺ، حَريصاً أشدَّ الحرصِ على الردِّ العنيفِ ، ولَنْ يَسْكتَ عَنْ قَتْلِ صحابيٍّ كالحارثِ بْن عُميرٍ ، وسيَثْأرُ للسَّفيرِ المؤْمنِ ، وسرْعانَ ما تكوَّنَ الجيْشُ ، واكتملَ عددُ المسلمينَ ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ .

نَصائِحُ لِلْجَيْشِ

وَوقَفَ رسولُ اللهِ ﷺ يَنْصَحُ للجيْشِ ، فهذِه المَرَّةُ لَنْ يذْهبَ معَ الجنْدِ ، لذلكَ سيرسِلُ معهُمْ نَصائحَه وكلامَه بَديلاً عَنْ شخصهِ الكريمِ ، وكانَ ممَّا قالَهُ لَهُمْ : أميرُ القوْمِ زيدُ بْنُ حارثةَ ، فإنْ قُتِلَ فجعفَرُ بْنُ أبي طالبٍ ، فإنْ قُتِلَ فعبْدُالله بْنُ رواحَةَ ، فإنْ قُتِلَ فلْيَرْتَضِ المُسْلمونَ بيْنَهم رَجُلاً . ثُمَّ أمَرهُمْ أنْ يأْتوا مكانَ الحادثِ الأليمِ ، وألا يَبْدؤوا القتالَ بَلْ يَدْعوا مَنْ هُناكَ إلىٰ الإسْلامِ ، فإنِ اسْتَجابوا كفُّوا أيديَهم عَنْهم ، وإنْ لَمْ يَسْتجيبوا كانَ السَّيفُ حَدّاً لهم ، وأوْصاهم بعدمِ الغَدْرِ ، وأن لا يَقْتُلوا شَيْخاً ولا امرأةً ولا طِفلاً ولا راهِباً مُتعبِّداً في صَوْمعةٍ ، ولا يَقْطعوا شجرةً ، ولا يَهْدموا بناءً دونَ سببٍ .

إنَّهم ثلاثةُ أبطالٍ ، الأوَّلُ مشْهورٌ بشَجاعتهِ وبطولاتِهِ العديدةِ ضِد المشركينَ ، والثَّاني ابْنُ عمِّ الرَّسولِ وأخٌ لعليِّ المقْدامِ ، والثَّالثُ شاعِرٌ مسْلمٌ . أنشدْنا معَهُ مرتيْنِ مِنْ قَبْلُ .

استعْدادٌ هائِلٌ

وسَار الجيْشُ المسلمُ ، وقَدْ وَعىٰ نَصائحَ رسولِهِ ، وحَمَلَ معَهُ دعاءَ الرسول والملائكةِ والصّغارِ والنساءِ ، وودَّعَهمُ النبيُّ العظيمُ ﷺ ، وكانتِ الخِطَّةُ أنْ يُفاجِئَ الجيْشُ الأعداءَ قَبْلَ عِلمِهم بتحرّكِه ، ولكنَّ القومَ عَلِموا نَبأَ الجيْشِ ، فحسبُوا ألْفَ حسابٍ ، وأَخَذوا يجمعونَ كُلَّ ما بوسْعهم ، لَقَدْ جمَعوا ما لمْ يتوقّعْهُ المسْلِمونَ أبداً ، فعَددُ الأعداءِ المقاتلينَ قَدْ زادَ وازْدادَ ، حَتّىٰ بلغَ مائتيْ ألفِ مقاتِلٍ ، نتيجةَ تحريضِ شُرَحبيلَ للرومِ والعربِ النّصارىٰ معًا ، ولا يهمُّنا العددُ بالتفصيلِ والدِّقّةِ ، بقدرِ ما يهمُّنا أنَّ المسلمينَ قدْ فوجئوا حقّاً بهذا العددِ الضَّخْمِ، حتّىٰ ذهلَ رجالٌ منهم من هولِ ما رأوا . . قوةً وسِلاحاً واستعداداً ، وكأنَّ الذي سَعَّرهم امبراطوريةُ الفرسِ الكبيرةِ ، أوْ جيْشٌ لعِدَّةِ دولٍ مجتمعةٍ متحمسةٍ ، تستحثُّ النفيرَ والاستعدادَ الهائلَ !!

ما السِّرُّ ؟

وقَدْ يلوحُ سُؤالٌ : ما السّرُّ الذي دَعا شُرَحبيل أَنْ يَجمعَ هَذا العددَ الهائلَ ؟ وعلىٰ ذاكَ المُستوىٰ والمقدرة والاستعدادِ الحربيِّ ؟ إنَّ شُرَحبيل أَيُّها القُرّاءُ الأعزّاءُ ، قَدْ شعرَ علىٰ ما يَبْدو بفداحةِ ذَنْبِه في قتْلِه للحارثِ ابْنِ عُميرٍ ، فَوقَعَ في نَفْسِه وقَلْبِه روْعٌ وخوْفٌ شديدانِ ، وتَناهىٰ إلىٰ سمعِه انتصاراتُ جيْشِ المسلمينَ على الأحزابِ في غَزْوةِ الخندقِ ، ولَمْ

تبعدْ عَنْ أُذُنيه نتائجُ حُصونِ خيبرَ منْذُ مُدَّةٍ قريبةٍ .

ولهذا أَخذَ شرحبيلُ يتصوَّرُ عظمَةَ المسلمينَ وجُرْأتَهُم ، إذْ يُكاتبونَ مُلوكاً مثلَ كِسْرىٰ وهرَقْل ، ويَدْعون أمْثالهما إلىٰ الإسْلام ؟ . .

هذا أفْضلُ تفسيرٍ للسِّرِّ ؟ حيثُ مئتا ألفِ مقاتلٍ مقابلَ ثلاثةِ آلافٍ!! هَلْ ستحْصلُ بيْنهما معركةٌ مَعَ هذا التّباينِ الشَّديدِ ؟ . أراكُم تخافون مِنْ كلمةِ (نعَمْ) ، ولكنِ اطْمَئِنُّوا قليلاً . .

تَشاورٌ في الأمْرِ

الأَفْضلُ أَنْ يَتَشاورَ القادةُ الثَّلاثةُ والجنودُ منْ حَوْلِهم ، أليْسَ كذلكَ؟ ها هُو ذا زيْدُ بنُ حارثَةَ الأميرُ الأوّلُ يُمضي ليْلتَه وهو يحاوِرُ ويَتَشاورُ قَبْلَ بَدْءِ الحربِ ، (ورَأىٰ بعضُهم أنْ يُعْلِموا رسولَ الله ﷺ بالأمرِ ، فيكتبوا لَهُ بأَنَّ عددَ جَيْشِ الرّومِ لا يقدر على مجابهتِه ، فماذا تُساوي الآلافُ الثّلاثة أمامَ مائتي ألفٍ ؟ وإذا ما علمَ الرّسولُ فإنَّهُ لا شَكَّ سيرشدُهُم ، ويجيبهم سَريعاً ، فإمَّا أَنْ يمدَّهم بعددٍ كافٍ مِنَ الرّجالِ لموقفٍ مثل هذا على الأقلِّ ، وإمَّا أَنْ يأمرهم بأَنْ يُتابعوا المضيَّ ، ويُعارِكوا القوْمَ ، ولعلَّ إعلامَ الرّسولِ هُوَ الأصْوبُ) ولئِنْ تذكَّرَ النّاسُ يوْمَ بدرٍ والخندق فإنَّ الفرقَ بيْنَ الجيْشينِ لمْ يكُنْ بهذه الضّخامةِ الموجودةِ الآنَ ، فالمضاعفةُ قدْ بلغَتْ سَبْعين ضِعفاً لا ثلاثَةَ أو عشرةِ أضعافٍ ! .

حميَّةُ عبْدالله

وإخْبارُ الرَّسولِ ﷺ قَدْ يفوِّتُ الفرصَةَ ، وتقعُ الهزيمةُ أَثْناءَ الانتظارِ.. وقَطعَ عبْدُاللهِ بْنُ رواحَةَ حَيْرةَ الجميعِ ، واتَّفقوا علىٰ أَنْ لا يُخْبر الرسولُ بذلكَ . . وحَقّاً لَمْ يرسِلِ الجيْشُ كتاباً إلى المدينةِ . . لقَدْ قامَ عبْدُاللهِ وقد اسْتولىٰ عليهِ حبُّ الشَّهادةِ فقالَ : (يا قومِ : إنَّ التي تكرهونَها لهي الشهادة التي خَرجْتم تَطْلبونَها ، واللهِ ما كُنَّا نقاتلُ النَّاسَ بكَثْرةِ عددٍ ، ولا بكثْرةِ سلاحٍ ، ولا بكثرةِ خيولٍ ، لَمْ نُقاتلْهم إلا بهذا الدِّينِ الذي أكْرمَنا اللهُ به ، انْطلقوا فواللهِ لقدْ كُنَّا يومَ بدرٍ ما معَنا إلا فَرسانِ ، ويومَ أُحدٍ ما معَنا إلا فرسٌ واحدٌ ، انطلقوا فإنَّما هيَ إحْدىٰ الحُسْنيينِ ، إمَّا انْتِصارُنا عليهم ، فذلكَ ما وعدَنا اللهُ ورسولُه ، وليْسَ لوعدِ اللهِ خلفٌ ، وإمَّا الشهادةُ ، فنَلْحقَ بالإخوانِ نرافقُهم في الجنانِ) .

ضَغْطُ الجُموع

وأثَّرَتْ كلماتُ ابْنُ رواحَةَ أكبرَ التَّأْثيرِ في نُفوسِ الجنودِ المسلمينَ ، وانْدفعوا إلىٰ العدُوِّ لا يُبالونَ بشيْءٍ ، ولا يَخْشونَ موْتاً ولا سُيوفاً ولا سِهاماً ، وأَقْبلَ عَلَيهم جنودُ العدُوِّ كالسَّيلِ الجارفِ في مَظْهرٍ يَبْهرُ الأبصارَ ، ويذْهلُ العقولَ ، فأخذَ المسلمونَ يُنظمونَ قتالَهُم ، فيضْغطونَ علىٰ جُموعِ العدُوِّ مِنَ القلْبِ ، ويجْعلُونَ علىٰ كلٍّ مِنَ الجَنْبَيْنِ قوَّةً تحمي وتَحومُ ، وتُقاتلُ دونَ إحْداقِ العدوِّ بهِمْ ، والتحَمَ الجيْشانِ في قتالٍ

غريبٍ ، قريبِ المدىٰ ، عنيفِ الاشْتباكِ ، وكُلُّ مَنْ يَنْظر إليهما لا يشُكُّ أنَّ الأعداءَ سَيَغْلبونَ المؤمنينَ ، وحَميَ وطيسُ المعركةِ ، واشتَّد ضَغطُ الجموعِ مِنْ قلْبِ السَّاحةِ ، ويتكَرَّرُ المشْهدُ عَجيباً ، فكُلَّما ظَنَّ المشاهِد أنَّ المسلمينَ قَدْ هَلَكوا ، انبعثَ المسلمونَ مِنْ جَديدٍ وسْطَ المعركةِ وعلىٰ أطْرافِها ، يُقاتلون دونَ هربٍ ولا خوفٍ .

تَفَجَّرَ دَمُ زَيْدٍ

وفي المقدمةِ زيْدٌ . . القائدُ الأوَّلُ يحملُ رايةَ رسولِ اللهِ ﷺ ، ويَتْبعُهُ المسلمونَ أنَّىٰ سارَ يسمعونَ أوامرهُ ، وينَفِّذونَ نصائحَهُ ، وأحاطَ العدوُّ بآلافِهِ حولَ زيْدٍ وَحْدَهُ ، فقاتَلَ زيْدٌ الآلافَ مِن حولِهِ ، وكأنَّهُ يعادلُهم قوَّةً وجراَةً وعزيمةً ، بَلْ ويزيدُ زَيْدٌ عليهمْ ، ويَفُوقُهم بإيمانِه باللهِ . إنَّهُ يُقاتلُ ، ويَحْملُ الرَّايَةَ معاً ، وأخيراً لَمْ يكنْ مجالٌ للرومِ أنْ يتركوهُ يَضْربُ بهِم ، ويحمِّسُ جُنْدَهُ مِنْ خَلْفِه عليهم

أَحاطوا بِهِ المرّة الأخيرةَ بآلافهم ورِماحِهِم وسُيوفِهِم ، وفَجَّروا دَمَ أَوَّلِ قائدٍ لهذهِ المعركةِ ، فانْبعثَ الدَّمُ زكياً مِنْ زَيْدٍ ، وتَمزَّقتْ أَوصالُه بيْنَ مئاتِ الرِّماحِ وعَشَراتِ السُّيوفِ والسِّهامِ . . ولَمْ يَعُدِ المسلمونَ يعرفونَ وجْهَهُ وأطرافَهُ مِنْ كثْرةِ الضّرباتِ والدَّمِ ، وتحوَّلَ إلىٰ بركةٍ منَ اللَّونِ الأحمرِ ، تَنْطقُ بالشَّهادةِ السَّاميةِ ، والبطولةِ الحقَّةِ الزَّاكيةِ .

وَأَوْصالُ جَعْفَر

ورأىٰ القائدُ الثَّاني (جَعْفَرُ بْنُ أبي طالبٍ) هٰذا المنظر فَلَمْ يَتَمالكْ نفسَهُ أَنْ حَمَلَ الرّايَةَ وهيَ تسيلُ دَماً ، ونادىٰ المسلمينَ لمتابعةِ القِتالِ والبطولةِ معَهُ ، فإنْ ماتَ زيْدٌ فكلُّ جُنْدي مسلمٍ زيْدٌ . وجعلَ جعْفَرُ يقاتِلُ بالرايةِ مُسْتميتاً ، حتَّى إذا زاحمَهُ الأعداء ، وأحاطوا بهِ اقْتَحَم عَنْ فرسِه ، واندفعَ يُقاتِلُ القومَ علىٰ الأرْض ، فَضَربَ الأعداءُ يَمينَهُ ، فَقَطعوها ، فأَخذَ الرَّايةَ بيسارِه فَضُرِبَتْ يسارُهُ وقُطِعَتْ ، فاحتضنَ اللواءَ بعضُديهِ حتَّىٰ قُتِل ، والرُّومُ لَما يروْا مثْلَ بُطولتِه وشجاعتِه بعْدُ ، فلَمْ يمُتْ إلا بَعْدَ تِسعينَ طعنةً ! ! .

ما لأَصحابِ محمَّدٍ ﷺ يَصْمدونَ هٰذا الصُّمودَ الهائِلَ ، بَلْ وما لأَبطالِهم وقادتِهم يَنْدفعونَ في المقدمةِ يَحْملونَ الرّايَةَ بيدٍ والسَّيْفَ بيدٍ أُخرىٰ ؟ وإنّهُم ليَعْرِفونَ قَبْلَ مقاتلةِ المسلمينَ أنَّ الجيْشَ إذا قُتِلَ قائدُهُ انفرطَ عقدُهُ ، وهَرَبَ أفرادُهُ ، وحلّتِ الهزيمةُ بِهِ !

وَرُوحُ ابْنِ رواحَة

وتفاجأ الرّومُ وجيْشُ الأَعداءِ بظُهورِ قائدٍ جديدٍ بعْدَ مقتلِ جعْفَر واستشهادِهِ ، إنَّهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رواحَةَ ، إنّهُ بطَلٌ يفوقُ تصوُّرَهم ، لَمْ يعتبرْ عِنْدما ماتَ القائدانِ كَما زَعموا ، إنّهُ رآهما وهُما يَسْتشهدانِ ، ثُمَّ ها هُو

ذا يَقدمُ علىٰ مَوْتِهِ ، وكأنّهُ يستلذُّ الموْت ؟ إنَّ أَمْرَهُ لغريبٌ في نظرِ الرّومِ والكفَّارِ ، واندفعَ عبدُ اللهِ ليُثبتَ أنَّهُ عبْدُاللهِ حقّاً لا عبْد الحياةِ والدُّنيا وشَهواتِها ، أَخَذَ السَّيفَ والرَّايةَ معاً ، وقاتَلَ القومَ قِتالاً شَديداً عِدَّةَ ساعاتٍ حتَّىٰ أَنْهكوهُ وأَتْعبوهُ ، وظهرتْ عليه علائمُ الجهدِ ، أمامَ أُلوفِ السُّيوفِ التي تُحيطُ بِهِ لتقتُلَهُ ، فنالَتْ مِنْه أخيراً ، وبصعوبَةٍ ، وحملَتْ روحَهُ أَسِنَّةُ الحرابِ لتلْحقَ بروحِ زيْدٍ وروحِ جَعْفر ، وكأنّها تقولُ : ليْستْ روحُ ابْنِ رواحَةَ بأغلىٰ مِنْ روحَيْكما ، فإلىٰ الجنَّةِ سأَمْشي معكما ، فالأميرُ لا يكونُ أميراً في الدُّنيا إلا إذا أحبَّ أنْ يكونَ أميراً بينَ الشُّهداءِ أَهْلِ الجنَّةِ .

بَراعَةُ خالِد

هَلْ مِنْ أميرٍ جديدٍ ؟ مَنْ سيَصْمُدُ دونَ خوفٍ ؟ والموقفُ يحتاجُ إلىٰ بطلٍ مثل خالدِ بن الوليدِ ، لقدِ اصطلحَ النّاسُ على تَسْميتهِ قائِداً لهم ، فَهوَ مقاتِلٌ خبيرٌ في الحروب ، يَسْتحقُّ السِّيادةَ فيها . . ولَقَدْ أَدركَ خالدٌ بحنْكَتِه أَنَّ دوامَ القتالِ لا يَصْلحُ في هذِه السَّاعةِ ، فأَخَذَ يُداورُ الأعداءَ ، ويُحاوِرُهم بالسُّيوفِ والبُطولاتِ حَتّىٰ أتىٰ المساءُ ، حَيْثُ سيتوقَّفُ القتالُ حسبَ العادةِ . وتحتَ ستارِ الليلِ بدَّلَ خالدٌ مواقعَ جيْشِه ، فنقَلَ الميمنةَ إلىٰ الميْسرةِ وبالعكْسِ ، والمؤخرةَ إلىٰ المقدمةِ وبالعكْسِ ، وأرسَلَ فئةً إلى خَلْفِ الجيْشِ لإثارةِ الغُبارِ بشكْلٍ مستمرٍ وكثيفٍ

ولصُنعِ الجلبةِ عندَ الصَّباح ، ورأىٰ الرُّومُ ما فاجَأَهُم بعْدَ ذهابِ الليلِ ، فظنُّوا أَنَّ المَدَدَ قَدْ جاءَ للمسلمينَ ، ممَّا أخافَ الأعداءَ ، فاسْتَدرج خالدٌ جيْشَه يَتَراجع بِـهِ إلىٰ الوراءِ بشَكْلٍ مُحْكَمٍ ، ونجا بِهِ ، ولَمْ يَتْبَعْـهُ أَحَدٌ مِنَ الكُفَّارِ .

رَهْبَةٌ وَتَأْثِيرٌ

ووصَل خالدٌ إلىٰ المدينةِ ، بارْتدادٍ مَأْمونٍ ، والرّومُ ما زالوا خائفين ممَّا رأَوْهُ آخرَ المعـركةِ . وإنَّ ارْتـدادَ خالـدٍ بهذا الشَّكل ليُشعـرُنا بالفخرِ ، وبخبرةِ خالـدٍ ، وزرْعِهِ في نفـوسِ العدوِّ رهْبـةً وتأْثيراً ، إنَّـه لَم يهْرُبْ في الليلِ على الـرُّغْمِ مـنْ قُدرتـه ؛ وإنَّما نَجا بَعْـدَ أَنْ أَخافَ خصْمَـهُ ، ولَمْ يفقِدْ سِـوىٰ اثْني عَشرَ رَجُلاً في عمـليَّتِهِ ، مقابلَ مقْتلِ الآلافِ منَ الأَعْداءِ ، وبكـىٰ الرَّسـولُ ﷺ بدمـعٍ سَخيٍّ الأُمـراءَ الثَّلاثـةَ والشُّهداءَ الآخريـنَ ، وأثنىٰ علىٰ ذكـاءِ خالدٍ وبراعتِه ، ومَنـعَ المسلمينَ أنْ يُنادوا خالداً وجيْشَهُ بالفرّارين ، بَل قالَ : لَيْسوا بالفَرّارينَ ولكنَّهم الكرَّارُ إنْ شاءَ اللهُ ، أَيْ : إنَّهم سَيعـودونَ للْحربِ بَعْـدَ الإعدادِ المنـاسبِ . وتَمَّتْ غزوةُ الأبطـالِ أَيُّها الأبطالُ ، وانْتهـتْ علىٰ عَكْسِ مـا توقَّعَتْـهُ نفوسُنـا . فالحمدُ للهِ وحدَهُ ، نسأله نَصْراً أكبَرَ وأَشمل ، وإنَّ اللهَ وحدَه القادرُ علىٰ نَصْرِ مَنْ ينصُرُه .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٥٢



انتهاء الهجرة

مَعْقِلُ الوَثَنِيَّةِ

عددٌ مؤلَّفٌ مِنْ ثلاثةِ أرْقام (٣٦٠) ، هَلْ تعرفونَ ماذا يَعْني هذا العددُ يا أحبَّائي ؟ إنَّهُ يدلُّ عنْدَ العربِ في مكَّةَ على إحصائيَّةِ الأصنامِ الموجودةِ في البيتِ الحرامِ حَوْلَ الكعبةِ . . وإنَّهُ لعددٌ كبيرٌ في مكانٍ بُنيَ أصْلاً ليكُونَ رَمْزاً للتَّوحيدِ وعبادةِ اللهِ وحْدَهُ . . بلْ ومِنْ هذهِ الأصنامِ صَنَمٌ صوّروا فيه إبراهيمَ الذي بنىٰ البيتَ ! !

وهكذا صارتْ مكَّةُ يا أحبَّتي معقِلَ الأصنامِ والوثنيةِ ، وإليها يحجُّ جميعُ العربِ الذين يَعْبدونَ الأَصْنامَ ، ولَمْ يرضَ الرَّسولُ ﷺ أنْ تبْقى مكَّةُ لعبادةِ غيرِ اللهِ بعْدَ أنِ انتشرَ الإسلامُ في المدينةِ ، وتأسَّسَ المجتمعُ الإسلاميُّ علىٰ يدِ المهاجرينَ والأنصارِ ، وذاعَ صيتُ الدَّعوةِ في أنْحاءِ الجزيرةِ العربيَّةِ وما حَوْلها . . وأدركَ القائدُ العظيمُ أنَّهُ لا يَصْلحُ أمْرُ توحيدِ العربِ للهِ ربِّ العالمينَ إلا إذا دخلَتْ قريشٌ في دينِ الإسلامِ ، وأطاعَتْ أمْرَ اللهِ ورسولِهِ ، فقريشٌ زعيمةُ القبائلِ ، ومكَّةُ أُمُّ المدنِ والقُرىٰ في الجزيرة . .

المفْتاح الأَوَّلُ

وأوَّلُ مفتاحٍ لقلوبِ أهْلِ مكَّةَ هُوَ صُلْحُ الحديبيةِ ، الذي حدثَ في أَواخرِ السَّنةِ السَّادسةِ للهجرةِ ، وحدَّثْتكُم عنهُ في حلقةٍ سابقةٍ واسْمُه

(الفتحُ المبينُ) . . ولقَدْ عرفْنا فوائدَهُ والخيْرَ فيهِ ، ولعلَّ أكبرَ خيرٍ فيه هُو أنَّ قُريشاً قَدْ أَقْنعَتْ نَفْسَها أخيراً بجدْوىٰ الاعترافِ بمحمَّدٍ ﷺ ودولتِهِ ودِينِهِ ، وأَقامَتْ بيْنَها وبيْنَهُ سِلْماً وسَلاماً بعْدَما عجزَتْ تمامَ العجزِ مِنَ القضاءِ عليهِ أوْ على أتْباعِهِ .

إنَّهُ أوَّلُ مفتاحٍ حطَّمَ كبرياءَ النَّفسِ ، وأوْقفَ الأكاذيبَ ، وألانَ القلوبَ قليلاً ، وجعَلَ النُّورَ يتسرَّبُ إلىٰ الدَّاخلِ ليزْرَعَ فيها شيْئاً مِنَ الصَّوابِ ، ويخفِّفَ مِنَ الآصارِ والأغْلالِ . . فأنْعِمْ بالسَّلامِ مِفتاحاً للهُدىٰ والصَّلاحِ والأمانِ والخيرِ .

المفْتاحُ الثَّاني

وبعدَ سنةٍ مِنَ الصُّلحِ ، ظهرَ المسلمونَ في زيارتِهم لمكَّةَ بمظْهرٍ إسلاميٍّ كاملٍ فيهِ مِنَ العزَّةِ والكرامةِ والهيْبةِ كلُّ ما يلزمُ لحاملِ لواءِ السَّلامِ والمسالمةِ والأمانِ ، وهذا ما أمرَ بهِ الرَّسولُ ﷺ أصْحابَهُ عنْدَ دخولهِمْ . . لكَي ترىٰ قريْشٌ ذلكَ ، فتتأثَّرَ . . وحقّاً كانَ ذلكَ . . فقدْ رأتْ قريْشٌ في المسلمينَ مَظْهرَ المحبَّةِ والتَّراحمِ ، والمودَّةِ والتَّضامنِ ، وحُسنَ الانقيادِ ودقَّةَ النِّظامِ ، وصِدْقَ الإخْلاصِ لرسُولهِم ، وعظيمَ الحماسةِ لدينِهم ، وشِدَّةَ تمسُّكهم بآدابِهِ ، وبالغَ التَّقديسِ للكعْبةِ وبيْتِ اللهِ ، وكلَّ الإجْلالِ للهِ صاحبِ الجلالةِ وَحْدَهُ ، وهذا كُلُّهُ أثناءَ ما يُؤدُّونه من شعائرِ العمرةِ ، وإنَّ المنظرَ لجليلٌ يهزُّ نُفوسَ أهْلِ مكَّةَ هزّاً عنيفاً ،

ويفتَحُ قُلوبَهم أَكْثَرَ وأَكْثَرَ ، ودَخَلَ مَعَ الإعجابِ شيْءٌ منَ التَّدبُّرِ والمقارنةِ والفَهْمِ . . وما إسلامُ خالدٍ وابنِ العاصِ عنَّا ببعيدٍ . .

المِفْتاحُ الثَّالِثُ

ثُمَّ كانَ المفتاحُ الثَّالثُ والهامُّ في تاريخِ المفاتيحِ التي فَتحَتِ القلوبَ . . وإنَّ هذا المفْتاحَ صعْبُ الفَهْمِ ، لذلكَ سنَقْرأُ عنْهُ عدَّةَ صفحاتٍ ، حتَّى يتبسَّطَ معناهُ : (لقَدْ نقضَتْ قريْشٌ صُلْحَ الحديبيةِ ، فأوقعَتْ نفسَها في دائرةِ الغَدْرِ والعَداءِ منْ جديدٍ ضدَّ محمَّدٍ ﷺ ، ممَّا سهَّلَ علىٰ محمَّدٍ ﷺ أنْ يُحلَّ نفسَهُ مِنَ العَهْدِ ، ويؤدِّبَ قُريْشاً على غَلْطَتِها الشَّنيعةِ في حقِّ العهودِ) .

لذلكَ يا أحبَّتي ظهرتْ قريْشٌ بمظهرِ مَنْ يصْنعُ أقْفالَ سِجْنِه بيدِه ، ليسْجنَ نفْسَهُ بعيداً عَنِ السَّلامِ ، فهذا رجُلٌ مِنْ قبيلةِ بكْرٍ المواليةِ لقريْشٍ وقَفَ ذاتَ يومٍ يَهْجو رسولَ اللهِ على مَسْمعِ رجلٍ منْ قبيلةِ خزاعَةَ المواليةِ لمحمَّدٍ ﷺ ، واشتدَّ الأمْرُ بعدَ خصامٍ بيْنَهما ، فأعانَتْ قريْشٌ قبيلةَ بكرٍ ، وقتَلوا منْ خُزاعةَ نحوَ عشْرينَ رَجُلاً ، وعَلِمَ الرَّسولُ بذلكَ ، وأجابَ خزاعَةَ أنَّ المسلمينَ سَيَنْتصِرونَ لَهم . .

لقَدْ حانَتِ الفرصَةُ

وكانَ أنْ غَضِبَ الرَّسولُ ﷺ لما فعلَتْه قريْشٌ ، فقالَ لزعيمِ خزاعَةَ عندما أتاهُ إلىٰ المدينةِ : (نُصِرتَ يا عَمْرو بْنَ سَالمٍ) ، ووجَدَ النبيُّ

الكريمُ ﷺ أنَّ الفرصَةَ قَدْ تهيَّأتْ لفتْحِ مكَّةَ وتَأْديبِ قريْشٍ ، فأخذَ يعدُّ عُدَّتَه لهذا الفتحِ . .

ورسولُ اللهِ يا أعزَّائي كانَ قَدْ عاهَدَ قريْشاً في شَرْطٍ منْ شُروطِ الصُّلحِ على أنْ تُسالمَه مدَّةَ عشْرِ سنواتٍ لا يَعْتدي أفرادُها على مُسْلمٍ سَواءٌ أكانَ مِنَ المدينةِ أَمْ من قبيلةٍ مواليةٍ للمسلمينَ حَوْلَ المدينةِ ، ولكنَّ الغَدْرَ الذي حدثَ مِنْ جانبِ قريْشٍ يَجبُ أنْ لا يَسكُتَ عليهِ المسلمونَ ، وإلا فما مَعْنىٰ إبرامِ صُلْحٍ أو كتابةِ شُروطٍ ومسالمةٍ لعشْرِ سنواتٍ ؟ لا مانعَ إذاً أيُّها الأحبةُ أنْ يُهيِّئَ الرَّسولُ والمسلمونَ أنفسَهم ليردُّوا الصُّلحَ على قُريش ، ويُلقِّنوها دَرْساً في الكرامَةِ والعِزَّةِ والإباءِ ، وعلى قُريشٍ أنْ تتحمَّلَ نتائجَ غَدْرِها وعَاقبةَ جهارتِها بالحربِ ضدَّ الدَّعوةِ . .

سَيِّدُ مَكَّةَ

قُرَيْشٌ قَدْ أَدْرَكَتْ سُوءَ ما صَنَعَتْهُ ، وقَدَّرَ الرَّسولُ ﷺ أَنَّ قريْشاً ستَنْدمُ ، فقالَ لأصْحابهِ : (كَأنَّكُمْ بأبي سُفْيانَ قَدْ جاءَكُم ليشدَّ في العقْدِ ، ويزيدَ في المدَّةِ) ، وكانَ ما قدَّرَهُ الرَّسولُ حَقّاً ، وصَدقَ توقُّعُهُ ، وإنَّها لمعجزةٌ ، فها هُو ذا أبو سفيانَ قَدْ أَوْفدتْه قريْشٌ إلى المدينةِ ليَتلافىٰ نَتائجَ غَلْطَتِها ، ودخَلَ أبو سفيانَ علىٰ النبيِّ ﷺ في المسْجِدِ ، فكلَّمَهُ ، فلَمْ يردَّ عليْهِ شيئاً ، فخرجَ زعيمُ مَكَّةَ ، وقدِ اصطدمَ بصَمْتِ الرَّسولِ ،

وذهبَ يستَشفعُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ مثْل أبي بكرٍ ، وعمرَ وعليٍّ ، فاعْتذَرَ إليهِ أبو بكرٍ في لطْفٍ ، وأَغْلظَ عمرُ لَهُ القَوْل ، وردَّ عليهِ في جفاءٍ ، وأَفْهمَهُ عليٌّ الأَمْرَ بوضوحٍ ، فقالَ : (ويْحكَ يا أبا سفيانَ ، واللهِ لَقَد عزَمَ رسولُ اللهِ على أَمْرٍ ما نَسْتطيعُ أَنْ نكلِّمَهُ فيهِ ، واللهِ ما أَعْلمُ شَيْئاً يُغْني عَنْكَ) ، حتى ابنَتُهُ رَمْلَةُ أم المؤمنين لم تقفْ إلى جانبِهِ ، فركبَ أبو سفيانَ بَعيرَهُ ، وانْطَلق راجِعاً إلىٰ مكَّةَ . .

مرارةُ الخَيْبَةِ

وفي الطَّريقِ إلىٰ مكَّةَ كانَ أَبو سفيانَ يتجرَّعُ مرارَةَ الخَيْبةِ ، والانكسارِ والهَوانِ ، إنَّهُ سيِّدُ مكَّةَ ، وزعيمُ قريْشٍ ، وقَدْ باءَتْ مهمَّتُهُ بالفشَلِ .

ووصَلَ أخيراً إلى حيْثُ خرجَ ، فقالتْ لَهُ قريْشٌ : ما وراءك يا أبا سفيان؟ قالَ : (جئْتُ محُمَّداً فكلَّمْتُهُ ، فواللهِ ما ردَّ عليَّ شَيْئاً ، ثُمَّ جئْتُ أصحابَهُ ، فلَمْ أَجِدْ فيهم خيراً ، وكانَ أَلْيَنهم عَليٌّ ، وقَدْ أشار عليَّ ونَصَحَني ، وأَفهمَني أَنَّ الأمرَ لا خِيارَ فيه للصَّحابةِ ، وأنَّهُ قَدْ عَزَمَ رسولُهم على أمرٍ لا يستطيعون تكليمه فيه ، ولا شيء يغني عنّي أبداً ، لهذا ركبْتُ بعيري ، وعدْتُ إليكُم خائِباً كَما ترونَ ، فانْظُروا ماذا تُشيرونَ؟).

وسكتَ نَفَرٌ ؛ وضَحِكَ آخرونَ مِنَ الكُفَّار على قائِدِهم ، وأَخذتْ نفوسُ الجميعِ في مكَّةَ تَنْظرُ خائفَةً إلى المُستقبلِ الذي يَنْتظرُهم بعْدَ مدَّةٍ

مِن الزَّمن ، فمحمَّدٌ ﷺ لَنْ يَتْرُكَهم . .

الاستعدادُ الصَّامِتُ

وأَخَذَ الرَّسولُ ﷺ يبدأُ في تنْفيذِ ما عزمَ عليْهِ ، فها هُو ذا يتجهَّز لفَتْحِ مكَّةَ ، فيرسلُ إلى أَهْلِ الباديةِ ومَنْ حولَهُ مِنَ الذين أَسْلموا أَنْ يَحْضروا إلىٰ المدينةِ في رمضانَ ، فأخذتِ القبائِلُ تَتَوافد على المدينةِ وتُعَسْكِرَ بأَرضِها . . وكانَ ﷺ حَريصاً على أَنْ يَبْقى استعدادُه صَامِتاً لا تَدْري بِه قريْشٌ ، لكيْ لا يحدُثَ قتالٌ بيْنَ الطَّرفينِ ، فَتُراق الدِّماءُ ، وهذا ممَّا لا يريدهُ محمدٌ الرسولُ الرحيمُ ، فهو الآنَ يستعدُّ ، ويُخْفي مَقْصدَهُ على النَّاس ، ويَضع على مَداخِل المدينةِ حرّاساً يُراقِبونَها ليَمنعوا تسرُّبَ الأَخْبار .

ولمَّا تمَّ اجتماعُ المسلمينَ في المدينةِ واحْتَشدوا . . أَعْلمهم الرسولُ أخيراً ، أَنَّهُ سائِرٌ إلى مكَّةَ ، ودَعا أَنْ يَبْقى هذا الأَمْر سرّاً على قريْشٍ ، فلا يَدْعوا عيونَها وجواسيسها يَعْلمون بذلكَ ، ولكنْ هَلْ سَيَبقى الاستعدادُ والتحرُّك صامِتاً ؟ أَمْ أَنَّ قريْشاً ستَعْلم ؟ .

انْتَبِهْ يا حَاطِبُ

إنَّ بيْنَ المسلمينَ مَنْ لَهُ أَهْلٌ وعشيرةٌ في مكَّةَ ، ومنهمْ مَنْ ليْسَ له حمايَةٌ أَوْ معارِفُ في قريشٍ ، وحَاطِبُ بْنُ أبي بَلْتَعَةَ صحابيٌّ كريمٌ مؤمنٌ وصادقٌ ومخلصٌ . . لكنَّهُ خاف ، إذْ أَنَّ نَسبهُ مفقودٌ في قريْشٍ ، فلعلَّهُ

إذا أَخْبرهم سيجدُ في مكَّةَ مَنْ يَحْميه في أَهْله وقَرابتِهِ . لذلكَ أَرْسَلَ كتاباً مَعَ امرأةٍ ، فَعلم الرسولُ بذلكَ عَنْ طريقِ جبريلَ ، فأَرْسل وراءَ حاملةِ الكتابِ ، وأَحْضر الرسالةَ ، ثُمَّ قالَ لحاطبٍ : (ما حملكَ على هَذا ؟) فأجابَ حاطبٌ صادقاً بما كان مِنْ قَصْده ، فَرَأَى الرسولُ صدْقَ لهجةِ حاطبٍ وحسْنَ نيَّتِهِ ، ونَظر إلى ماضِي الرجلِ في الجهادِ وحسْن بلائِهِ ولا سيَّما في بدْرٍ فَعفَا عنْهُ ، لكنَّ عُمَرَ قال لَهُ : دَعْني أَضْرب عنُقَ هَذَا المنافِق ، فتبسَّم الرسولُ قائِلاً : [وما يدريكَ يا عُمر ، لعلَّ الله قَد اطَّلع على أَهْل بدْرٍ ، فقالَ لَهُم : اعْملوا ما شئْتُم ، فقد غفرتُ لكُمْ ؟] فدمعَتْ عينا عُمر . .

المفْتاحُ الرَّابعُ

وفي مكَّةَ الآن : لمْ يعُد الزُّعماءُ يُطيقونَ التَّشاور والاجتماع والاتِّحاد في الرَّأْي ، فكُلٌّ يَنْوي أَنْ يستقِلَّ برأْيه ، ويَنْعزلَ عنِ الآخرينَ بهروبٍ ، أَوْ بإغلاقِ بَيْته عليهِ ، أَوْ يَدْخل النُّور إلى قلبهِ فيُسْلم ، كَما أَسْلم خالِد وعَمْرو بن العاصِ .

واليومَ يَخْرُجُ العبَّاسُ عَمُّ رسولِ الله مُؤْمناً مهاجراً إلى المدينةِ لأنَّ بقاءَهُ في مكَّةَ لم يَعُدْ يُغْني ، فيلتقي مصادفةً بجيشِ الفَتْحِ العظيمِ ، على مرحلةٍ قريبةٍ منْ مكَّةَ ، وفرحَ الرسولُ ﷺ بإيمانِ عمِّه العباسِ ، لأنَّهُ سيذلِّلُ ويسهِّل طريق الفَتْح بمفتاحٍ جديدٍ ، مفتاحِ اللِّينِ وحقْن

الدِّماءِ ، فللعبَّاسِ مكانَةٌ في قريْشٍ ، وفي نَفْسه خوْفٌ على قريشٍ منْ حَرْبٍ معَ محمدٍ ﷺ ، ومَشى العبَّاسُ قليلاً يفكِّرُ ، وبعْدها بقليلٍ ركبَ بغْلَةَ رسولِ الله ، وسَارَ بهَا . إِنَّهُ يَسْمع الآنَ مِنْ بعيدٍ حِواراً بين ثلاثةِ أشخاصٍ ، وسَيَقترب منهم ليَسْمع كَلامهم . .

المفْتَاحُ الخامِسُ

إِنَّهُ قَدْ تأَكَّد مِنَ الأَشْخاصِ الثَّلاثةِ الآنَ ، وبَيْنهم أَبو سفيان الذي خَرج بَعد أَنْ رَأَى نَاراً كثيرةً لا يَعرف مصْدرها ، ولا يُدْرك مَنْ وَراءها ، إنَّها النَّارُ التي أَوْقدها أَصْحاب رسولِ الله ﷺ ، وتعدادهم عَشَرة آلافٍ ، وقُريْشٌ ما زالَتْ تَجْهل قُدوم محمدٍ عَلَيها .

وقال العبَّاسُ أخيراً : يا أَبا سُفْيان هَذَا رسولُ الله ﷺ في النَّاسِ ، وما الحيلَةُ إلا أَن آتيه بكَ فَأَسْتأْمنه عليكَ . . وسرْعَان ما وصلَ الاثْنان إلى رسولِ الله ، وباتَا ليْلتهما يحادثُهما الرسولُ ، ويَسْتلين قَلْب أَبي سُفيانَ ليؤْمنَ بالله ورسولِه ، ونَطَقها سيِّد قريْشٍ وزعيمُ مكَّةَ أخيراً . . وشَهد بشهادةِ الإِسْلام ، وكانَ إيمانهُ مفْتاحاً خامساً لمكَّةَ ، فقالَ له الرسولُ مُعْلياً مِنْ مكانتِه : (مَنْ دَخل دارَ أَبي سُفيان فَهُو آمِنٌ ، ومَنْ أَغْلق علَيْه بابَهُ فهو آمِنٌ ، ومَنْ دَخَلَ المسْجِد الحرامَ فهو آمِنٌ) .

أَرْبَعُ فِرَقٍ

ورأى أَبُو سفيانَ بعَيْنَيْه فرقَ الجَيْشِ وكتيبةَ رسولِ الله الخضْراء ، فقالَ: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقةٌ ، وذهبَ سَريعاً إلى قريْشٍ يَصْرخ بأعْلى صَوْته : (يا مَعْشر قريْشٍ ، هَذا محمدٌ قَدْ جاءكُم فيما لا قِبَل لَكُمْ بِهِ ، فمنْ دَخَل دار أَبي سُفْيان فهو آمِنٌ ، ومَنْ أَغْلق علَيْه بابَهُ فهو آمِنٌ، ومَنْ دخَل المسجد الحرامَ فَهُو آمِنٌ) . فتفرّقَ النَّاسُ إلى دُورهم وإلى المَسْجِد ، ولا يمكنُ لهم الآنَ أَنْ يستعدُّوا ، وهَذا ما رغِبَهُ رسولُ الله ﷺ مِنْ كتمانِ أمرِ مسيرِ جيْشه على قريْشٍ ، فَإذا ما فاجَأَها سَلمتْ ، ولَمْ يحدثْ قتالٌ كريهٌ للطّرفيْن في مكّةَ . . ولا حلَّ الآنَ إلا نَصيحةُ أَبي سفيانَ .

وأمر الرسولُ ﷺ فرقةَ الزُّبيْرِ بْنِ العوّامِ أَنْ تَدْخلَ مِنْ ناحيةٍ ، وفرقةَ سَعْد بن عبادةَ مِن ناحيةٍ ، وفرقةَ خالدِ بنِ الوليدِ مِنْ ناحية ، وقدَّمَ بيْنَ يديهْ فرقةَ أبي عبيدةَ بْنِ الجرّاحِ لتدخُلَ مَعَهُ مِنْ ناحية . .

دُخُولُ الخاشِعينَ

ولقَدْ نَهى الرسول ﷺ أَصْحابه عَنِ القتالِ لحرصِهِ على عدمِ إراقةِ الدّماءِ ، ودخلَتْ جيوشُ المسلمينَ مكّةَ دونَ مقاومةٍ ، إلا ما كانَ مِنْ صدامٍ صغيرٍ مَعَ فرقةِ خالد ، اضطر خالدٌ أَثْناءه أَنْ يصدَّ عنادَ جانبِ مشركٍ ، ثُمّ سهَّلَ الله لهُ ، وتَمّ فتحُ البلدِ الأمينِ سِلْماً ، وشُوهِد رسولُ

الله ﷺ يَحْني رَأْسه إجْلالاً وشُكْراً لله على نِعمةِ الفتْح العظيم ، إنَّهُ يدخُل مكّةَ الآن دُخولَ الخاشِعِينَ المتواضعينَ ، لا دخولَ الفاتحينَ المتكبِّرين . .

وبَدأ الرسولُ يَقْرأ سورةَ الفَتْح ، حتّى انْتهى إلى الكعْبة ، ومَعَهُ المسلمونَ ، أَخَذَ يكبِّر معهُم ، حتّى ارتجَّتْ أَرْجاء مكّةَ لصوتِهِم الجميلِ، وبَعْدها طَافوا سَبْعاً ، وشَربوا مِنْ زَمْزَم ، وصلُّوا ركعتيْن ، وهُمْ يَسْمعون أَهْل مكّةَ يقُولونَ معجبينَ : (ما رَأَيْنا مُلْكاً أَبْلغ من هذا ، ولا سمعْنا بِه) .

المِفْتاحُ الأخيرُ

ويقفُ الرسول ﷺ بعْد صلاتِه ليقولَ : (لا إله إلا الله وحْده ، صدَقَ وعْدهُ ونَصر عَبْده ، وهزَمَ الأَحزابَ وحْده . يا مَعْشر قريْشٍ إنّ الله قدْ أَذْهب عنكُمْ نخوَةَ الجاهليّة وتعظّمَها بالآباءِ ، النّاسُ مِنْ آدَمَ ، وآدَمَ مِنْ ترابٍ . يا أَيُّها النَّاسُ إنّا خلَقْناكمْ مِنْ ذكرٍ وأُنْثى ، وجَعَلْناكم شعوباً وقبائِلَ لتَعارفوا ، إنَّ أَكْرمكمْ عنْدَ الله أتْقاكم . يا مَعْشَر قُرَيْشٍ ، مَاذَا تَقُولون ؟ وماذَا تظنُّون أَنّي فاعِلٌ بكُم ؟) قالوا : خَيْراً . . أَخٌ كريمٌ وابْنُ أَخٍ كريم ، قال : (أَقُول كما قالَ أخي يوسُفُ : لا تَثْريبَ عليكُم اليوْمَ ، يغفِرُ الله لكُمْ ، وهُوَ أَرْحم الراحمينَ . . اذْهبوا فأَنْتمُ الطُّلقاءُ) . .

الله أَكْبر يا أَحبّتي . . إنَّهُ أَجْمل مواقف العَفْو وأَعْظمها ، بَلْ وإنَّهُ خيْرُ المفاتيح منزلةً عنْد الله وفي نُفُوس أَهْل مكّةَ ، ولقَدْ كانَ في ذلك قدوةٌ للفاتحينَ . .

قَصَصُ

السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ

٥٣

الكثرة لا تغني

إسلامُ مكَّةَ

هَلْ دَرسْتُمُ الحلقَةَ الماضِيةَ جيِّداً ؟ حَتْماً . . وإنكُم أيُّها الأَحْبابُ قَدْ فهِمْتُم أنَّ مكَّـةَ قَدْ فَتحـتْ أَبْوابَها أَخيراً لِيـدْخُلَها رسـولُ اللهِ ﷺ فاتِحاً مُنْتصِراً، وأَلقَـتْ مَقاليـدَهـا إلىٰ أَمـانتِهِ ، وانْتَهـىٰ بـذلـكَ عِنادُ مَعْقَـلِ الأَصْنامِ، وانْهارَ سَدُّ الكِبْرِياءِ والرَّفضِ المنيعِ الذي قاومَ ثلاثةَ عشرَ عاماً في مكَّةَ وثماني سَنواتٍ في المدينةِ . ومنْـذُ ذلكَ اليـومِ انقلبتْ مكَّـةُ إلىٰ مكَّةَ المؤمنَةِ ، وأَضحَتْ عاصمةً ثانيةً كبيرةً للدَّولةِ المسلمةِ بعْدَ المدينةِ .

ولقَدْ أُعجبَ أَهْلُها بالعفْوِ العظيمِ منْ ذي القلبِ الكبيرِ ﷺ عنْدما قـالَ لهُمْ : (اذْهَبوا فـأَنْتُمُ الطُّلَقـاءُ) ، حيثُ فتحَ القلـوبَ بعْدَ فتْحِ البلادِ، وغـدَتْ نُفوسُ القُـرشيينَ تفيضُ بـالحبِّ والإخلاصِ ، وتـدينُ بالطَّاعةِ والولاءِ ، وتَنْضوي تحتَ لواءِ الرَّسولِ طائعةً مؤمنةً ، وتدخلُ في دينِه راضيةً. فالحمدُ للهِ علىٰ هذا الفتحِ . .

تحْطِيمُ الأَصْنامِ

وكلُّ مَنْ آمنَ مِنْ أَهْلِ مكَّةَ ، قَدْ آمنَ مُختاراً لا مُكْـرهاً ، فأذانُ بلالٍ فوقَ الكعبـةِ قَدْ أَدْخلَ النُّورَ بـرفْقٍ إلى القُلوبِ القاسيـةِ ، ولَمْ يمضِ إلا

القليلُ ، حتَّى بايعَ الرَّسولُ ﷺ جميعَ المؤمنينَ الجددِ ، المعترفِينَ بهِ رسُولاً ، وباللهِ ربّاً وبالإسْلامِ ديناً . وبعْدَ هَذا أَخَذَ ﷺ يمحُو مِنْ مكَّةَ كُلَّ أثرٍ منْ آثارِ الأصنامِ والوثنيَّةِ ، فأمَرَ بهدْمِ (٣٦٠) صَنماً موجوداً حَوْلَ الكعْبةِ ، وخلَتْ قِبْلَةُ المسلمينَ ممَّا يَشوبُ صَفاءَ جَوِّها ، ثُمَّ نادىٰ الرَّسولُ في أَهْلِ مكَّةَ : (مَنْ كانَ يُؤْمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فلا يدَعْ في بَيْتِه صنماً إلا كَسَرَهُ) ، فاسْتجابَ لَه أَصْحابُ البيوتِ ، ثُمَّ بعثَ سراياهُ في قبائلِ العربِ حَوْلَ مكَّةَ ، لِيهدِموا ما بها مِنَ الأصْنامِ ، ومِنْ أَشْهرِ الأصنامِ التي هُدِمَتْ وكُسِرَتْ . (صنمُ هُبَل ، والعزَّى ، وسُوَاع ، ومَناة) . وبقيَ صَنَمُ (اللَّاتِ) الخاصّ بالطَّائفِ ، ولِتهديمهِ قصَّةٌ .

هَوازِنُ وَثَقِيفُ

هَلْ تعرفونَ لماذا تأَخَّرَ هدْمُ صنمِ (اللَّاتِ) ؟ لأنَّ قبيلةَ هوازِنٍ ، وقبيلَةَ ثقيفٍ ، قَدْ صَعُبَ عليْهِما أَنْ يتهدَّم صَنمُهما ، ويتبدَّلَ دينُهما ، وآلمهما كثيراً أَنَّ قريْشاً قَدْ خضعَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ ، وعَلِمَتا أَنَّ محمّداً ﷺ لا بُدَّ وأَنَّه سيلتفِتُ لبلادِهما بعْدَ فَتْحِ مكَّةَ . ولذلكَ اجْتمعَ أهلُ الرأْيِ والسِّياسةِ والخبرةِ منَ القبيلتيْنِ ، وتَشاوروا في الأصْلحِ للأَرْضِ والصَّنمِ ، فاتَّفقوا علىٰ أَنْ يرفضوا الخضوعَ لمحمَّدٍ ﷺ ، وأَنْ يجمعوا عُدَّتَهم وعَتادَهم ، ويجهِّزوا جَيْشاً عظيماً جَرَّاراً ، يَصْعُبُ علىٰ المسلمينَ مقاومتُهُ ، وحقّاً أخذتِ الطَّائفُ تستعدُّ مَعَ مَنْ لَمْ يُؤْمنْ حتى

الآنَ منَ القبائِلِ ،فانضمَّتْ إليها : (نُصَر وجُشَم وسَعْد) مِنَ العربِ ، وناسٌ مِنْ بَني هلالٍ ، واجْتمعَ بذلكَ خَلْقٌ كثيرُ العددِ ، واسْتَلَمَ القِيادَةَ لهذا الجيْشِ الكبيرِ فَتىً حديثُ السِّنِّ وسيِّدٌ في قومِهِ اسْمُه (مالكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصريُّ) . .

مالِكُ وَدُرَيْدٌ

لقد فكَّرَ مالكٌ طَويلاً ، فاشتدَّتْ بهِ الحماسةُ أكْثَر ، ورأىٰ أَنْ لا يخرجَ الجيْشُ وحْدَهُ إلىٰ القتالِ ، وإنَّما يَخْرُجُ معَهُ النِّساءُ والأَوْلادُ والأموالُ، ليكُونَ ذلكَ أَدْعىٰ إلىٰ حماسةِ الرِّجال واسْتِماتتِهم . . .

وكانَ مِنْ بَيْنِ أفرادِ القوْمِ ، رجُلٌ خبيرٌ كبيرُ السِّنِّ اسْمُهُ (دُرَيْدُ بْنُ الصُّمَّةِ) ، وهُوَ شيْخٌ حَنَّكتْهُ التَّجارِبُ ، وعركتْهُ الحروبُ ، ولكنَّهُ هرِمٌ لا يَقْدرُ على قِيادةِ الجيْشِ في الوقتِ الحاضرِ ، فلمَّا سمِعَ بما سيَفْعلُهُ مالكٌ سأَلَهُ عَنِ السَّببِ ، فقالَ مالكٌ : ليقاتِلَ عَنهم ، فقالَ لهُ دُرَيْدٌ : وهَل يردُّ المنهزمَ شيْءٌ ؟ فإنْ كانَتْ لكَ لَمْ ينْفَعْكَ إلا رجلٌ بسيْفِهِ ورمحِهِ ، وإنْ كانَتْ عليكَ فُضِحْتَ في أهلِكَ ومالِكَ . ولكنَّ مالِكاً ركبَ رأْسَه ، وأصرَّ على ما رآهُ ، وتابَعَهُ القومُ علىٰ هَواهُ ، فَخَرجوا بأَهْليهم وأَمْوالهِم . .

مَدْخَلٌ شَيْطانيٌّ

وسمعَ الرَّسُولُ ﷺ بما أعدَّتْ لَهُ هوازنٌ وثقيفٌ ، فبعثَ إليهم أحدَ الصَّحابةِ ليَسْتطلعَ حقيقةَ الأَمْرِ ، فلما تبيَّنَ لهُ صدْقَ ما عزموا عليْهِ مِنَ

العدوانِ والغَدْرِ ، أرادَ الرسولُ تَأْديبَهم ، فأعدَّ لمفاجَأتِهم ، وخرجَ مِنْ مَكّةَ في يومِ السَّبتِ السَّادسِ منْ شوّال قاصِداً إلىٰ مكانِ الجيْشِ المعتدي في اثْني عَشَر ألْفاً مِنَ الصَّحابةِ بما فيهم أَهْلُ مكّةَ الذين بَذَلوا بعد إيمانِهم ما بوسْعهم منَ المالِ والسِّلاح . . ولمْ يخرجْ منْ قبلُ بعددٍ كَهذا .

ومَشىٰ الرَّسولُ ﷺ بالجيْشِ في مَظْهرٍ بالغِ القوةِ ، حتّىٰ ظَنَّ المسلمونَ أنَّ كَثْرتَهم هذِهِ لَنْ يَغْلبَها عدوٌّ مهما كانَتْ قوَّتُهُ . . وإنَّهُ لتفكيرٌ من وساوِسِ الشّيطانِ ، وإنَّهُ ظَنٌّ خاطئٌ ، والكثرةُ هُنا قَدْ وقَفَتْ حِجاباً دُونَ فَهْمِ الحقيقةِ التي كانَتْ في غَزْوَةِ بدْرٍ ، وصحيحٌ أنَّ الكثْرةَ تفيدُ ، ولكنْ قَدْ لا يُغْلبُ الجيْشُ مِنْ كَثْرةٍ ، بَلْ بسببٍ آخرَ ؟ ! .

وادِي حُنَيْنٍ

إنَّ خِطَّةَ العدوِّ هيَ الخروجُ إلى وادِي حُنينٍ ، وهُو وادٍ أجْوفُ شديدُ الانحدارِ والخطورةِ على الذينَ يمرُّون منْهُ ، وقَدْ رَأَىٰ مالكُ بْنُ عوفٍ قائدُ المشركينَ أنْ يُعَسْكِرَ بجيشهِ عنْدَ مَدْخلِ الوادي ، وأنْ يسْتغلَّ تضاريسَ المكانِ في تحْطيمِ قوّةِ المسلمينَ ، فجعلَ فَريقاً مِنْ رجالهِ في رُؤوسِ المضائقِ والمرتفعاتِ وأعالي الوادي ، وعبّأ بقيَّةَ الجيْشِ علىٰ الجوانبِ ، والمكامِنِ الحصينةِ . . وأمرَ الرُّماةَ أنْ يُفاجِئوا طلائعَ المسلمينَ عنْدَ ظُهورِها، قبْلَ أنْ يستعدَّ المسلمونَ في ساحةِ المعركةِ ،

وإنَّ المفاجأةَ هيَ إعدادٌ خطيرٌ ضِد المسلمينَ ، والمسلمونَ لا عِلْمَ لَهُمْ بما هيَّأَ لَهم الأعْداءُ ، وظنُّوا أَنَّهم سَيُفاجِئونَ العدوَّ قَبْلَ استِعْدادِهِ ، وأنَّ كَثْرتَهمْ سَتَقضي علىٰ جيْشِ العدوِّ بأكمله ، ووصَلَ الجيْشُ المسلمُ أخيراً، وصفَّهُ رسولُ اللهِ ، ونظَّمَ ألْويَتَهُ ، وخطَّطَ أنْ يُفاجِئَ القومَ صُبْحاً .

مُفاجأةُ السِّهامِ

وقُبيْلَ الصَّباحِ بقليلٍ تحرَّكتْ كتائبُ المسلمينَ ، تتقدَّمُها كتيبةُ الفرسانِ بقيادةِ خالدِ بن الوليدِ ، ويتْبعُها الرَّسولُ ﷺ على راحلتِهِ يحيطُ بهِ رجالٌ مِنْ صحابتِه ، وما كادتْ طلائعُ الجيْشِ المسْلمِ تدْخل وادِي حُنيْنٍ حتَّىٰ فُوجئَ المسلمونَ بالسِّهامِ ترْشُقُهم مِنَ الأعْلىٰ ، وتَنحطُّ عليهم في الظَّلامِ الأخيرِ، ولشدَّ ما كانتِ المفاجأةُ مذهلةً ؟ مِنْ أيْنَ السِّهامُ ؟ مِنْ أيْنَ هذا الوابِلُ ؟ . . إنَّهم الأعْداءُ ولا شكَّ قَدْ حَسبُوا حِساباً ، وتهيَّؤوا في أعالي الوادي ومَكامِنِه الخفيَّةِ التي لا يَعرفُها المسلمونَ ، وبدأ التَّراجُعُ في صفوفِ المسلمينَ الذين أذْهلَتْهُم المفاجأةُ، وجَعلوا يرتدُّونَ على غيرِ نظامٍ ، فانتهزَ العدوُّ هذه الفرصَةَ ، فَهجمَ عليهمْ ، وأمْعنَ ضَرْباً بهِمْ مِنَ الخلْفِ ، ممَّا أشاعَ الاضطرابَ والفَوْضىٰ ، وذَهبَ ما ظنُّوهُ مُفيداً مِنْ كَثْرة العددِ ، أيْنَ الكثْرةُ الآنَ ؟ إنَّها لمْ تُغْنِ عنهم شيئاً .

« أَنَّا النَّبِيُّ لا كَذِبْ »

والرّسولُ ﷺ يرىٰ هَذا الموقفَ ، ويَرى تَدافُعَ النَّاسِ مُنْهزمينَ ، وإنَّهُ رسولُ اللهِ ، وعليهِ أنْ يكونَ قُدوةً للناسِ في ثباتهِ وحسن قيادتهِ ، لعلَّهُ يخفِّفُ شيئاً ، أوْ يعيدُ الكفَّةَ قليلاً إلى الرجْحانِ ، وها هو ذا بحكمتهِ يحاولُ الآنَ ضَبْطَ النُّفوسِ ، ولَمَّ التَّصدُّعِ ، إنَّه يصيحُ بأَعلى صَوْتِه : (أينَ أيُّها النَّاسُ ؟ هلمُّوا إليَّ ؟ أنا رسولُ اللهِ ، أنا محمَّدُ بْنُ عبدِ اللهِ.

أنـا النبيُّ لا كـذبْ ... أنـا ابنُ عبدِ المطَّلبْ . .)

وساعَدَهُ العبَّاسُ بصوتِه ، فأخذَ يقولُ صارخاً : يا مَعشرَ الأنْصارِ الذينَ نَصروا اللهَ ورسولَهُ ، يا مَعْشرَ المهاجرينَ الذين بايعوا رسولَ اللهِ ، هلمُّوا إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ .

إنَّهُ صوتٌ تحملُهُ أجنحةُ الهواءِ إلى كُلِّ أُذنٍ ، إلىٰ كلِّ مَنْ يَسْمعُ ويعقِلُ : (هلمُّوا إليَّ . . أنا رسولُ اللهِ . . أنا النبيُّ لا كذبْ) .

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ

وسرعَانَ ما عادَ الهاربونَ إلى رُشْدِهم ، إنَّهُ صوْتُ رسولِ اللهِ حقَّاً ، فلا منطِقَ في تركهِ وحْدَهُ وسْطَ المعركةِ ، هَلْ نَسينا يوْمَ أُحدٍ ؟ هَلْ نسينا خطيئةَ الرّماةِ ؟ الهروبُ قَدْ يجعلُ الخسارةَ أكبرَ ، وعصْيانُ رسولِ اللهِ فيهِ الشَّرُّ والهلاكُ أمامَ السُّيوفِ والرّماحِ . . لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ . . لَنْ نتْركَكَ

يا قائِدَنا الحكيمَ ، ها نَحْن أُولاءِ سَنَرجعُ . . لقد خدعَتْنا الكثرةُ ، فلا تُؤاخذْنا ، نَحْنُ كلُّنا سنَرجعُ مهاجرينَ وأنصاراً . . سنحملُ معكَ يا رسولَ اللهِ على الأَعْداءِ حملةَ صدقٍ وعزيمةٍ وإيمانٍ . .

وحَقّاً ما هي إلا ساعةٌ حتَّى انكَشفَ الظَّلامُ وأشْرقتْ خيوطُ الصَّباحِ والنُّورِ ، وبدتْ مَواقعُ العدُوِّ ، وثبتَ المسلمونَ كثباتِ الأبطالِ الصَّادقينَ يَوْمَ مؤْتَةَ وأُحُدٍ ، حتى انفرطَ عِقْدُ الأعداءِ ، وقُتلِ مِنْ جموعِ الشركِ المتفرقةِ عددٌ كبيرٌ يعادلهُ عددُ الأسرىٰ والهاربينَ .

غَنائمُ لا تُحصىٰ

وكانَ ممَّنْ أَنْقذَهُم الهربُ (مالكُ بن عوفٍ) القائدُ الفتىٰ الشَّابُّ ، الذي أَخْرجَ معَهُ النِّساءَ والأَمْوالَ والأولادَ ، والركائبَ كُلَّها ، ولم يَسْمعْ نصيحةَ (دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ) خبيرِ الحروبِ والمعارِكِ .

إنَّ مالِكاً الآنَ قَدْ هربَ ، ولمْ يستطعْ أنْ يأخذَ معَهُ دِرْهماً واحداً أَوْ ولداً صَغيراً ، وتَركَ كُلَّ ما جلبَهُ مَعَ الجيْشِ غَنيمةً سهلةً لأيدي المؤمنينَ، ولا تَسْألوني يا أحبَّتي عَنْ كميَّةِ الغنائمِ ، فهيَ صعْبةُ الإحصاءِ، ومَعَ ذلكَ فقدْ أَعطانا الصَّحابةُ عدداً تقريبيّاً لكُلِّ نوعٍ منها: (٢٤) ألفاً مِنَ الإبلِ + (٤٠) ألفاً منَ الغنمِ + (٤) آلافِ أوقيَّةٍ مِنَ الفضَّةِ + (٦) آلاف منَ النّساءِ والبنينَ . والزمنُ لا يسْمحُ بفرحةٍ في جمعِ غنيمةٍ ، وما خطيئةُ أُحُدٍ ببعيدةٍ ، إنَّ مطاردةَ الهاربينَ أفضلُ

وأهمُّ ، وبعدها تجمعونَ الغنائمَ في مكانٍ حَصينٍ وأمينٍ .

حِصارٌ وَإِذْعانٌ

وتحصَّنَ الهاربونَ في حُصونِ الطائف المنيعة القويَّةِ ، ومِنْ بينهم القائدُ الشَّابُّ مالكُ بْنُ عوفٍ . وحاصَرهم رسولُ اللهِ ﷺ بِضْعاً وعِشْرين ليلةً ، وسهَّلَ لَهم كُلَّ سبيلٍ للسَّلامِ ، ولكنَّ ثقيفاً أَبَتْ ، ولَمْ يتسلَّلْ منها إلا عددٌ مِنَ العبيدِ ، أَسْلموا بعْدَ هربِهم ، وأَعْلموا رسولَ اللهِ أَنَّ لَدى الحصونِ زاداً يكْفي ثقيفاً مُدَّةَ سنةٍ كاملةٍ ، فأيقنَ النبيُّ الكريمُ أن لا فائدةَ مِنْ إطالة الحصارِ والاستمرارِ بهِ ، وأنَّ الأعداءَ لَنْ يتمكَّنوا مِنَ الخروجِ والمحاربةِ خائفينَ ، وآثرَ الرسولُ الارتحالَ بجيْشهِ ، آمِلاً أنْ تأْتيه ثقيفٌ مؤمنةً طائعةً ، وهذا ما كانَ ، وتحقَّقَتْ آمالُهُ ، فلَمْ تَمضِ إلا بضعةُ أَشْهرٍ حتَّى فكَّتْ ثقيفٌ شرنقةَ حِصارِها عَنْ نَفْسها دونَ إجبارٍ ، وأتَتْ مسلمةً إلى محمدٍ ﷺ ، فحمِدَ المسلمونَ ربَّهم على كلِّ هذا : معركةٌ ، ونَصْرٌ ، وغنائم ، وحصارٌ . . وإذعانٌ ، فإيمانٌ . .

تَرْبيةٌ عاليةٌ ساميةٌ

وعادَ الجميعُ إلى مكانِ الغنائمِ ، الكلُّ ينظرُ إلى العددِ الضَّخمِ مِنَ الثَّرواتِ ، ورسولُ اللهِ ﷺ ينظرُ إلى العيونِ التي أَعْجبَها المنْظَرُ ، ويُعطي مَنْ آمَنَ حديثاً ، ومَنْ لَما يُؤمن بعدُ مِنْ أَشْرافِ مكَّةَ مِقْداراً كبيراً مِنَ الإبلِ والغنمِ والفِضَّةِ ، فانْشرَحَتْ قلوبُهُم للإيمانِ بعْدَ أَنْ فَتَحَها

الرَّسولُ بمفتاحِ الجودِ والبَذْلِ والعطاءِ ، لكنَّ بعضَ النُّفوسِ تهامَسَتْ بينَ الأنصارِ عنِ العَطاءِ السَّخيِّ وسرى التَّساؤُلُ والحَيْرَةُ . . ؟ ! . .

فجمَعَ رسولُ اللهِ الأنصارَ ، ونَصَحَ لهم أَنْ لا يَلْتفتوا إلى مالِ الدُّنيا ، وبيَّنَ لهمْ أَنَّ عطاءَهُ لبعضِهم كانَ مِنْ أَجْل تأليفِ القلوبِ ، وبَشَّرهُم أخيراً بأَنَّ الآخرينَ وإنْ أَخَذوا المالَ والغنائمَ ، فالأنْصار سَيأْخذون إلى المدينةِ أَغْلى وأَحْلى غنيمةٍ ، سَيأْخذون معَهم رسولَ اللهِ ، ثم دَعا لهم :

اللَّهُمَّ ارْحمِ الأنصارَ وأَبْناءَ الأنصارِ وأَبْناءَ أبناءِ الأَنْصارِ . فبكى الأَنْصارُ قائلينَ : رَضينا بِرسولِ اللهِ قَسْماً وحظّاً .

دَرْسٌ مِنْ حُنَيْنٍ

إنَّهُ درسٌ مِنْ دُروسِ التّربيةِ العاليةِ (لخاصَّةِ المسلمينَ مِنَ الأنْصار) . ولكنَّ هُناكَ دَرْساً آخرَ مِنْ غزوةِ حُنينٍ ليسَ للخاصَّةِ فحسْبُ ، بَلْ للعامَّةِ والجميعِ ، استفادَ مِنْهُ أفرادُ الجيْشِ المسْلمِ : (إنَّ على المسلمينَ عَدمَ الاغترارِ بقوَّتِهم وكَثْرتِهم ، فلقَدْ خرجَ المسلمونَ مِنْ مكَّةَ إلى حُنينٍ في كثرةٍ لَمْ يَبْلُغوها في حَربٍ إلى الآن ، فهَلْ أَغْنتِ الكَثْرةُ عنهم شيئاً ؟ لا . .) .

إنَّهُ درسٌ جميلٌ حقّاً إذا فَهمناهُ نَحْنُ أيضاً ، فالمسلمونَ اليومَ في الزمنِ المعاصرِ لَنا كثيرٌ عددُهم ، لكنَّهم ضائعونَ لا يُدْركون حقيقة

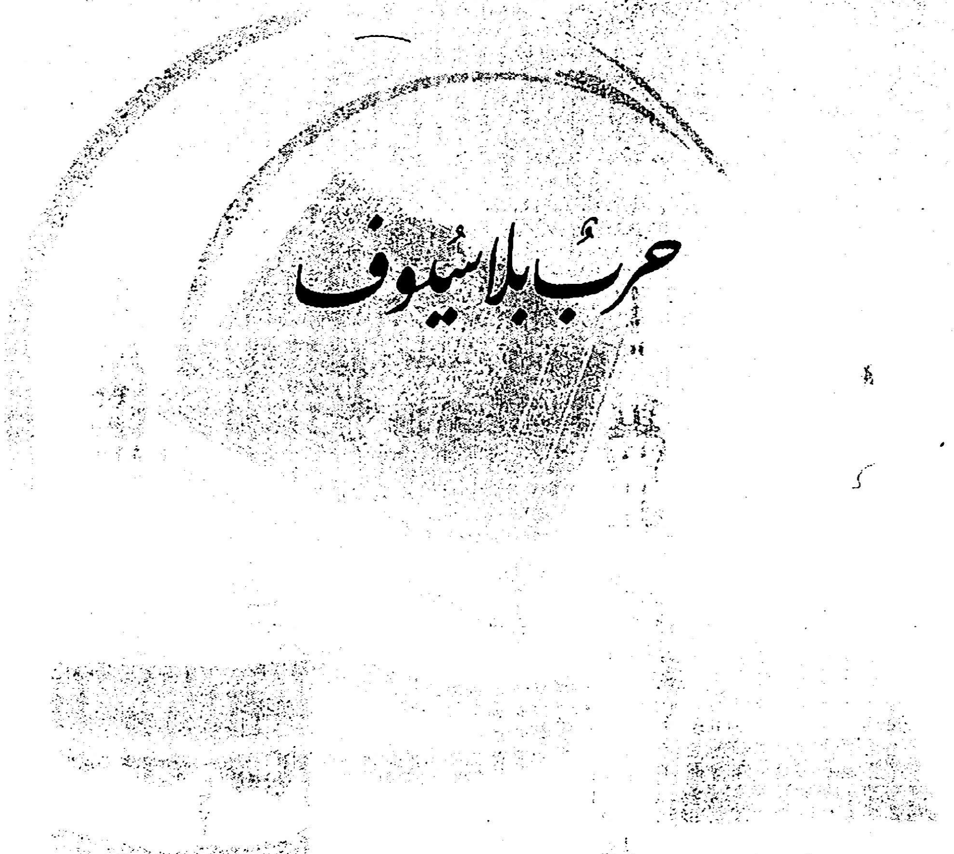
حُنينٍ الخالدةَ ، وقَدْ لبسَهم الغرورُ ، فصارَتْ كثرتُهم مثلَ القشِّ أمامَ السَّيلِ الجارِفِ . وإنَّ المسلمينَ في حُنينٍ يا أحبَّتي قَدْ أصابَهم الغرورُ ، ثمَّ عادوا إلى صَوابِهم بعْدَ أَنْ ناداهُم رسولُ الله ﷺ ، أمَّا نحنُ فما نَزالُ في الهزيمة ، نغطُّ في نومٍ عميقٍ ، مَعَ أَنَّ كتابَ الله يُنادينا كلَّ يومٍ . .

عَنْ طِيبِ خاطِرٍ

وَنسيتُ أَنْ أُذكِّرَكُم يا أحبَّتي أَنَّ أعداءَ المسلمينَ في حُنينٍ عنْدما هَربوا ثُمَّ عادُوا مسلمينَ طَائعينَ قَالوا لرسولِ اللهِ ﷺ : (رُدَّ علَينا أَمْوالنا ونَساءَنا وأَبْناءَنا) . لكنَّ رسولَ اللهِ كانَ قَدْ وزَّعَ الغنائمَ ، فماذا سَيَعْملُ وقَدْ أَتَوْه مُسْلمينَ ؟ . . لقَدْ خيَّرَ أَهْلَ ثقيفٍ أَنْ يختارُوا : إمَّا الأَموالَ ، وإمَّا النِّساء والأَولاد ، فاخْتاروا الأمر الثاني ، ثُمَّ التفتَ إلى المسلمينَ يَسْتعطفُهم ليرُدُّوا النِّساءَ والأولادَ عَنْ طيبِ خاطِرٍ دُون إجبارٍ ، وعلى شكْلِ قَرْضٍ يُوَفَّى إليهم في أَوَّلِ غنيمةٍ بعْدَ حُنَينٍ ، فقالُوا جميعاً : رَضِينا وسَلَّمنا . . وكلُّنا طَوْعُ أَمْرِ رسولِ اللهِ . . وعادَ المؤمنونَ الجددُ فرحينَ ، وقَدْ أَمَّرَ الرَّسولُ عليهم قَائدَهم مالكَ بْنَ عوفٍ الذي أَسْلمَ معهم . . وما إنْ رَجَعَ مالكٌ بقوْمِه حتَّىٰ أَتَتْ أَقوامٌ أُخرىٰ إلى رسولِ اللهِ تُعلنُ إسلامها . وهكذا اسْتَجابَ اللهُ دُعاءَ نَبيِّهِ يومَ كانَ في الطَّائِفِ قَبْلَ عشْرِ سنواتٍ تقريباً وخرجَ مِنْ أصلابِ القَوْمِ في مكَّةَ والطائِفِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وحدَهُ .

قصص
السِّيرة النَّبَوِيَّة
٥٤

حربٌ بلا سُيوف



إيمانُ الكَثْرَةِ

أَصْبحتُم أيُّها الأعزَّاءُ علىٰ درجةٍ جيدةٍ ووفيرةٍ منْ معلوماتِ السّيرةِ الكريمةِ . وأُذكِّركم بأنَّنا بعْد سبع حلقاتٍ سنأْتي إلى ختامِ هذِه المجموعةِ الطَّيبةِ ، وأراكم حتَّىٰ هذِه الحلقةِ قَدْ تبيَّنْتُمْ قيمةَ الجهدِ العظيمِ ، الذي بذلَهُ رسولُنا العظيمُ ﷺ ، لكيْ يتمَّ لَهُ فتْحُ مَكَّةَ وإيمانُ أَهْلِها ، وقَدْ أَعطاهُ اللهُ هذَيْنِ الهدفَيْنِ ، وزيادةً . . فها هُمْ أُولاءِ المسلمونَ مِنْ ثقيفٍ وَهَوازِنَ يتَوافدون على رَسولِ اللهِ بعْدَ فَتْحِ مكَّةَ وغزوةِ حُنينٍ ، ليُعْلنُوا إسْلامَهم أمامَ النبيِّ الكريمِ . وبعْدَ أَنْ أَمَّرَ الرَّسولُ مالكَ بْنَ عوفٍ علىٰ المسْلمينَ الجُددِ ، عادَ مَعَ مَنْ شاءَ مِنَ المهاجرين إلىٰ المدينةِ في صُحْبةِ الأنصارِ ، وجَلَسَ في المسجد يَسْتقبلُ وُفُوداً جديدةً ، وما هيَ إلا سنةٌ واحدةٌ حتَّىٰ أَسْلمَ أكْثَرُ أَهْلِ الجزيرةِ العربيّةِ ، فلَمْ تَعدْ هُناكَ هجرةٌ إلىٰ المدينةِ أَوْ غيرِها خَوْفاً مِنْ معتدٍ أَوْ غادرٍ ، وأصبحَتْ دولةُ الإسلامِ كبيرةً .

مَصالحُ الرُّومِ

وليستِ الغايةُ كثرةَ العددِ ولا المساحةَ الواسعةَ ، وإنَّما أَنْ يكونَ العربُ مِثالاً لكلِّ أمّةٍ خيّرةٍ تخرج للنّاسِ ، تأمرُ غيرَها بالمعروفِ ،

وتَنْهى عَنِ المنكرِ ، وإذا ما زاغتْ عَنْ هذِه المهمَّةِ زالَ الخيرُ عَنْها ، وبَدَتْ مُهَلْهَلَةً أمامَ الدُّولِ . وعلى الدَّولةِ المسلمةِ بعْدَ فتْحِ مكّةَ أَنْ تَحْميَ مَهمَّتَها ومَصالحَ عَقيدتِها على حُدُودِها ، فهؤُلاءِ الرُّومُ في جهةِ الشَّمالِ يَنْظرونَ إلى الجزيرةِ العربيةِ نظرةً جديدةً ، حيْثُ فَقَدوا مَصالحَهُم التّجاريَّةَ والسياسيَّةَ مَعَ العربِ ؟ ولَمْ يَعُدْ لهم أَنصارٌ ولا أعوانٌ ، ولم يرَوْا بعدَ الفتح قِتالاً فيما بيْنَ العربِ حتَّىٰ يَسْتفيد الرُّومُ مِنَ التفرقةِ والمعاركِ!

إنَّ صوتَ محمَّدٍ ﷺ قدْ طرقَ أَسْماعَ الملوكِ أمْثال كسْرىٰ والنَّجاشيِّ ، ووصلَ إلىٰ هِرَقْلَ الذي كادَ أَنْ يُؤمِنَ لَولا خوفهُ مِنَ الأعيانِ حَوْلَه في ذهابِ مُلكِهِ ، وقَدْ تنبأَ قيصرُ الرُّومِ هذا أنَّ المستقبلَ للإسْلامِ . .

مُتابعَةٌ دَقيقَةٌ

ومِنْ وَقتِها اشتَدَّ اهْتمامُ الرُّومِ بهذِه الدَّولةِ الإسْلاميةِ ، وأَخَذوا يَلمِسونَ حقّاً ويتأكّدون مِنْ أنَّ أَتْباعَ محمَّدٍ رجالٌ ليسَ هَمُّهم المالَ ، ولا تُغْريهم الدُّنيا ، ولا تُلْهيهم تجارةٌ ولا مغانمُ ولا شهواتٌ عَنْ نَصرِ دينِ اللهِ وحمايةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأَصبحَ واضِحاً أَنَّ دَعْوةَ الإسْلامِ شرارةٌ لَنْ تنطفئَ ، طالما يَحملها أمثالُ صَحابةِ الرّسولِ . . فأيْنَ الرُّومُ مِنَ المحبَّةِ التي تسودُ جوَّ الدولةِ الإسلامية ، وأينَ الرُّومُ مِنَ النُّورِ العظيمِ الذي سادَ العربَ ؟ إنَّ جواسيسَ الرُّومِ لَيَنْقلُونَ الأخبارَ تِباعاً عَنْ كُلِّ

ما يَجري بيْنَ رسولِ اللهِ وأَصْحابِهِ . وفي هَـذا يا إخْوتي دَليلٌ على أَنَّ دولةَ الرُّومِ علىٰ علمٍ تامٍّ بدعْوةِ الإسلامِ ، وأنَّهم يُتَـابعونَ سَيْرَ الدَّعوةِ متابعَةً دقيقةً . ولذلـكَ كانَ الحكَّامُ الرُّومـانُ يقدِّرونَ ما لمحمَّدٍ وأصحـابِهِ مِنْ خُطورةٍ على مَصـالحِ الـرُّومِ ، وما يترتَّـبُ على الرُّومِ مِـنْ نظرةٍ جـدِّيَّةٍ للأَمْـرِ . .

مَسْجِدُ الضِّرَارِ

ومِـنْ أهَـمِّ مـا عمِلَـهُ الرُّومُ ليفرِّقوا بيْنَ المسلمينَ أنَّهم اتَّفقـوا مَـعَ المنـافِقينَ في المدينةِ مِـنْ طـرفٍ خفيٍّ أَنْ يقضـوا على الـدَّولةِ المسْلمـةِ وأَهْلِها ، وسَيَبدؤونَ لـذلكَ ببناءِ مرصَدٍ للأخبارِ ، على شَكْلِ مسجدٍ ، وبنَاهُ المنافقونَ ، وهُمْ يُـوهمونَ المسلمينَ أنَّهم لا ينْوونَ إلا خيراً ، وأَتَوا رسـولَ اللهِ ﷺ قـائلينَ : يا رسـولَ اللهِ إنَّا قدْ بَنَيْنا مسْجِداً لذِي العلَّـةِ والحاجةِ واللَّيْـلةِ المطِيرةِ واللَّيْـلةِ الشَّاتيةِ ، وإنَّا نحبُّ أَنْ تَـأْتيَنا فتصلِّيَ لَنَـا فيـهِ (يريـدون بذلكَ مـوافقَةَ الـرسولِ على بنائِه) ، لكنَّ الوَحْي نزَل على رسولِ اللهِ ، ليُخْبرَه بالحقيقـةِ ، وبمقْصدِ الذين بَنوهُ مِنَ الكُفْرِ والتَّفريق بَيْنَ المؤمنينَ ، وزرْعِ مَعْقلٍ للشَّيطانِ وبؤرةٍ للتجسُّسِ ، فَبَعَـثَ الرَّسـولُ إلى هَـذا المسجِد رجـالاً ليَهْدموهُ ، وسَمَّاهُ اللهُ تعـالى : (مَسْجِدَ الضِّرَارِ) ، وأَنْزلَ آياتِهِ تكذِّبُ المنافقينَ وادِّعاءاتِهم الباطلةِ .

عُدَّةُ الكُفْرِ

وكانَ الرُّومُ قَدْ أعطَوا عَهْدَهُم للمنـافقين بمتابَعةِ الغايةِ المتَّفَقِ عليها ضِدَّ الدَّولةِ الإِسلاميَّةِ ، وصادَفَ أَنِ انْتَصرَ الرُّومُ على الفُرسِ في مَعارِكَ كبيرةٍ . فاغْتَرُّوا بقوَّتِهم ، وأَخَذوا يعدُّونَ لجَيْشٍ عظيمٍ ، يستعدُّونَ بذلكَ لتنفيذِ الخطَّةِ مَعَ المنافقينَ ، وعَلِمَ الرَّسولُ ﷺ بذلكَ ، وبَلَغَهُ أَنَّ هرقْلَ قَدْ جَهَّزَ الجيْشَ مع مؤونةِ سَنَةٍ كاملةٍ ، وليْسَ أمامَ الرَّسولِ إلا :

١ – إمَّا أَنْ يَتْرُكَ الرُّومَ يَتَغلغلـونَ في الجزيرةِ ، ثُمَّ يُقَابِلُهم ويقـاتِلُهم ، ويُدافع عَنِ المدينةِ والدَّولةِ الإسلاميَّةِ .

٢ – وإمَّا أَنْ يتجهَّـزَ مِنَ الآنَ ليصـدَّ هجومَ الرُّومِ في بلادِ الـرُّومِ ، أو بالقرب منْها فيكونَ هُو صَاحِبَ الهجومِ على المعْتدين .

ولا شَـكَّ يا أحِبَّتي أَنَّ الطَّريقـةَ الأُولىٰ سهلةٌ ، وميسَّرةٌ ، لكنَّها قـد تُؤَدِّي إلى فقدِ بَعْضِ القبائِلِ العربيَّةِ المحالِفَةِ للمُسْلمين .

حَضٌّ علىٰ الجِهادِ

لذلـكَ يا أيُّها الأبطالُ اخْتارَ البطـلُ رسولُ اللهِ ﷺ طريقَـةَ الهجومِ ، لتكـونَ أشدَّ عِبرَةً للـرُّومِ . ومِنْ أَجْـلِ هَـذا بَدأَ الحضُّ على الجهـادِ . . ونَدَبَ الرَّسـولُ النَّاسَ إلى الخروجِ ، وبعثَ إلى مكَّةَ وإلى قبائِلِ العربِ يَسْتَنْفِرُ المسلمينَ ، وأَعْلمَهم خطـورَةَ الموقفِ ، والجهَةَ التي يَقْصِدُها .

وَلَبّىٰ المسلمونَ نداءَ الجهادِ . .

ووقفَ الرَّسول ﷺ يأمرُ بالإنفاقِ ، وتجهيزِ الجيْشِ بالمؤونةِ والمالِ والسِّلاحِ لمدَّةٍ طويلةٍ منَ الزَّمنِ ، ورغَّبَ المسلمينَ بالشَّهادةِ والمعروفِ والخيرِ ، فأخَذَ المنافقونَ كعادتِهم يختلقونَ الأعْذارَ الكاذِبةَ ، ويتعلَّلونَ بُغْيَةَ التَّخلُّفِ عنِ الجهادِ ، وزيادةً علىٰ ذلكَ جعَلوا يخوِّفونَ الأنْصارَ والمهاجرينَ ومَنْ وَفَدَ إلىٰ المدينةِ مِنْ قتالٍ في الحرِّ الشَّديدِ والبلدِ البعيد ، وضدَّ الدَّولةِ العالميَّةِ الأُولىٰ ، كما ينْظُرُ ضِعافُ النُّفوسِ اليَومَ خطأً إلىٰ دولةٍ كبيرةٍ عالميّةٍ كأمريكا . .

جَيْشٌ وَأَمْوالٌ

ولَمْ يستمع الصَّادقونَ إلى أقوالِ المنافقينَ ، بَلْ تنافسوا بإخلاصِهم في التَّجهيزِ ، فأَنْفقَ عُثْمانُ بْنُ عفَّانَ وَحْدَهُ عشرةَ آلافِ دينارٍ ، وأَعْطىٰ ثلاثمائةِ بعيرٍ ، وخمْسينَ فرَساً ، وجاءَ أبو بكرٍ بكُلِّ مالِه ، وجاءَ عُمرُ بْنُ الخطَّابِ بنصْفِ ما يملكُ ، وقدَّمَ عبدُ الرَّحمنِ بْنُ عوفٍ مائتي أُوقيَّةٍ منَ الفضَّةِ ، وحَمَلَ العبَّاسُ تسعينَ ألْفَ درهمٍ ، وبذَلَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ وسَعْدُ بْنُ عبادَةَ ومحمَّدُ بْنُ مسلَمَةَ أكْثرَ ما يملكونَهُ ، وتصدَّقَ عاصِمُ ابْنُ عَدِيٍّ بتمرٍ وبَلَحٍ يكفي آلافاً مِنَ الجيْشِ ، وشاركَتِ النِّساءُ المُسْلماتُ بما يملكْنَهُ مِنَ الجواهِرِ والحُليِّ ، واجْتمَعَ لرسولِ الله ﷺ جيْشٌ كبيرٌ جدّاً مؤلَّفٌ مِنْ ثلاثينَ ألفِ مقاتلٍ ، وخرجوا في شَهْرِ رجبٍ علىٰ بركةِ الله / سنة تِسْعٍ للهجرة / ، وتمَّ عقدُ الألويةِ ، وتخلَّفَ عبْدُاللهِ

ابنُ أُبَيّ مَعَ ثلّةِ النِّفاق ولا غرابَةَ ، ولم يتخلّفْ منَ المؤمنين الصّادقينَ إلا ثلاثةٌ .

نَظْرَةٌ فريدَةٌ

وإنَّهُ لمسيرٌ شاقٌّ ، فلَمْ تكنِ الطَّريقُ سهلةً ، ولم يكن السَّفرُ قريباً ، ولا الوقْتُ ملائماً للسَّير ، إنّما ذلكَ في زمانِ عسرةٍ منَ النّاسِ وفقرٍ ، وشدَّةٍ في الحرِّ والقَيْظِ ، وجدْبٍ في الزَّرعِ ، لكنَّهُ الجهادُ وحُبُّ الإسلامِ ، دَفَعا المسلمينَ لدفْعِ عدوٍّ مُهاجِمٍ ، ودرْءِ خطرٍ جاثمٍ علىٰ الأبوابِ ، وإنَّ المسلمَ لا يتخلَّفُ عنِ الجهادِ بانتظارِ الفرصَةِ المواتيةِ والمناسبةِ ، فأعمالُنا كُلُّها للخيرِ ، وفي سبيلِ اللهِ ، وإن تخلَّفْنا ضاعَ الأجْرُ ، واشتدَّ الخطرُ .

ولقَدْ قاسى الرَّسولُ ﷺ وصحبُهُ في هذهِ السَّفرةِ مشقَّةً بالغةً وعَنَتاً كَبيراً، فالبُعْدُ والحرُّ قَدْ زادَ عليهما تعبُ الأجسامِ وشُحُّ المؤونةِ وقلّةُ الرّكائبِ . وسُمِّيتْ تلكَ السّاعةُ (ساعَةَ العُسْرةِ) ، مَعَ كُلِّ هٰذا تابعَ المسلمونَ سيرَهم وراءَ رسولِ اللهِ وسْطَ الجهدِ والتَّعبِ ، ودعَوُا اللهَ أَنْ يمدَّهم بالقوّةِ . .

مُعْجِزَةُ السَّماءِ

وإنْ صبرَ النَّاسُ على البعدِ والحرِّ والفَقْر ، فالصَّبرُ سينفَذُ أمامَ شدَّةِ العَطشِ ، فقَدْ أحسَّ الصَّحابةُ أنَّ رقابَهم كادَتْ تتقطَّعُ منْ فقدانِ الماءِ

وانعدامِه ، فاقتربَ أَبـو بكرٍ مِنْ رَسولِ اللهِ يسأَلُهُ الـدُّعاء للهِ بأَنْ يغيثَ المسلمينَ بالماءِ مِنَ السَّماءِ ، فرفَع القائدُ يـدَيْهِ إلى مُرْسِلِ الماءِ ، ودَعاهُ وعُيون المسلمينَ تَنْظرُ إلىٰ أَعْلى ، ليَتَسابقوا إلى المطرِ بعْدَ انتظارٍ ، وما هيَ إلا دَقائق حتَّىٰ أَتتِ المعجزَةُ العظيمةُ (غَيْمـةٌ كبيرةٌ جدًّا ، في قيْظِ الصَّيفِ الشَّديدِ) . وما هيَ إلا دَقائق أُخْرىٰ حتَّى انْفجرتِ الغيمةُ عَنْ دموعِ الفـرحِ الغزيرةِ التـي بلَّلتِ الـوُجوهَ ، وملأتِ الأفـواهَ والأوعيةَ ، وأعادتِ النَّشاطَ والقـوَّةَ ، وجعلتِ الألسُنَ تقولُ معَ ابتسـامةِ الفرحِ : (الحمدُ للهِ الذي سَقانَا ، وجَعلَنا مُسْلمينَ) . ويأْتيهم الجوابُ : اشْربوا وانْعَموا وتابِعوا مَسيرَكُم فإنَّ مَلائكَةَ اللهِ معَكُم كلَّما أَردتم .

تَوَقُّفٌ في تَبُوكٍ

ووَدَّعَتْهم الغَيْمةُ ، وتَجاوَزوها شمالاً مُتـابعينَ سيْرَهُمْ ، ولَمَّا وَصَلوا إلىٰ تَبوكٍ وهي مدينةٌ علىٰ حدودِ دولـةِ الرُّومِ ، لَمْ يجدُوا أَثراً لجيْشٍ رُومانيٍّ أَو استعدادٍ لَـهُ ، فاسْتَغـرب الرَّسـولُ ﷺ والمسلمونَ الأَمـرَ ، أَيْنَ الجيشُ الذي وَصلتْ إلينـا أخبارُ تحرُّكهِ ؟ ولَوْ تحرَّكَ لكانَ في مُنْتصفِ الطَّريقِ إلىٰ المدينةِ ؟ أَمَـا وإنَّ الطَّريقَ قـدِ انتهتْ فهـذا يعْني أَنَّ الرُّومَ قـدْ آثروا الانسحابَ والامتنـاعَ عَنِ القتـالِ عنْدَما عَلِمـوا بمقدمِ جيْشِ المدينةِ بقيادةِ رسـولِ اللهِ ﷺ ، ومنَ المحتَمـلِ أَنَّ الخبرَ الذي وَصَـلَ إلىٰ المدينةِ عَنْ تَجهيزِ هرقـلَ لجيْشٍ عظيمٍ غيرُ صحيحٍ ، وعنْدَها تـوقَّفَ المسلمونَ

ولَمْ يُتَابعـوا السَّيرَ ، ولَمْ يتجاوزْ رسولُ اللهِ مـدينةَ تبوكٍ ، وهُـوَ علىٰ عِلْمٍ ويقينٍ بأَنَّ قدومَهُ قَـدْ أَفْزعَ الرُّومَ دُنوُّهُ ، سواءٌ أكانـوا قدِ اسْتعدُّوا لهُ ، أَمْ لَـمْ يستعِدُّوا أَبداً . . ولكنْ أَلَمْ يحدُثْ قتالٌ أو معاركُ حربيَّةٌ بالسيُّوفِ؟ .

مُعاهَداتٌ مُتَفَرِّقَةٌ

لقـدْ بعثَ رسـولُ اللهِ ﷺ سرايـا مِـنَ الجيْشِ إلى العـربِ النَّصـارىٰ القـاطِنين حَوْلَ تبـوكٍ ، والتَّابعينَ لـدَوْلـةِ الرُّومِ ، فَصـالحهُ أَهْلُ قبـائِلِ (أَيْلَةَ) و (أَذْرُح) و (جَرْبَاء) و (مَقْنَـا) و (دوْمَةَ الجَنْـدَلِ) على أَنْ يُعْطـوا المسلمينَ مالاً لقـاءَ تعهُّـدِ المسلمينَ بحمايتهـم وأَمْنهم . وأَقَـامَ الرَّسـولُ في تبوكٍ عِشْرينَ ليلـةً علىٰ علْم الرُّومِ بـذلكَ ، فلو كـانَ الرُّومُ يَنْوونَ رُجُوعاً أَوْ قِتالاً لَفَعلوا في المـدَّةِ الطَّويلَةِ التي مَكثَها رسولُ اللهِ في تبوكٍ . . وأَيًّا كـانَ واقِعُ الأمْرِ ، فقدْ نجحَ الرَّسولُ في مُعاهداتـهِ معَ النَّصارىٰ دونَ قتـالٍ ، وخفَّفَ مِنْ تبعيَّـةِ العربِ للرُّومِ ، وأَضـافَ إليْهِ حلفاءَ آخرينَ ، فكـانَ هَذا نَصْراً لَهُ مِنَ اللهِ بلا سُيوف ، ولـذلكَ كانتِ الغزْوةُ جديرةً بأَنْ تُسَمىٰ : (غـزوةٌ بلا سيوفٍ) ، لأَنَّ القتالَ لَمْ يُسْتخدَمْ فيها ، وكلَّلها الصُّلحُ في نهايتِها ، ولَمْ تُرَقْ نقطةُ دمٍ واحدةٍ .

عَوْدَةٌ إلىٰ المدينةِ

واسْتَشارَ الرَّسولُ ﷺ بعدَ هَذا أَصحابَهُ في متابعةِ المسيرِ نَحْوَ الرُّومِ أَو التَّوقُّفِ والعودةِ ، فقالَ لَهُ عُمرُ بْنُ الخطَّاب : إنْ كُنْتَ أُمِرْتَ بالسَّيرِ

فَسِرْ ، فقالَ الرَّسولُ : لو كُنْتُ أُمِرْتُ بالسَّيرِ لَمْ أَسْتَشِرْ فيهِ ، فقالَ عُمرُ : يـا رسولَ اللهِ إنَّ للـرُّومِ جُموعـاً كثيرةً ، وليْسَ في الشَّـامِ أَحَـدٌ منْ أَهْـلِ الإِسْلامِ ، وقَدْ دنَوْتَ مِنْهم ، وقَدْ أَفْزَعهم دنوُّكَ ، فَلَوْ رجعْتَ هذِهِ السَّنةَ حتَّـى تَرى أَوْ يُحدث اللهُ أَمْراً ، فـوافَقَ الـرَّسـولُ علىٰ رأْيِ عمَرَ ، وأَمَـرَ الجَيْشَ بالعودةِ إلىٰ المدينةِ .

وعادَ الجَيْشُ ، وقد أَمَّنَ علىٰ حدودِ الـدَّولةِ مِنْ ناحيةِ الشمالِ . . بأَنْ خَلَّفَ قبائلَ النَّصارىٰ مِنَ العربِ التي وقَّعَتْ معاهداتِ حمايةٍ وأمانٍ ، وخـرجَ أَهْلُ المدينةِ مِنَ النِّسـاءِ والولائِدِ والصِّبـانِ ، لاسْتقبالِ النبيِّ وجَيْشِـه ، فرحينَ بعـودةِ المسلمينَ سـالمينَ يحملونَ نَصْراً سِلْميّـاً ، وأيّ نصرٍ ! لقد طلع البدرُ ثانيةً على أهلِ المدينةِ بعدَ طولِ غيابٍ . .

آياتٌ مِنَ السَّماءِ . .

ونزلتْ مِنَ السَّماءِ آياتٌ كريماتٌ تتحدَّثُ في صراحةٍ وعُنفٍ ، تفْضَحُ المنافقينَ الذينَ آثَروا التخلُّفَ والكسلَ دونَ مبررٍ صادِقٍ . . وإنَّها آياتٌ عُنْوانها : (لا تَـراجُعَ في الصُّعوباتِ) ، ومَغْـزاها : (بأَنَّ التَّثـاقـلَ أمامَ نداءِ الجهادِ غيرُ مقبولٍ ، وأنَّ نتيجتَهُ العذابُ الأليمُ في الآخرةِ . .) . . ولعلَّ أهمَّ آيةٍ توضِّحُ هَذا : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

إنَّها حملةٌ قـاسيةٌ علىٰ القلـوبِ التي قعَدتْ عَـنْ أداءِ الواجـبِ ، بَلْ وعَنْ أَداءِ أَقْدسِ واجـبٍ ، وهُوَ حِمايةُ العقيدةِ وأهلِها وديـارِهَا ، مَعَ أنَّ هـذِه الغزوَةَ لَمْ يحدُثْ فيهـا قتالٌ ، إلا أَنَّ الحمايـةَ ضروريَّـةٌ سواءٌ أكـانَ العدوُّ يحاربُنا بالنيَّةِ أَمْ بالعملِ .

دَرْسٌ مِنْ تَبُوكٍ

وأَخيراً : غزوةُ تبـوكٍ قَدْ أَعْطتنـا دُرْساً رائعـاً في المشقَّةِ التـي لاقاهـا المسلمونَ ، فالرِّحلَةُ الشَّاقَّةُ كانَتِ امْتحـاناً تميَّزَ فيهِ الكاذبُ المنافقُ مِنَ المؤمنِ الصَّادقِ ، وبقَدْرِ مـا كانَتِ الآياتُ تأْمرُ بـالابتعادِ عنِ النِّفاقِ ، كَانَتْ مِنْ وَجْهٍ آخَر تُثْني علىٰ المخلصِينَ الصَّادقِينَ ، الذِينَ بَذَلوا المالَ وأَعْطوا العـدَّةَ الكَافيةَ مـا اسْتطَاعـوا إلىٰ ذلكَ سَبيلاً ، ولَمْ يَتَسلَّلُـوا مِنْ وراءِ الصُّفوفِ ، ولَمْ تَتَضعْضَعْ عزائِمُهمْ .

ونسأَلُ اللهَ تعالىٰ أَنْ يَجْعلَنا مِنَ الثَّابتينَ الصَّامدينَ أَمامَ الصُّعوباتِ في الحياةِ وفي الدَّعوةِ إلىٰ اللهِ ، فليسَ هُنـاكَ أَجْملَ مِنْ تحمُّلِ المشاقِّ والصَّبرِ على الأمورِ القاسيةِ ، وَلا سيّما أَثْنـاءَ الجهادِ في سبيلِ الله . . وإنَّ الصبرَ لمنْ صفـاتِ المؤمنينَ ، يَتَـواصَـوْنَ بِهِ فيما بيْنَهـم ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ .

******

قصص

السيرة النبوية

٥٥

التوبة الصادقة

مُلَخَّصُ تَبُوكٍ

السَّلام عليكمْ أَيُّها الأحبَّةُ ، وأَهْلاً بكمْ في تتمَّةِ الحديثِ عمَّا جرىٰ في المدينةِ بعْدَ غزوةِ تبوكٍ ، وقَبْلَ ذلكَ ، تعالَوا أَسأَلكم عَنْ غزوةِ تبوكٍ التي قرأْتُمْ عنها في الحلقةِ السَّابقةِ : تحدَّثوا لي عَنِ الغزوةِ باخْتِصارٍ في عدَّةِ سُطورٍ ؟ وسَتقُولون حتماً : (كانَتْ غزوةً دونَ قتالٍ ، لَمْ تُستخدَمْ فيها السُّيوفُ والسِّهامُ والنِّبالُ ضمنَ معركةٍ طاحنةٍ . . ولقَدْ حدثَتْ في شهرِ رجبٍ مِنَ السَّنةِ التَّاسعةِ للهجرةِ ، واسْتمرَّتْ شهْرَيْنِ ، وكانَتْ في صَيْفٍ وقَيْظٍ وفقْرٍ شديدٍ) .

وكلُّ ما ذكرتُموهُ صحيحٌ ، وأَزيدُ على قولِكمْ : إنَّها قدْ أفادَتْ في تحقيقِ أمنِ الدّعوةِ شمالَ الجزيرةِ ، وجعلَتِ الرُّومَ في فزَعٍ وخوفٍ منَ الدّولةِ الإِسلاميّةِ ، وأَخيراً ، ستقُولُ الغزوةُ عنْ نفسِها : (لقدْ كُنْتُ درساً عظيماً للمسلمين في تمييزِ مَنْ كانَ كاذباً مُنافقاً عمّنْ أَخْلصَ إيمانَه للهِ وقْتَ العُسْرةِ) .

المخَلَّفُونَ وأَعْذارُهُم

ولقَدْ علِمَ المسلمونَ أَنَّ منْهم مَنْ تخلَّفَ عنِ الغَزوةِ لشدَّةِ فقرِهِ وضيقِ حالِهِ ، فقعَدَ في المدينةِ حَزيناً تفيضُ عيناهُ دَمْعاً لفواتِ فرصةِ

الجهادِ، ولكنَّ أكْثرَ مَنْ تخلَّفوا عَنِ الجهادِ كانُوا مُنافقينَ ومُعادينَ للدِّينِ، لا ينْقصُهم المالُ ولا الزّادُ، وعلى رأسِهم رَأسُ النِّفاق ابْنُ أُبَيّ، ولَقَدْ قرأْنا عَنْ هؤلاءِ آياتٍ نزلَتْ مِنَ السَّماءِ، وتندِّدُ بنفاقِهِمْ، وتحذِّرُ مِنْ غدْرِهم، ولَمْ يَسْمحْ لهُمُ القرآنُ باخْتلاقِ الأَعْذارِ، وسمَّاهم مِنَ المتخلِّفينَ عَن صفوفِ الجماعةِ غَدْراً وجُبْناً، وحَقَّرَهم، وهَوَّنَ مِنْ شأْنِهم، ووضَعَهم حَيْثُ وَضَعوا أنفسَهم مَعَ الخوالِفِ مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ والعَجزةِ والمرْضىٰ، وقَدْ جاؤُوا إلى رسولِ اللهِ يَعْتذرونَ، فَأَعرضَ عَنهُم الرّسولُ ﷺ، وَوكَلَ سَرائرَهُم إلىٰ اللهِ الذي يَعْلَمُ خائنةَ النُّفوسِ والأَعْينِ، وما تخفيه الصُّدورُ.

وبَيْنَهُمْ ثلاثةٌ

ولكنْ هَلْ كانَ هُناكَ مِنَ المتخلِّفينَ عَنِ الجهادِ غيرُ فتيَتي الفقراءِ، والمنافقينَ؟ نعم أَيُّها الأحبَّةُ الصِّغارُ.. هناكَ ثلاثةُ رِجالٍ مِنَ الصَّحابةِ الكرامِ، لَمْ يُعْرفْ عنهُم كسلٌ قبلَ هَذا، رَكنُوا إلى التّراخي، واسْتَناموا إلى الفُتُورِ كَسلاً ومَيْلاً إلىٰ الرَّاحةِ واسْتراحةً للظِّلالِ في حَرِّ الصَّيفِ، لَمْ يدفعْهم إلىٰ ذلكَ شكٌّ ولا ارتيابٌ، ولَمْ يدعْهُم إليه نفاقٌ ولا كُرهٌ بالإسلامِ، ولَمْ يختلقوا أعذاراً، ولَمْ يُزيِّفوا قولاً، وهَؤلاءِ هُمْ: (كَعْبُ بْنُ مالكٍ، وهلالُ بْنُ أميّةَ، ومرارةُ بْنُ الرّبيعِ). وفي الحديثِ عنهم

سنَعرف درْساً هامّاً في صورةِ الحساسيةِ الشّديدةِ المؤمنةِ، وصِلَتها بالصِّدقِ، وفرحِها عنْدَ النّجاةِ وتَوْبةِ اللهِ عليها، ودَرْساً آخر في صورةِ المجتمعِ المسلمِ في وعْيهِ وإدْراكهِ وإحْساسِهِ بذنْبِ المذْنبِ وتوْبةِ التّائبِ..

كَعْبٌ والرّاحَةُ

سوْفَ نَسْتمعُ قليلاً إلى واحدٍ منَ الثّلاثةِ، وهُوَ كَعْبٌ يحدِّثنا عن سَببِ تخلُّفهِ: (كانَ مِنْ خبري حينَ تخلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ في غزْوةِ تبوكٍ، أنّي لم أكُنْ قطُّ أقْوىٰ ولا أيْسرَ منّي حين تخلّفْتُ عنْهُ، وقدْ غزا رسولُ اللهِ في حَرٍّ شديدٍ، واستقْبلَ سَفراً بَعيداً، ومفاوزَ وعدُوّاً كثيراً، وأخْبرَ المسلمينَ بوجْهتِهِ التي يُريدُها، والمسلمونَ مَعَ رسولِ اللهِ كثيرٌ، لا يجْمعُهم حافِظٌ مِنْ كثْرةِ عددِهم، فمَنْ يتغيّبُ لَنْ يُعْرفَ، ما لَمْ ينزل بخبرهِ وحْيٌ مِنَ السَّماءِ، وكانَتِ الغزْوةُ حينَ طابتِ الثّمارُ والظِّلالُ، فأخذْتُ أغْدو، لأتجهَّزَ للجهادِ، فتَمادىٰ بي الأمرُ، وقلْتُ في نفْسي: أنا قادرٌ على ذلكَ مَتىٰ أردْتُ. وسارَ الجيْشُ، ولَمْ أتجهَّزْ، وما زلْتُ أهمُّ وأرجعُ، ويتَمادىٰ بي الكَسلُ. ولَمْ يتذكّرْني رسولُ اللهِ إلا في تبوكٍ، فقالَ: ما فعلَ كعْبُ بْنُ مالكٍ؟ فشهِدَ الصَّحابةُ بي خيْراً..).

صِدْقُ كَعْبٍ

ويتابع كعْبُ الحديثَ فيقولُ : (فلمّا بلغَني أنَّ رسولَ الله توجَّه عائداً مِنْ تبوكٍ حَضَرني الهمُّ ، وتذكَّرتُ الكذبَ ، واستعَنْتُ على ذلكَ بكُلِّ ذي رأيٍ من أهْلي ، ولكنْ عرفْتُ أنّي لَمْ أنْجُ منهُ أبداً بشيْءٍ فيه كذبٌ ، فأجْمعْتُ على الصِّدقِ . ووصَلَ الرَّسولُ إلى المسجدِ ، فصلّى ركْعتيْنِ ، فسلَّمْتُ عليه، فتبَسَّمَ تبسُّمَ المغضَبِ ، ثُمَّ قالَ : تعالَ ، فجلسْتُ بيْنَ يديْهِ ، فقالَ لي : ما خلَّفَكَ ؟ قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ، لقَدْ أُعطيتُ جَدَلاً (أيْ قدرةً على سَبْكِ الكلامِ الجميلِ والعُذْرِ الكاذبِ) ، ولكنّي واللهِ علمْتُ لئنْ حدثْتُكَ اليوْمَ حديثَ كذبٍ ليوشكَنَّ اللهُ أنْ يُسخِطَكَ عَليَّ، ولئنْ حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدقٍ تغضَبُ عليَّ فيهِ إنّي لأرجو فيهِ مغفرةَ اللهِ وعَفْوه ، لا واللهِ ما كانَ لي مِنْ عُذْرٍ ، واللهِ ما كنْتُ قطُّ أقْوى ولا أيْسرَ منّي حين تخلَّفتُ عنْكَ)

جوابُ الرَّسولِ

فماذا سيكونُ جوابُ الرَّسولِ ﷺ على صِدْقِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنْهُ ؟ لقد قالَ لَهُ : (أما هذا فقدْ صدقَ ، فقُمْ حتّى يقضيَ اللهُ فيكَ) . . إنّهُ جوابٌ معْقولٌ لمنْ أذنبَ ، واعْترفَ بذنبٍ ، ولَمْ يكذبْ ، فإذا انْتظرَ حتّى تنْزلَ آياتٌ بتوبتهِ ، فهذا أفْضل وأحْسَن ، وليْسَ للرَّسولِ أنْ يحكم

له الآنَ، فهذا أمْرٌ يَسْتوجبُ وضْعَ حلٍّ وقانونٍ منَ اللهِ ، وخَرجَ كعبٌ مِنَ المسجدِ حَزيناً لا يَدْري ماذا يَفْعلُ أمامَ آراءِ النّاسِ حوْلَهُ وحَوْلَ صِدقِهِ ؟ تدورُ بهِ الأرضُ مِنْ شِدَّةِ الذَّنبِ ، وتُوسوسُ لَهُ النَّفسُ أنْ يرجعَ ، فيكذِبَ، ويعْتذرَ ، فيَرْدَعه عنْ ذلكَ إيمانُهُ وثقَتُه بأنَّ اللهَ لَنْ يخيِّبَ ظنَّهُ ، وسيقْبَلُ اللهُ توبَتَهُ ولو طالَ الزّمنُ . .

إنَّ كعْبَ بْنَ مالكٍ قَدْ شَهِدَ غزْوةَ بدرٍ . . ومِنَ المنتظرِ أنْ يَتوبَ اللهُ عليهِ، لأنَّ للمجاهدينَ في غزْوةِ بدرٍ منزلةً ساميةً عنْدَ اللهِ .

انتظارُ الثّلاثةِ

وسَألَ كعبٌ في النّاسِ عَنْ أمْثالِهِ ، فقالَ : هَلْ لَقيَ ما لقيتُهُ أحدٌ ؟ فقالُوا: نَعمْ رَجلانِ قالا ما قُلْتَ لِرَسولِ اللهِ ، فقالَ لَهما الرَّسولُ مثْلَ ما قالَهُ لَكَ ، فقالَ كَعْبٌ : ومَنْ هُما ؟ قالُوا : مرارةُ بْنُ الرَّبيعِ وهلالُ بْنُ أميَّةَ ، فقالَ كعْبٌ في نَفْسه : إنّهما رجلانِ صالحانِ قَدْ شهِدا بَدْراً ، لي فيهما أسوةٌ ، والأصْلحُ أنْ لا أعُودَ ، فأكذبَ ، وتابع مسيرَهُ إلى دارِه ، ونفسُهُ تحثُّه بأنَّ التّوبةَ لا بُدَّ وسَتَنزلُ مِنَ اللهِ عليهِ وعلى صاحبَيْهِ . ثلاثَةٌ الآنَ يَنتظرونَ بفارغِ الصَّبرِ هذِهِ التّوبةَ ، فقَدْ أحسُّوا بشدَّةِ ذَنْبهم الذي اقْترفوه دُونَ سببٍ مقبولٍ . مَتى سَتنزلُ يا ربُّ آياتُكَ في حَسْمِ الأمرِ ؟ ومَتى سيحَدِّدُ قضاؤكَ مصيرَهم ؟ الأعداءُ مِنْ حولِ المدينةِ ووسطِها

فـرِحُـون ، يَتَتَبَّعونَ أخبـاراً مثْلَ هـذِهِ ، بَلْ ويتصيَّـدونَها ليَحيكـوا بها مُؤامراتِهم .

اسْتِغْلالُ الفُرْصَةِ

هَؤُلاء هُمُ الرُّومُ قَدْ أَظْهروا عَداوتَهم في هَذا الظَّرفِ الصَّعبِ ، وأَرادوا أَنْ يستغِلُّوا مـا حدثَ مِـنْ تخلُّفِ كعْـبٍ وصاحبَيْـهِ ، فَبَيْنَما كانَ كَعْبٌ سائراً في السُّـوقِ إذا بِهِ يَلْتقي بتاجِـرٍ منَ الأَنباطِ يَبْحثُ عَنْـهُ ، ويَحملُ إليْهِ كتَاباً مِن الغسـاسنةِ الموالِيْنَ للرُّومِ ، فقرأهُ كعْبٌ ، فإذا في الرّسالةِ : (أَمَّا بعدُ : فـإنَّهُ قَدْ بَلَغنا أَنَّ صاحبَـكَ ـ أي محمَّد ـ قـدْ جَفاكَ ، فالْحَقْ بنا ، نُواسِكَ) . . فَغضِبَ بعْد قراءَته ، وعرفَ أَنَّ البلاءَ قَدْ لحقَهُ إلىٰ هُنا ، فاسْتعاد قوَّةَ إيمانه ، على الرَّغْمِ ممَّا حَلَّ بِهِ مِنْ ضِيقٍ ، وعرفَ أَنَّ الكتابَ مصيدةٌ لَهُ ، فذهـبَ إلىٰ مَوْقِدِ نارٍ ، وأَحْرقَ فيهِ الرِّسـالةَ ، ورفضَ طلبَ الأعداءِ . . وعادَ الذي كـانَ يحمِلُ الرِّسالةَ خائِبـاً خاسِراً ، وقَدْ رَأَىٰ مِنْ صلابَةِ إيمانِ كعْبٍ وتشْـديدهِ علىٰ التَّوبةِ ما أذْهلَهُ ، فَسَمَـتْ نظرتُهُ عن المسلمينَ الصادقينَ .

المسْلِمونَ في صَمْتٍ

وجاءَ الأَمْرُ مِنْ رسولِ الله أَنْ يَنْتهيَ المسلمـونَ عَنِ الكلامِ مَعَ كعبٍ ومـرارة وهـلالٍ ، حتَّىٰ ينـزلَ فيهـمْ قضاءُ اللهِ مـنَ السَّماءِ ، وصَمَـتَ

المسلمونَ مَـع الثَّلاثةِ ، لا يُحاورونَهم ولا يُكَلِّمـونَهم ، فعاشَ الثَّـلاثَةُ في دائرةِ صمْتٍ مُغْلَقـةٍ منْ حَـوْلهم ، ودخلَ الصَّمـتُ بُيوتَهم ، فقَـدِ امتدَّ الأَمْرُ إلىٰ زوجاتِ الثَّـلاثةِ أَنْ يَعْتزلْنَ أَزْواجَهُـنَّ ، وصَعُبَ علىٰ كعبٍ أَنْ يَسْتأذنَ رسولَ اللهِ ﷺ لكَيْ تخدمَهُ الزَّوجَـةُ دُون كلامٍ ، وبقيَ يذوقُ مَعَ هلالٍ ومرارةَ . . . مرارَةَ الانعزالِ والصَّمْـتِ والحصارِ الاجتماعيِّ وضِيقِ الحياةِ ، وقَضوا حتَّىٰ الآنَ أَربعينَ ليلةً قاسيَةً في عُقوبتِها ، ويا ليْتَ الأَمر يَنْتهـي عنْـدَ قَسـاوةِ الليـالي الأَربعين ؟ . . رَفعـوا أَيْـديَهم إلىٰ السَّماءِ ، ليدْعوا الله ، فماذا سألوه ترىٰ ؟ .

الفَرَجُ يا ربّ

كـأن دموعَهُـم تُنـاشِدُ ربَّها فتقولُ : يا ربَّنـا ، لقـدْ وسِعَتْ رحمَتُـكَ السَّماواتِ والأرضَ ، إنَّـكَ أَنْتَ الرحيمُ الغفورُ ، ولا رحيمَ ولا غفـورَ غَيْرُكَ ، هبْ لنا مِنْ عفْوِكَ ما يُذهِبُ الضِّيقَ عنَّا ، لقَدِ اشتدَّ بنا البكاءُ ، وتَشْهدُ على ندمِنا الدُّموعُ التي بلَّلتْ وجُوهنا أَربعينَ ليلةً ، أَمَا مِنْ فرجٍ يا ربِّ ؟ أَلا تتُوبُ علَيْنا فنكونَ مِنَ السُّعداءِ الصَّالحينَ ؟ . إنَّا نُعاهدكُ يا ربَّنا أَنْ لَنْ نُعودَ لمثْلِ خطيئتِنا أَبـداً ، وسَنَعملُ جاهِدينَ علىٰ أَنْ تكونَ توبَتُنا صادقةً نصـوحاً ، فامْدُدْ لَنا يدَ العوْنِ والرَّحمَةِ ، وأَعِنّـا بتوبةٍ وآيةٍ علىٰ رسولِكَ ، تبشِّرُهُ فيهـا بتَوبَتِكَ علَيْنا ، لقَدْ ضـاقَتْ علينا الأَرْضُ بما رَحُبَتْ ، وضـاقَتْ علَيْنا أَنْفُسنا ، ولَمْ يَعُدْ لنا أَنيسٌ مِنْ حَوْلِنا ، حتَّىٰ

النَّبات والطَّيرُ ، لَمْ نَعُدْ نرى فيهما إلا الجفاءَ والصَّمتَ والسُّكونَ ، فإلى مَتىٰ يا ربّ ؟ إنَّكَ أعلمُ بحالِنا ، وغنيٌّ عَنْ سُؤَالِنا ودُعَائِنا ، وإنَّكَ عَلىٰ ما تَشَاءُ قديرٌ .

خَمْسُونَ لَيْلَةً

ولبِثُوا يا أحبَّتي عشرَ ليالٍ أُخرى ، يُنَاجونَ اللهَ كُلَّ يَومٍ علىٰ سَطحِ بُيوتِهِم ، وجُهُهُم إلى السَّماءِ ، وأيْديهم إلى الأعْلىٰ ، وألْسنتُهم تَلْهَجُ بالدُّعاءِ والذِّكرِ ، ودُموعُهم تَنهمرُ غزيرةً ، ويَحْملُ الهواءُ على أجْنحتِه صَدىٰ أقْوالهم ، فتَظْهرُ المدينةُ ، وكأنَّها تَجْهرُ بالدُّعاءِ الصَّامتِ لهم .

خمْسُونَ ليلةً مضَتْ ، واكْتملَتْ ، والنَّاسُ لا يُكلِّمونهم ، ولا يُجاورونَهم ، ويبدو أنَّ الفرجَ قَدْ آذنَ بالمجيءِ ، فالله أرْحَمُ وأوسعُ مغفرةً مِنْ كُلِّ رحيمٍ غفورٍ ، ومَهْما خابَ ظنُّ الإنسانِ مِنَ الإنسانِ ، فالمُسْلمُ لا يخيبُ ظنُّه وأملُهُ باللهِ .. وإنَّ رسولَ الله ﷺ والمسلمينَ مِنْ حَوله علىٰ أحرّ مِنَ الجمرِ لكيْ يَسْمعوا الكلمةَ الشَّافيةَ المطمئنةَ مِنَ اللهِ ، ويقْطَعوا حِبالَ العُزْلةِ والصَّمْتِ حولَ الثَّلاثةِ ، ونزلَتْ ملائكةُ الرَّحمةِ مِنَ السَّماءِ تحملُ البُشْرى إلىٰ رسولِ الله ليَحْملَها إلى المخلَّفينَ الثَّلاثةِ والمسْلمينَ فَجْراً . .

بَشائرُ التَّوبَةِ

وانْتهىٰ كَعْبٌ مِنْ صلاتِه علىٰ سَطْحِ بيْته ، وجَلَسَ يذْكُرُ اللهَ ، فسمِعَ صارِخاً يمْشي مُسْرِعاً ويَقولُ : يا كعْب بْنُ مالكٍ أبْشر ! . فخرَّ كعْبٌ

ساجِداً ، وعرفَ أنَّهُ قَدْ جاءَ الفرجُ ، ومَشَىٰ النَّاسُ يُبشِّرونَ هِلالاً ومرارةَ أيْضاً ، وتناقَلتِ الألسُنُ آياتِ الله التي نَزلَتْ ، وكأنَّ كَعْباً وصاحبيْهِ لَمْ يطمئِنُّوا للخبرِ الجميلِ ، بَلْ أحبُّوا أنْ يَسْمعوا البُشْرىٰ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ، ومَشوا في الطَّريقِ ، وكلُّه نُورٌ ، يشعُّ بالسُّرورِ والفرحِ وبشائرِ التَّوبةِ ، وكأنَّ المدينةَ في عُرسٍ ، وبَدا المسْجِدُ وكأنَّهُ وسطَ هالةٍ مِنَ الأهازيجِ ، وكادَ كعبٌ ومرارةُ وهلالٌ أنْ يَغيبوا عَنْ وَعْيهم لشدَّةِ ما دَخلَ عليهمْ مِنَ الفرحِ ، وما رأوْهُ مِنَ الغبطةِ علىٰ وُجوهِ النَّاسِ . . ومعَهم حقٌّ في ذلكَ ، فخَمْسُونَ ليلةً كامِلةً مضَتْ وكأنَّ الدَّقيقةَ فيها سَنةٌ كاملةٌ . . ووصلُوا أخيراً إلىٰ رسولِ اللهِ وسْطَ جمعِ المسلمينَ في المسْجدِ .

أَبْشِروا بِخيرٍ

وقامَ النَّاسُ يُصافِحونَهم ويهنِّئونَهم علىٰ توبةِ اللهِ عليهم ، وجَلَسوا أمامَ الرَّسولِ ﷺ فنظَرَ الرَّسولُ في وجوهِهم ، ووجْهُه يبْرقُ مِنَ السُّرورِ ، وقالَ لكعبٍ : أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليْكَ منْذُ ولدتْكَ أمُّكَ ، قالَ كعبٌ : أمِنْ عِنْدكَ يا رسولَ اللهِ ، أمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ قالَ : لا ؛ بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

وكانَ رسولُ اللهِ إذا فَرِحَ وسُرَّ اسْتَنارَ وجْهُه حتّىٰ كأنَّهُ قطعةٌ مِنْ قمرٍ .

وردَّدَ المسجدُ آيةَ التوبةِ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ . .

هذِه هـي قصَّةُ الثَّلاثـةِ ، كَما رَواها أَحَدُهم وهُـوَ كعْبُ بْنُ مـالكٍ ، وإنَّها لقصَّةٌ جديـرةٌ بالاهتمامِ والإعادةِ في القراءةِ حتّى تبرزَ فـوائدُها لنا أكْثر إنْ شاءَ اللهُ .

الدَّرسُ الْهامُّ

الفائدةُ الهامَّةُ يا أحبَّتي قدْ بدَتْ واضِحةً في جانبينِ :

١ - جانِبِ الفردِ المذنبِ التَّائبِ مِن الذَّنبِ .

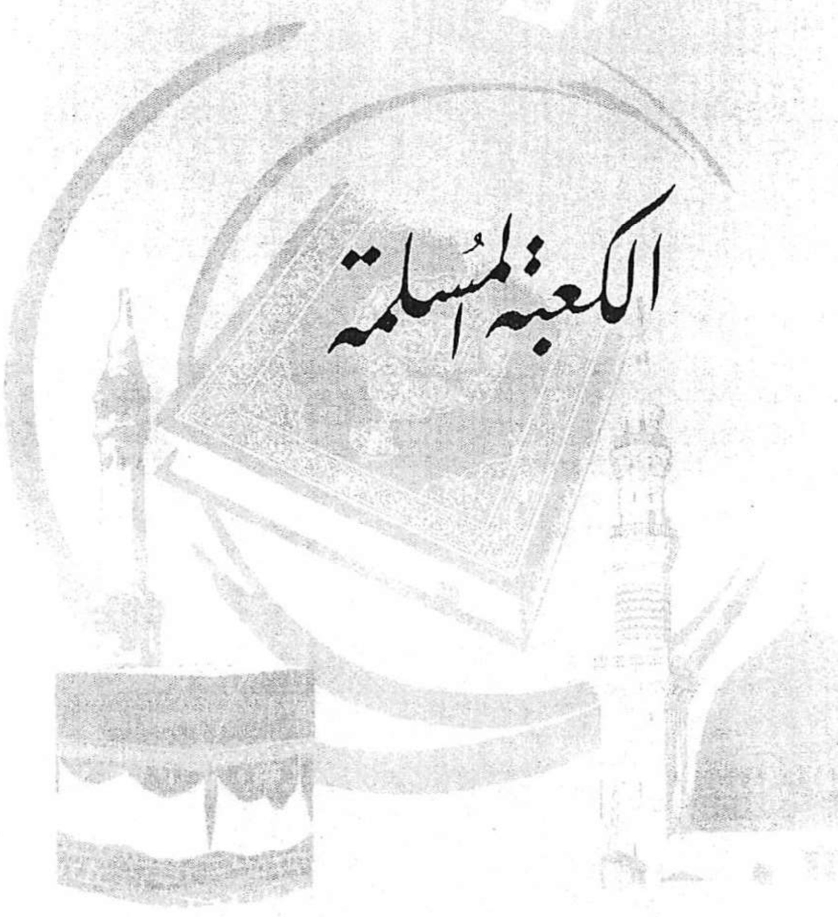
٢ - جانبِ الجماعةِ المتكافلةِ التي تحبُّ توبةَ الله علىٰ المذنبينَ التَّائبين.

وفي كِلا الجانبيْنِ شَعرنا بالإِحْساسِ القويِّ الذي كانَ يغْمرُ المسلِمين إذا مـا ظَهـر خطأٌ ، أو بـدَرَ ذنـبٌ مِـنْ أَحـدِهم ، ورَافقَتْنـا أرواحُهـم الحسَّـاسَـةُ التـي انْتَصروا بها على أَنْفسِهـم وعلىٰ الشَّيطـانِ ووسـاوسِـه الكافرةِ ، وعلىٰ نفاقِ المنافِقين ، وبمثْلِ هذِه الرُّوحِ أعزّوا كلمةَ الإِسْلام.

ومـا أَجْملنا إنْ كُنَّـا نحملُ بيْنَ جـوانِحِنـا نَفْسـاً شفَّـافَةً تحزنُ وتتألَّـمُ لأصْغَرِ هفْوةٍ ولأقَـلِّ ذنبٍ ، نذْكُر الله كُلَّما أَصَابَنا مسٌّ مِنَ الشَّيطانِ ، حتَّىٰ نُبْعـدَ الوسـواسَ عنَّا ، ولا نَذِلَّ لمعـاصِي ومفاسِـد تُغْضبُ اللهَ . . اللَّهمَّ اجْعَلنا مع الذينَ اتّقوا ، والذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . .

قِصَصُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٥٦



الكعبة المسلمة

حمايةُ الشَّعْبِ

هَلْ سمِعْتم بكعبةٍ مسلمةٍ ؟ إنَّ الكعبةَ التي تُوجدُ في بَيْتِ اللهِ الحرامِ بمكَّةَ هيَ كعْبَةٌ بناها المسلمونَ مِنْ قديمِ الزَّمانِ ، لكنَّ المشركين قامُوا بإبْعادِ صفَةِ الإسْلامِ عَنْها فوضَعُوا الأَصْنامَ والأَوْثانَ حَوْلَها ، وعنْدَما فتَحَ الرَّسُولُ وصحابَتُه مكَّةَ بسلامٍ ، أَرادوا أَنْ يُعيدوا إلىٰ الكعبةِ صِبغَةَ المسلمينَ والإسلامِ ، فَهُمْ أُمَّةٌ مسلمةٌ وعليهِمْ حمايةُ النّاسَ الذين دَخَلوا في الإسلامِ أَفْواجاً ، ولَنْ تكُونَ حمايةٌ للشَّعْبِ المسلمِ إذا أرادَ القَلائِلُ الباقُونَ مِنَ المشركينَ إرْجاعَ الكعبةِ لهُمْ ، وإنَّهُ لَمِنَ الحقِّ لأُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ أَنْ تَحميَ شَعْبَها مِنْ كُلِّ ما يُعارِضُ عَقيدتَها الإسلاميَّةَ ، وأَنْ تُطهِّرَ أَرْضَها مِنْ كُلِّ ما يَشُوبُ مَظْهرَ الإسْلامِ في أَرْضِ شَعْبٍ مسلمٍ ، وهَذا ما سنتحدَّثُ عنْهُ يا أحبَّتي بعْدَ أَنْ صارتِ الجزيرةُ مُلْكاً للمسلمينَ دَعوةً ودَولةً وشَعباً .

لا شِرْكَ مَعَ التَّوحِيدِ

إنَّ عقيدَةَ الإِسْلامِ هي الإيمانُ باللهِ وَحْدَه لا شَريكَ لَهُ ، أَمّا عقيدةُ المشركين فهيَ إشراكهم مع اللهِ آلهةً أُخرىٰ مِنْ أصنامٍ وأوثانٍ، والإِسْلامُ

إنَّما جاءَ ليُبْطلَ الشُّركاءَ للهِ ، ويزيحَ عقيدةَ الشركِ مِنَ النُّفوسِ . وإنْ سكَتَ المسلمونَ عَنْ أيِّ أَثرٍ يَبْقىٰ مِنْ آثارِ المزاحَمةِ الجاهليَّةِ لهُمْ في دَوْلةِ الإسلامِ فَهُمْ مقصِّرونَ حَتْماً ، ولقَدْ كانَ مِنْ عادةِ العربِ في الجاهليَّةِ أَنْ يحجّوا إلىٰ البَيْتِ الحرامِ ، ويَطُوفوا حَوْلَ الكعبةِ عُراةً لَيْسَ علىٰ أَجْسامِهم أَثْوابٌ تَسْترُهم ، يظنُّونَ أنَّ ذلكَ أَقْدسُ للكَعبةِ ! ! ولكنَّ هَذا المظْهرَ لا يَتَّفقُ معَ مَبْدأ سَتْرِ العَوْراتِ الذي جاءَ بِهِ الإسلامُ ولاسيّما في العبادةِ وأمامَ الناسِ وفي الطُّرقاتِ . فكيفَ يُسْمَحُ للنّاسِ في الحجِّ الذي هو عبادةٌ للهِ أَنْ يَسْتمرّوا في هذا ؟ أَوْ يَستمرَّ مَنْ بقيَ مِنَ المشركينَ يَطُوفون مَعَ المسلمينَ ؟ .

حَسْمُ المَوْقِفِ

ولمَّا أَقْبلَ موسمُ الحجِّ وفَدَ علىٰ مكَّةَ كثيرٌ مِنَ المُسْلمينَ الذين أَسْلموا في كافَّةِ أَنْحاءِ الجزيرةِ ، كما وفَدَ رجالٌ مازالُوا علىٰ شِرْكِهِم ، فَبدوا كَعناصرَ غريبةٍ أمامَ الكعبةِ التي لَمْ تَعُدْ تحبُّهم ، بَلْ لَمْ تكُنْ تحبُّهم أبداً ، ولا يَليقُ بها أَنْ يَظْهرَ أمامَها عراةٌ قليلونَ ، أمامَ الكَثْرةِ المتجمِّلةِ بالثِّيابِ والآدابِ .

إنَّ الكعبةَ سوفَ تَسمعُ نداءَيْنِ مختلفينِ متناقضَيْنِ كلَّ التَّناقُضِ ، فالمسلمونَ يقولونَ : (لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لَبَّيكَ ، لبَّيك لا شريكَ لكَ) ، أَمّا المشركونَ القلائلُ فينادُونَ : (لَبَّيك لا شريكَ لكَ إلاّ شَريكاً هُو لَكَ ،

تملِكُه وما مَلَك) ، يَقصدونَ بذلكَ أَصْنامَهم التي هَدَّمَها المسلمونَ في فَتْحِ مكَّةَ وما بعدَهُ ، ولا بدَّ مِنْ حَسْمِ الموقفِ حِفْظاً علىٰ عقيدةِ التوحيدِ، ولقَدْ حَسمَ الوحْيُ الأمرَ بسورةٍ اسْمُها سورَةُ بَراءَة ، فاسْمعوا:

آياتٌ مِنْ بَراءَة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾ ، ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا . . ﴾ .

صدقَ اللهُ الحكيمُ العليمُ . . وما أبْلَغَ كلامَهُ في حَسْمِ الموقفِ بهذِهِ الآياتِ وبسورةِ بَراءَة ، التي كانَتْ قانوناً كامِلاً في التَّعامُلِ مَعَ غيرِ المسلمينَ . . .

قَاعِدَةٌ هامَّةٌ

لقَدْ تَركَ القرآنُ للفئةِ القليلةِ المشركةِ أربعةَ أشْهُرٍ حتَّىٰ يَتدبَّروا أمْرَهم، فإنْ تابوا ، وأقاموا الصَّلاة ، وآتَوُا الزَّكاة ، فَهُمْ إخْوانُ المسلمينَ، وإنْ أصرُّوا على الشِّرْكِ وتَقاليده وهُمْ في أرضٍ أَصْبَحَتْ مسلمةً ، فهذا يَعني أنَّهم يَرْغبونَ في الفَوْضىٰ حَوْلَ الكَعْبةِ ، وقَدْ وضَّحَ اللهُ لهمُ القاعدةَ الهامَّةَ في الآياتِ بأنَّ الذي يريدُ أنْ يَعْمرَ مساجدَ اللهِ عليهِ أنْ يَعْمرَ هذِهِ المساجِدَ بالإيمانِ والصَّلاةِ والعبادَةِ للهِ لا بغيرِ ذلكَ ، وهَذا لا يَفعلُهُ مشركٌ يحملُ عقيدةَ الكُفْرِ . ومِنَ العامِ القادمِ لَنْ يَسْمحَ المسلمونَ للمُشْركينَ بأنْ يَقْربوا المسجِدَ الحرامَ ، أوْ يَطُوفوا حَوْلَ الكَعبةِ ، وبهَذا تتحدَّدُ العلاقَةُ ، ويا لدقَّةِ المطلوبِ، وسهولةِ فَهْمِهِ مَعَ دقَّتِه . لا مجالَ للتَّلاعبِ فيهِ أوْ التَّراجُعِ عَنْهُ ، ومِنْ هَذا يا أحبَّتي نَسْتنتجُ أنَّ علينا إعمارَ البيوتِ الرَّبَّانيَّةِ والمساجِدِ عَنْ طريقِ المالِ الحلالِ والعملِ الصّالحِ . .

يَوْمُ الحجِّ الأَكْبَرِ

ورسولُ اللهِ ﷺ قَدْ نزلَتْ عليهِ وهُو في المدينةِ ، وكانَ قَدْ أرْسلَ أميراً للحجِّ بَدلاً عنْهُ هَذا العامَ ، والأميرُ هُو أبو بكرٍ ، وأبو بكرٍ الآنَ في الطَّريقِ إلى مكَّةَ ، فمَن سيبلِّغُه الآياتِ ليَقْرأَها علىٰ الحجّاجِ وعَلىٰ النَّاسِ الموجودين في موسمِ الحجِّ ؟ .

لقدْ كانَ صاحِبَ مهمّةِ التّبليغِ (عَليُّ بْنُ أَبي طالِبٍ) حيثُ قالَ لَهُ الرّسولُ ﷺ : (اذْهبْ بهذه القصّةِ مِنْ سورةِ بَراءَة ، وأَذِّنْ في النّاسِ يومَ النَّحْرِ إذا اجْتَمعوا بمِنىٰ ، أَنَّهُ لا يدْخُلُ الجنّةَ كافرٌ ، ولا يحجُّ بعْدَ العامِ مشْرِكٌ ، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ ، ومَنْ كانَ لَهُ عهْدٌ عِنْدَ رسولِ اللهِ فَهُو – أي العهد – إلى مُدَّتِه . .) ، ووصَلَ عليُّ بْنُ أبي طالِبٍ ، وأَدْركَ أبا بكرٍ قبْلَ دُخولِه مكّةَ ، وقُرِئتِ الرّسالَةُ علىٰ النّاسِ يومَ النّحرِ في (مِنىٰ) ، ففهِمَ المسلمونَ وغيرُهم ما أرادَهُ اللهُ ، وما أرادَهُ رسولُ اللهِ ﷺ .

أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ

لَمْ يَقْرأْها القارِئُ في يومٍ عاديٍّ بَلْ في يومِ النّحرِ ، وهُوَ يومٌ يَجْتمعُ فيهِ النّاسُ الحجّاجُ في مكانٍ واحِدٍ ، أيْ : إنّهُ يومٌ جامِعٌ حافِلٌ ، فجاءَ الإعلانُ علىٰ رُؤوسِ الأَشْهادِ ، لكَيْ لا يقولَ المشركونَ : (إنَّ المسلمينَ غَدروا بنا ، ولَمْ يُنْذِرونا) . أجَلْ يا أحبّتي ، لقدْ فعلَ الرّسولُ ﷺ هذا حتّىٰ يَفيَ البلاغَ حقَّهُ ، ويعرفَ المشركونَ الغايَةَ والمدّةَ والمهْلَةَ أمامَ الجميعِ ، وأَرْبعةُ أَشْهرٍ كافيةٌ لكلِّ مَنْ لَمْ يكنْ لَهُ عَهْدٌ محدَّدٌ معَ الدَّولةِ ، وكافيةٌ تماماً لتَصْفيةِ الأمورِ والعُهودِ والدُّيونِ والصِّلاتِ ، وهيَ مدّةٌ فيها العَدْلُ واضِحٌ يَراهُ الأعْداءُ . هَذا عَنِ المشركينَ داخلَ الجزيرةِ العربيّةِ لأنَّ الجزيرةَ قدْ أَصْبحَتْ أرْضَ إسلامٍ ، أمّا المشركونَ خارجَ الجزيرةِ العربيّةِ فعليهم أنْ لا يَعْتدوا على مُسْلمٍ ، ولا يُقاتِلوهُ ، ولا يُؤْذوا

مَنْ أَسْلَمَ في أَراضيهم ، وإنْ حدَثَ شيْءٌ مِنَ الأذىٰ ضدَّهُ فالإسلامُ ينصرُهُ .

إعْلاءُ الحقِّ

هَلْ فَهِمتم يا أحبَّتي لماذا كانَ الأذىٰ ضِدَّ المسلمينَ حولَ الجزيرةِ أمْراً لا يجوزُ السُّكوتُ عنْهُ ؟ أُجيبكم باختصارٍ : إنَّ مَنْ يَعْتدي علىٰ المسلمِ خارجَ حدودِ الدّولةِ الإسلاميّةِ أَوْ يزاحِمُهُ في أماكنِ عبادتِهِ ، فَهُوَ إنّما لا يكرمُ الدّولةَ التي يعيشُ فيها المسلمونَ ، ولا يحترمُ عقيدتَها ، ولو كانَ يحملُ شيئاً مِنَ الكرامةِ وحُسْنِ الجوارِ لما فَعَلَ هذا بمنْ أرادَ أنْ يختارَ الإسلامَ عقيدةً لنفْسِه . وإنْ دافَعَ المسلمونَ عنْ أنْفسِهم ، وعَنْ كُلِّ مسلمٍ يصيبُهُ الأذىٰ في غيرِ دولتِهم ، فإنّهم بذلكَ يحمونَ العقيدةَ الإسلاميّةَ ، وإنّما يُؤدُّونَ واجبَهم وفريضَةً عليهم هيَ فريضَةُ إعلاءِ الحقِّ وكلمتِه ، وهَذا واجبٌ علىٰ الدّولةِ المسلمةِ ، فهيَ بوجودِها تَسْتطيعُ ذلكَ ، أمّا إذا كانتِ الدّولةُ مفقودةً ، فالمسلمُ الفرد غيرُ مُلْزمٍ بالجهادِ بالسّيفِ ، وهَذا ما التزمَ بهِ الرّسولُ والمسلمونَ في مكّةَ . .

أهلُ الكِتابِ

وقدْ تسْألونني : وماذا سيَفعلُ المسلمونَ بالنَّصارىٰ واليهودِ بعْدَ هذا العامِ ؟ وهلْ لهم قوانينُ أيضاً ؟ والجوابُ يقولُ : المشركُ لا يحقُّ لهُ خلْقُ الفوضىٰ والنِّزاعاتِ التي تنتجُ مِنْ بقائهِ في ديارِ الإسلامِ ، أمّا النّصرانيُّ

واليهوديُّ فكِلاهما مِنْ أَهْلِ الدِّياناتِ السَّماويةِ ، ومِنْ أَهْلِ الكتابِ (التَّوراة والإنجيل) ، وليْسَ هُناكَ مِنْ حَرَجٍ أَنْ يُسَاكنونا في أَرْضِنا ودولتِنا على أَنْ يَكونَ الأَمْر بَيْنَهم وبَيْنَنا قائِماً على السِّلْمِ والأَمن ورعايةِ حقِّ الجوارِ، وهَذا لأَنَّهم على الأَقلِّ يُؤْمنونَ باليومِ الآخرِ مَعَ إيمانهمْ باللهِ، فَعليهم إنْ أَرادوا البقَاءَ في أَرْضِنا أَنْ لا يعْتدوا على مُسْلم ، وأَنْ لا يخُونوا أَمانَةً ولا عَهداً ، وهُمْ لا يحُجُّون إلى الكعْبةِ ، ولا نَراهم يعْبدونَ اللهَ في البيتِ الحرامِ ، ولا حاجةَ لوجودِهم في مَكَّةَ المكرمةِ والمدينةِ المنوَّرةِ ، وهَذا ممَّا يخَفِّفُ نِيَّةَ العُدْوانِ لَديْهم إنْ وُجِدَتْ .

متىٰ نُقاتِلُهُمْ ؟

وإنَّنا لا نَسْمحُ لأَنْفُسِنا بِقِتالِهِمْ إلا عنْدَما نَشُمُّ مِنْهُم رِيحَ غَدْرٍ سواءٌ أَكانوا ضِمنَ أَراضينا ، أَمْ خارِجَها ، ويجوزُ لَنا وقْتَها أَنْ نُؤدِّبَهم ، ونقاتلَهم حَتَّىٰ يَنْتَهوا عَنْ عُدْوانِهم ، فإذا ما انْتَهىٰ سَبَبُ القِتالِ وزالَ ، أَجْبرناهُم على شُروطٍ جديدةٍ لِبَقاءِ السَّلامِ وهي :

١ - أَنْ يَدْفعوا لَنا الجزْيَةَ علىٰ حَسبِ اسْتِطاعتِهم . (أي مَنْ يَسْتطيع منْهم) .

٢ - أَنْ يَبْقوا مَكْسُوري الشَّوكةِ ذَليلينَ .

وهَذانِ الشَّرطانِ يُسهِّلان لَنا الدَّعوة أَكْثَرَ ولا سيَّما في أَراضيهم ودَوْلتِهم، وإنَّنا نجدُ هذيْنِ الشَّرطين في نهايةِ آيةٍ منْ سُورةِ براءَة يقولُ

اللهُ فيها : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ما مَعْنىٰ الجِزْيَةِ ؟

وقَدْ تَقُولون : لَمْ نَفْهَمْ مَعْنىٰ آخِرِ الآيَةِ : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ ! ؟ إنَّ المرادَ يا أَحبَّتي أَنْ نأْمَنَ عَداوَتَهم بهذَيْنِ الشَّرْطينِ : أَنْ يَدْفعوا لَنا مالاً (على شَكْلِ ضريبةٍ ماليةٍ تُسَمَّى الجزْيَة)، تُفْرَضُ على الأَشْخاصِ ، ويَدْفعُونها عنْ قُدْرة ، فَمَنْ لا يملكُ لا يَدفع، والشَّرطُ الثَّاني أَنْ يَصْغُروا ، (والصَّغار : هُوَ الخُضوعُ لِسيادتِنا وحُكمنا)، فإنْ صَغُروا لَمْ يَرْفعوا أيديهم مرَّةً ثانيةً بالاعْتداءِ . ودَفْعُهم الجزْيَةَ يوجبُ عليْنَا أَنْ نؤمِّنَ لهمُ الحمايَةَ ، ونُدافعَ عَنْهم ونعامِلَهم بالعَدْلِ والمساواةِ دونَ أَنْ نَظْلمَهُمْ ، ودَفْعهم الجزْيَةَ أيضاً يُسهِّلُ لَهُم الخضوعَ لَنا ، وبالتَّالي يتيسَّرُ أَمامَهُم السَّبيلُ للهدايةِ ، لأَنَّهمْ سيَعرفون دينَنا بأَعْمالِنا واضِحاً ، وإنْ أَسْلموا أُعْفُوا مِنَ الجزْيةِ والصَّغارِ ، وإنْ لَمْ يُسلموا بقوا مسالمين .

قانونٌ كاملٌ

هكذا حدَّدَ الإِسلامُ موقفَهُ مِنَ المشركين ، ومِنْ أَهْلِ الكتابِ الذين يعيشونَ في أَرْضِهِ ، أَوْ يُلاصقونَها ، وليْسَ في هَذا القانونِ أَيُّ نَقْصٍ ، أَوْ

أَيُّ ظلمٍ وتعسُّفٍ ، فَنحنُ لا نَعْتدي إلاّ إذا اعْتَدىٰ أحدٌ عَلَينا ، ولا نجاهدُ في سبيلِ الله ونقاتِلُ إلاّ إذا كانَ هُناكَ سببٌ للجهادِ ، والسَّببُ الوحيدُ هوَ : (رَفْعُ الظُّلْمِ مِنَ الأَرضِ) ، حتَّى يعيشَ النَّاسُ في وحدةٍ تامةٍ ، تحتَ رِعايةِ القانونِ الرَّبانيِّ العادِلِ والكاملِ . وإنَّ هَذا القانونَ هُوَ أَيضاً نوعٌ مِنْ أَنْواعِ الاحتياطِ الواجبِ اتّخاذُهُ ، وإنّ التزامَ الدَّوْلةِ بِهِ إنَّما هُوَ للدِّفاعِ عَنْ أَرضِها وعقيدتِها . (وقَدْ رَأَينا أمثلةً علىٰ الجِزيةِ في معركةٍ سابقةٍ اسْمُها غزوةُ تَبوك حيْثُ كانَ في نهايَتِها صُلْحٌ ومعاهداتٌ مَعَ نصارىٰ العربِ علىٰ دفعِ الجزيةِ الموجبةِ لحمايتِهم مِنْ قِبَلِ المسلمينَ . .) .

لا إكْراهَ في الدِّينِ

وأَراكُمْ تتذكَّرون الآنَ الآيةَ التي مرَّتْ معَنا في حلقةٍ سابقةٍ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، ومِنْها قَدْ فَهِمْنا أَنَّ عَلَينا واجباً هاماً هُو عدَمُ إجبارِ أحدٍ مِنَ النّاسِ على اتّباعِ دينِ الإسلامِ ، وهَذا ما فعلَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وما طَلَبَهُ القرآنُ في القانونِ العادلِ معَ المشركينَ وأَهْلِ الكتابِ ، وهَذا هُو قانُوننا حتَّى النِّهايةِ . . وليْسَ مِنَ الجميلِ أَنْ يعبدَ الإنسانُ شَيْئاً أَوْ إلهاً بالقوَّةِ والجَبْرِ . ومِنَ المُضْحِكِ أَنَّ القوَّةَ إذا ما زالَتْ وانْتهتْ ترَكَ الإنسانُ عبادَةَ ما أُجبرَ عليهِ مِنْ قَبْلُ وقْتَ القُوَّةِ . والسَّلامُ لا يعيشُ بالجبْرِ ، وحمايَةُ العقيدةِ لا تتنافىٰ مَعَ عدمِ الإكْراهِ في الدِّينِ إذا احْتاطَ

المسلمُ بالقوَّةِ ليَحْميَ السَّلامَ . فإعدادُ القوَّةِ فَرْضٌ . . ونَشْرُ الدَّعوةِ فرضٌ . . وعدمُ الإكْراهِ علىٰ الإسلامِ فرضٌ . . ولا تعارُضَ في هذا كُلِّهِ ، ولَنْ تَسْتَخْدِمَ الدَّوْلَةُ القوَّةَ إلا إذا ظَلَمَ الآخرونَ ، وهُدِّدَ السَّلامُ .

الكَعْبَةُ المُسْلِمَةُ

ونعودُ إلىٰ الكعبةِ التي بقِيَتْ مُسْلِمَةً مِنَ السَّنةِ العاشرةِ وقْتَ نُزولِ سُورةِ براءَة ، لا يَشُوبُها مشركٌ عريانٌ ، ولا يهينُ كَرامتَها نداءُ كافرٍ لأصنامِه ، بَلْ ولا صَنَمَ حَوْلها ، ولا عابِدَ صنمٍ يَدْخُلها ، وإلىٰ الآنَ تَنْتَصِبُ شامخةً رمْزاً للتَّوحيدِ الذي رفَعَ إبراهيمُ قواعدَها مِنْ أَجْلِهِ وإسماعيلُ .

ونحنُ اليومَ نتوجَّهُ إليها في صَلاتِنا ، لأنَّها كعبةٌ مسلمةٌ ، تُحِبُّ المسلمينَ الصِّغارَ ، وهِي لا تَقْبَلُ إلاّ الذينَ يُصَلُّونَ ؟ هَلْ أَنْتمْ منْهم؟.. وهَلْ تصلُّون جماعةً في المسْجدِ دونَ تأخُّرٍ ، ولا تَنْسَوْنَ فرْضاً مِنَ الفرائِضِ الخمسِ للصَّلاةِ ؟ وجوابُكُم : كلّنا نصلّي . . وسيكون طريقُنا دَوماً تَحْتَ شعارٍ عمليٍّ واحدٍ يقولُ : سَتَبْقى الكعْبَةُ المسلمةُ قِبلَةً لنا . . لأَنَّ اللهَ هُوَ ربُّنا ، ومحمَّدٌ ﷺ رسولُنا ، والإسلامُ دينُنا ، والقرآنُ شَريعتُنا . . اللّهمَّ اجْمَعْنا معاً في الطَّوافِ حَوْلَها والتَّلبيةِ لكَ أمامَها .

رددوا معي مِن شِعر محمد إقبال :

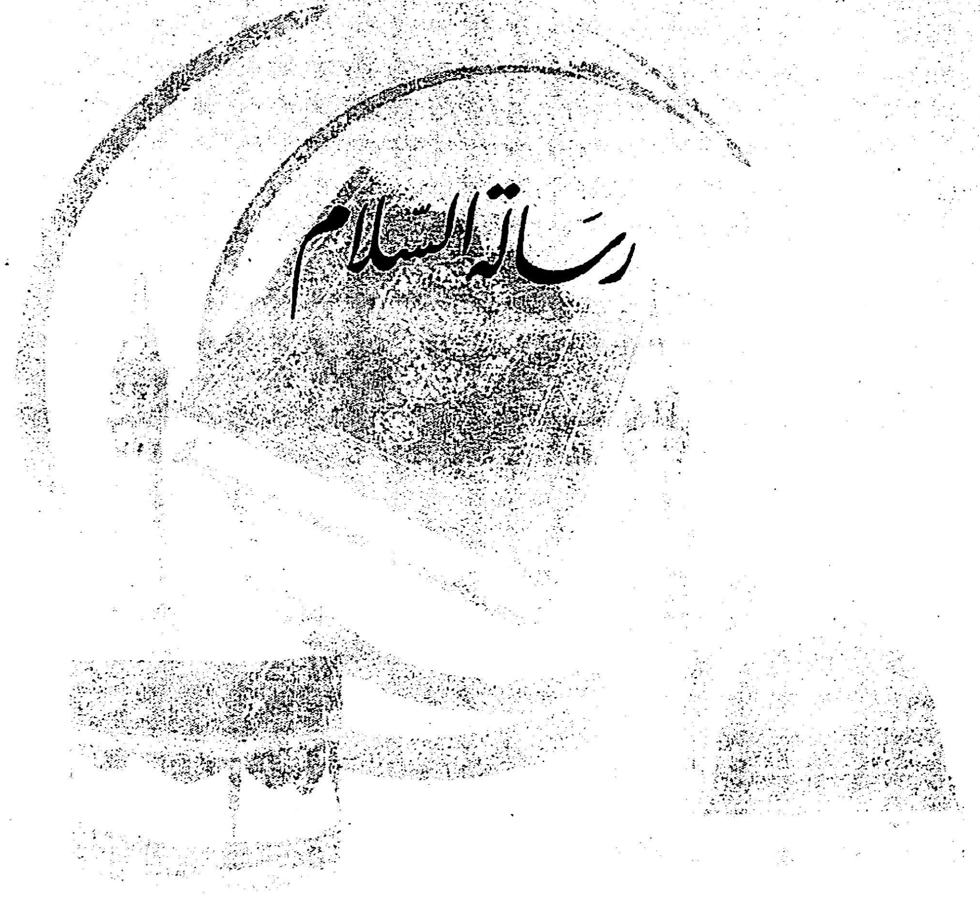
يا أَرضَ النورِ من الحرمين ويا ميلادَ شريعتِنا .
بُنِيَتْ في الأرضِ مساجِدُنا والبيتُ الأوّلُ كَعبتُنا .

قصص

السيرة النبوية

٥٧

رسالة السلام



بُشْرىٰ الإيمانِ

أزفُّ إليكمْ هذهِ البُشْرىٰ التي ستُعْجِبُكُمْ في أوَّلِ حلقَتِنا اليومَ : (إنَّ الآياتِ التي نزلَتْ مِنْ سورةِ بَراءَة في الحلقةِ الماضيةِ قدْ أثمرَتْ نتائجَها سَريعاً ، وبشكْلٍ جميلٍ ، فالذينَ خاطبَتْهم الآياتُ مِنَ المشركينَ قَدْ فَهموا ما أرادَ اللهُ منْهم ، وأحسُّوا بضرورةِ إسْلامِهم و إيمانِهم ، فلَيْسَ مِنَ المعْقولِ أَنْ يَبْقوا علىٰ الضَّلالِ بعدَ أَنْ آمنَ أكْثرُ مَنْ في الجزيرةِ برسالةِ محمَّدٍ ﷺ إثْرَ اسْتِخْدامِهم لعُقُولِهم ، وها هُمْ أُولاءِ أهْلُ الكتابِ مِنْ نَصارىٰ العَرَبِ يحسُّونَ أنَّ الخيرَ في ما طلبَهُ اللهُ منْهم ، فأَقْبلتِ الوفودُ عديدةً تُعْلِنُ خُضوعَها للإِسْلامِ ، إمَّا بالإيمانِ ، وإمَّا بالبقاءِ علىٰ دِينِها مَعَ دفْعِ الجزْيةِ كامِلَةً للمُسْلمين ، في أَرْضِ المُسْلمينَ) . .

والحمدُ للهِ ، علىٰ هِدايةِ مَنْ خضَعَ للإسْلامِ دُونَ إجبارٍ ، وآمَنَ باللهِ ورسولِهِ ودخَلَ في الدِّين الحنيفِ . .

إكْرامُ الوُفودِ

وأَنْتُم تحبُّون أَنْ يُسْلمَ كُلُّ البشَرِ ، ويُصْبحوا في دِينِكم مُؤْمنينَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وكذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ ، قَدْ فرحَ كثيراً ، واسْتَقبلَ الوفودَ التي أتَتْ إلىٰ المدينةِ مُغْتبطاً بقُدومِها ، ثُمَّ أخذَ يُضيفُها ويكْرمُها ، ويُنْزِلها على الرَّحْبِ والسّعةِ في دُورِ الضِّيافةِ با لمدينةِ ، وكلُّ وفدٍ يأْتيهِ

يرىٰ أفرادُه مِنْ أَخْلاقِ المسلمينَ ما يُعجبهم ويُحبّبهم في الدُّخولِ بدينِ الإِسْلام ، فإنْ أَسلموا بايَعهمُ الرَّسولُ على الإِسْلام ، وأَمَّرَ عليهم واحِداً منْهم ، أَوْ أَبْقىٰ أميرَهم السابقَ ، حتّى إذا أرادوا الذَّهابَ وَدَّعهم وبعث معهم صحابيّاً يعلِّمهمُ الدِّيـنَ . . وكلُّ هٰذا يتمُّ في لطْفٍ ، وزيادَةً علىٰ ذلكَ كانَ يُعطيهـم الهَدايا والجوائزَ عند الرَّحيـلِ ، وإنَّها لأَخْلاقٌ حلوةٌ وجميلةٌ لا تصْـدر إلاّ عَنْ نبـيٍّ مرسَـلٍ يتَّصِفُ بصفـاتِ الكمالِ والطُّهرِ والغنىٰ النفْسيِّ .

لا تسامُحَ في الصَّلاة

إلا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمْ يكنْ يَتَسامـحُ أَبداً في أَنْ يتركَ للمسلمينَ مِنَ الوفـودِ حرّيةَ أداءِ الفرائضِ ، ولا سيّما فريضةَ الصّلاة . فقدْ أرادَ وفْدُ ثقيفٍ لَوْ يعفيهمُ الرَّسولُ مِنْ أداءِ الصَّلاةِ ، فأبىٰ عليهمْ ذلكَ كلَّ الإِبـاءِ، وقالَ لهمْ : (لا خَيْرَ في ديـنٍ لا صلاةَ فيـه) ، وبيَّنَ لهمْ أنَّ بيْنَ الرَّجلِ والكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ ، فَمَنْ تركَ الصَّلاةَ فقدْ كفَرَ ، وأَنَّ الصَّلاةَ عمادُ الدِّين ، مَنْ أَقامَها فقدْ أقامَ الدّينَ ، ومَنْ تَركها فقدْ هدمَ الدِّينَ . . ونحنُ سـوْفَ نصَلّي دونَ إهمالٍ ، فلا خَير فينـا إنْ تركْنـا الصَّلاةَ ، ولَـنْ نتركَها أبداً إنْ شاءَ اللهُ ، ولَـوْ سألْتكم : كَـمْ تُصلُّونَ في اليـوم ؟ لكانَ جـوابُكم : نُصَلّي خمْسَ مـراتٍ عنْـد الفجـرِ والظُّهرِ والعصرِ والمغـربِ والعشـاءِ ، ولـو سـألْتُكـم : هَلْ تُصلُّـونها في المسجـدِ مـعَ الجماعـةِ ؟

فستقولونَ : إنَّنا نعمل جهدَنا أَنْ نكونَ كذلكَ دَوْماً إنْ شاءَ اللهُ .

مُسَيْلمَةُ الكَذَّابُ

وقَدْ حَدثَ أمرٌ مضْحِكٌ أثناءَ استقبالِ الوفودِ ، لكنَّهُ خطيرٌ ، فعندما جاءَ وفْدُ بَني حَنيفَةَ مِنْ بيْنَ الوفودِ ومعهم زعيمُهمُ (مسَيلمَةُ) ، يدَّعي أَنَّهُ لَنْ يُؤْمنَ بمحمَّدٍ إلاّ إذا أشركَهُ في الزّعامةِ والمُلْكِ ، وجعَلَهُ خليفةً لَهُ مِنْ بعدِه علىٰ المسلمينَ ، فرفَضَ الرَّسُولُ ﷺ طلبَهُ ، وعادَ مُسَيْلمَةُ خائباً إلىٰ بـلادِه ، وأرسلَ مِـنْ هُناكَ رسـالةً إلىٰ الـرَّسولِ ، جـاءَ فيها : (مِـنْ مُسَيْلمَةَ رسولِ اللهِ إلىٰ محمَّـدٍ رسولِ اللهِ ؛ سلامٌ عليكَ ، أمّـا بعدُ : فإنّي أُشْرِكْتُ في الأمْرِ معكَ ، وإنَّ لنا نصفَ الأرضِ ، ولقريْشٍ نصْفُها . .) فكتبَ إليهِ الرَّسولُ جواباً رائعاً قالَ فيهِ :

(مِنْ محمَّـدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ مُسَيلمَةَ الكـذّابِ : السَّلامُ علىٰ مَـنِ اتَّبعَ الهُدىٰ ، أمَّا بعْدُ : فإنَّ الأرْضَ للهِ ، يورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، والعاقبةُ للمتَّقين). صدقَ رسولُ اللهِ ، وكذَبَ مسيلِمَةُ . .

سَنَةٌ كامِلةٌ

وظلَّتِ الوفـودُ طوالَ السَّنةِ العاشرةِ تَفِـدُ تِباعاً إلىٰ المدينةِ مِـنْ أنْحاءِ الجزيـرةِ ، فتعلنُ رِضـاها عَـنِ الـدَّولة وعَقيـدتِها ، وانقضتِ السَّنـةُ ، وسُمِّيَتْ : (سنَـةَ الوفودِ) ، ومضَـتْ أيامُهـا هادئةً ، لا يعكِّرُ صفـوُها

قتالٌ أوْ فَوضىٰ أو عدوانٌ إلا ما كانَ مِنْ قبيلةٍ باليمنِ ظنَّتْ أنَّها تستطيعُ الوقوفَ وحْدَها ضِدَّ الدَّعوةِ ، فأرسلَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ أصحابهِ مَنْ أخضعَها .

ويَبْدو أنَّ الشجرةَ الإسلاميَّةَ والحمدُ للهِ قَدْ أثمرَتْ بفضْلِ جهودِ رسولِ اللهِ والصَّحابةِ مِنْ حَوْلِهِ ، ولذلكَ سَنعيشُ فيما بقيَ مِنْ هذهِ الحلقةِ حياةَ مودِّعينَ لسَيِّدِ البشرِ ورسولِ الرحمةِ ﷺ ، وسَنعرفُ مِنْ فَمِهِ آخرَ السُّورِ والآياتِ التي نزلتْ عليهِ مِنَ القرآنِ الكريمِ . . سأبْدأُ بعرضِ سورةٍ قصيرةٍ وكريمةٍ اسمُها سُورةُ النَّصْرِ ، لعلَّكم تحفظونَها ، وهيَ تلخِّصُ لَنا السَّنةَ العاشرةَ بكلماتٍ جميلةٍ .

سُورةُ النَّصْرِ

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ـ بسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرَّحيمِ .

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا (٣) ﴾ .

إنَّ السَّنةَ العاشرةَ حقّاً قدْ جاءتْ بعْدَ فتْحِ مكّةَ ، وتَبِعَها دُخُولُ الوفودِ في دينِ اللهِ بكثْرةٍ ، فسُبْحانَ اللهِ علىٰ هذهِ النِّعمِ الكثيرةِ ، إنّنا نَحْمدُهُ ، ونسبِّحُ بحمدهِ كما فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ ، ونستغفرُهُ كما استغفرَهُ ، ونسألُ اللهَ التوبةَ علينا وعلىٰ كُلِّ الذينَ دَخلوا في دينِ اللهِ

أفْواجاً وفُرادىٰ ، وكلُّنا يقينٌ باللهِ أنَّ رحمتَهُ لَنْ يَبْخلَ بها علىٰ العبادِ الصَّالحين ، إنَّهُ هُوَ التَّوابُ ، ووَحْدَهُ يتوبُ علىٰ النَّاسِ ، ووحْده يَسْتحقُّ هذهِ المنزلةَ لأنَّه بيدِه الأمرُ والنَّهيُ وكلُّ شيْءٍ . . وبابُه في التّوبةِ مفتوحٌ إلىٰ يومِ القيامةِ .

ضَرورةُ الاجْتِماعِ

لقَدْ صارَ عددُ المسلمينَ كَثيراً جدّاً ، وتمَّتْ كلمةُ اللهِ علىٰ جزيرةِ العربِ ، فصارَتْ أرْضُها إسلاميَّةً ، وصارَتْ مكَّةُ كعْبةَ المسلمينَ وقِبْلتَهم . ولهذا أصبحَ مِنَ الضَّروري أنْ يجْتمعَ المسلمونَ اجْتِماعاً واحِداً معَ رسُولِهم ﷺ ليَراهم ويروْهُ ، ويَعْقِدوا معَهُ أوَّلَ مؤتمرٍ خالصٍ للمسلمينَ بعدَ أنْ كانَتِ المؤتمراتُ السَّابقةُ حتّىٰ الآنَ للمُشْركينَ أوْ للطَّرفينِ مَعاً في مواسِمِ الحجِّ . . ولا بُدَّ اليومَ مِنْ مُؤتمرٍ جديدٍ يكونُ نموذَجاً صالحاً يَسيرُ علىٰ منْهاجِهِ كُلُّ مَنْ يريدُ الحجَّ والاجْتماعَ ، وقدِ اسْتَدْعَتْهُ الحاجَةُ لتصفيةِ كلِّ الأمورِ ، ودراسةِ جميعِ الأوضاعِ ، والإجابةِ علىٰ كُلِّ سؤالٍ لما يُعرفْ لهُ جوابٌ بعْدُ . منْ أجلِ هٰذا عزمَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يحجَّ بالمسلمينَ هَذا العَامَ ، ونادىٰ المنادي في النَّاسِ بالحجِّ في كافَّةِ أنْحاءِ الجزيرةِ .

والْجَمْعُ غَفِيرٌ

وأخَذَ النَّـاسُ يَسْتجيبون للنِّـداءِ ، ويتجهَّزونَ للحـجِّ ، ويَفِدُونَ علىٰ المدينةِ مِنْ كُلِّ جهةٍ ، حتّى اجْتَمعَ بهَا خَلْقٌ كثيرٌ لا يَكادُ يُحْصيهم العدُّ وَيقالُ : إنَّهم بلَغوا تِسْعينَ ألْفاً علىٰ أقلِّ تقديرٍ ، جاؤُوا مِنَ اليمنِ وعُمَانَ والسّاحلِ ونجدٍ وثقيفٍ ، عَدا الذينَ هُمْ موجودونَ في مكَّةَ والمدينةِ .

وسارَ الوافِدونَ معَ ركبِ المدينةِ يَقودُهم رسولُ اللهِ ظهْرَ يَوْمِ السَّبتِ الخَامسِ والعِشْرين مِنْ ذِي القِعدةِ ، ومَعَهُ أزْواجُهُ وأهْلُ بيْته ، ووَصَلَ الحجَّاجُ إلى مكانٍ اسْمُهُ (ذُو الحُليفَةِ) ، فتوقَّفَ بِهِمْ رسولُ اللهِ ﷺ ليَلْبَسوا ثيابَ الإحْرامِ والحجِّ . ثُمَّ ركِبَ الرَّسولُ ناقَتَه ، وتابعَ سيْرَهُ ، وابْتَدأَ التَّلْبية ، فـردَّدَ المسلمونَ ذلكَ النَّشيدَ الجميلَ : (لَبَّيكَ اللهمَّ لَبَّيكَ ، لبَّيكَ لا شَريكَ لكَ لبَّيكَ ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعمَةَ لكَ والمُلْكَ ، لا شَريكَ لكَ) .

رَكْبُ السَّلامِ

وعَلا صوتُ الرّسولِ وصحبه بالتَّلبيةِ ، وتجاوَبَت الأصْداءُ مِنْ تَسعينَ ألْفاً في الفضاءِ الواسِعِ ، وانْطلَق الرَّكبُ بسلامٍ في حمايةِ اللهِ السَّلامِ وبقيادةِ رسولِ السَّلام، يَسيرُ سَيْرَ المطمئنِّ الآمِنِ إلى كعْبةِ السَّلامِ ، بُغْيَةَ السَّلامِ لَهُ ولكُلِّ مَنْ في الدُّنيا ، لا غَدْرَ بأَحدٍ ، ولا غَزْوَ ولا قتالَ ، ولا هربَ ولا هجرةَ ، ولا سلاحَ يتوشَّحه أحدٌ ، ولا نيَّةَ أذىً

أو سوءٍ . .

هَكذا يكونُ ركْبُ السَّلامِ ، يُسْلِمُ كُلُّ مَنْ حولَهِ ، ويَتَضامَنُ معَهُ في وئامٍ وأخوّةٍ ، ويصلُ معَ غروبِ الشَّمسِ بعونِ اللهِ إلىٰ مكَّةَ بعْدَ عشْرَةِ أيَّامٍ ، ودخَلَها أهْلُها بسلامٍ ، خاشعينَ للهِ ، يحيُّونَ ديارَهم رَمْزَ السَّلام والمحبَّةِ والتَّوحيدِ . . تَصوَّروا أنْفسَكم معَ هَذا الرَّكْبِ ، تَتَراءىٰ لكُمُ الكَعْبة الآنَ ، ورسولُ اللهِ ﷺ يَطْلبُ منكُمْ أنْ ترفعوا أيْديَكم إلىٰ اللهِ معَ الصَّحابةِ الكرامِ . .

دُعاءٌ نَبَوِيٌّ

(اللّهـمَّ زِدْ هَذا البيْـتَ تَشْريفاً وتَعْظيماً ومهابةً ، وزِدْ مَـنْ عظَّمَهُ تَشْريفاً وتَعْظيماً وتكْريماً ومَهَابَة وبِرّاً) .

دعاءٌ دعـاهُ الرَّسـولُ ﷺ لمّا رأىٰ الكعبةَ ، ودخـلَ البيْتَ الحرامَ ، ثُمَّ طافَ حولَ البيْتِ سَبْعاً ، ولمَّا انْتهىٰ صَلَّىٰ ركْعتيْنِ خلْفَ مقامِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ، وبعْدَها خرجَ إلى المَسْعىٰ فسَعىٰ بيْنَ الصَّفا والمروةِ ، وأمرَ النَّاسَ بالاستعدادِ للمَبيتِ في (مِنىٰ) ، ثُمَّ الذَّهابِ إلىٰ جبلِ عرفَةَ، حيْثُ سيتمُّ الاجتماعُ الكبيرُ ، ويتزوَّدُ الحجَّاجُ بكُلِّ الصِّفاتِ التي طَلَبَها الرَّسولُ لَهم مِنَ اللهِ .

وسـوفَ يتحقَّقُ دُعـاءُ الرسولِ بيْننا أيْضاً إنْ فَهِمْنا الاجتماعَ ، ومـا سيقولُه فيهِ منْ دُرَرٍ وكلامٍ جميلٍ ، فإلىٰ عرفات جَبلِ الرَّحمةِ والسَّلامِ . .

نسيرُ معَ الرّكبِ إلى مُـؤْتمرٍ إسلاميٍّ عظيـمٍ يقودُهُ لأوّلِ مـرَّةٍ رسولُنـا محمدٌ ﷺ .

خُطْبَةُ الوداعِ

وهُناكَ قامَ الرَّسولُ فيهمْ خَطيباً في أكْبَرِ خطبـةٍ . . تُعْتبرُ قانوناً كامِلاً رائِعاً مِنْ قَـوانينِ الشَّريعةِ الإسلاميّة ، وسُمِّيَتْ خطْبَـةَ الوداعِ لأنَّها آخرُ لقاءٍ تعليمـيٍّ للمسلمينَ معَ رسولِهم . . وممَّا قالَـهُ لَهُمْ : (أيُّها النَّاسُ ، اسْمَعوا منّـي أُبينْ لكُمْ ، فإنّي لا أَدْري لعَلّي لا أَلْقاكـمْ بعْدَ عامـي هَذا بهذَا الموقِفِ أَبداً ، أيُّها النَّاس : إنَّ الشّيطان قدْ يئِسَ أَنْ يُعبدَ بأَرْضِكم هذِه ، وقد تركْـتُ فيكمُ ما إنِ اعْتَصمْتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّـوا أَبداً : كتابَ اللهِ وسنَّـةَ نبيهِ، وإنّكم سَتُسْألونَ عنّي ، فما أنتم قائلون ؟ قالُوا : نَشْهدُ أَنَّكَ قَدْ بلَّغتَ وأَدَّيتَ ونَصَحْتَ . .) .

ولقـدْ جمعَ الرَّسـولُ في خطبةِ الـوداعِ هذهِ كـلَّ ما يمكـنُ جَمْعُه مـنَ الحديثِ عَنْ حُـرْمةِ الـدِّماءِ والأَعْـراضِ ، والأَموالِ في الـرّبا ، والأَخْـذِ بالثَّأرِ، وحقوقِ النِّساءِ وأُخوة المُسْلمين .

اللَّهُـمَّ اشْهَدْ

وكـانَ كُلَّما انْتهىٰ مِـنْ مقطعٍ في حـديثِه قـالَ لَهُمْ : أَلا هَلْ بَلَّغْـت ؟ قالُـوا: نَعَمْ . فيقُولُ : اللّهمَّ اشْهَـدْ . وفي نهايةِ الحديثِ والخطبـةِ جعلَ

يُشير بـإصبعهِ إلىٰ السَّماءِ وإلىٰ النَّـاسِ ، وهُـوَ يقـولُ : (اللَّهمَّ اشْهَـدْ ، اللَّهمَّ اشْهَدْ ، فَلْيبلِّغ الشَّاهدُ منكُمُ الغـائبَ ، فلعلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ أَوْعىٰ لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمعَه) . ولكـيْ يَسْمعَ الجميعُ مَقالتَه ، كـانَ صحابيٌّ اسْمُه (ربيعـةُ بْنُ أميَّةَ) يتَّصِـفُ بجهارَةِ الصّوتِ ، يقـفُ تحْتَ صَدْرِ ناقـةِ رسولِ اللهِ يردِّدُ أقـوالَهُ ، كلَّما قالَ الرَّسـولُ كلمةً أَعادهـا ربيعةُ في النَّاسِ بصَوتٍ عالٍ جدّاً . .

ونحنُ سنَقُـولُ يا رسولَ اللهِ بـأَعلىٰ صَوْتِنا أَيْضاً : اللَّهمَّ اشْهَـدْ بأَنَّ رسـولَ اللهِ ﷺ قَدْ بلَّـغَ الرِّسـالَـة ، وأدَّىٰ الأمـانَةَ ، ونَصـحَ للمسلمينَ ، وسـوْفَ نحفَظُ أَهـمَّ ما قـالَهُ في خطبـةِ الوَداعِ ، وسَنَعْتَصِـمُ بالكتـابِ والسُّنةِ كما أَوْصانا الحبيبُ القائدُ ﷺ لا نُخالِفُهُ أبداً .

مَناسِكُ الحَجِّ

وهُنـاكَ في (عـرفَـةَ) ، صلَّىٰ الرَّسولُ بـالنَّاسِ الظُّهرَ والْعَصْرَ جَمْعَ تقديمٍ، ثُمَّ رَكِبَ ناقتَهُ ، ودَعا واسْتغفرَ حتَّىٰ غابتِ الشَّمسُ ، ونزلَ مِنْ (عرفاتٍ) إلىٰ (المزدلفـةِ) ، وتبعَهُ النَّاسُ بهدوءٍ ورِفْقٍ ، ووصَلُـوا معَهُ إلىٰ (المشْعَـرِ الحرامِ) ، حيْـثُ دَعَـوا وكبَّروا وهَلَّلـوا حتَّىٰ الصَّبـاحِ ، وخـرجـوا إلىٰ (مِنىٰ) قَبْـل شروقِ الشَّمسِ ، ورمىٰ كُلُّ واحِـدٍ سَبْعَ حَصياتٍ جمعَهـا مِنَ المزدلفـةِ ، وأَتبعوا ذلكَ بـالنَّحرِ ، فـذَبحوا الهَدْيَ والأُضحِيَةَ ، وأَخيراً أحلَّ الجميعُ أنْفسَهم وأَجْسامَهم مِنْ لِباسِ الإحرامِ

بَعْدَ أَنْ حلَقُوا رؤُوسَهم وتنظّفوا وتَعطَّروا بـرائحةٍ طيّبةٍ ، ولَبِسُـوا ثيابهم الأُولىٰ ، ونزلوا مكّـةَ لطوافٍ جديدٍ اسمُـهُ طوافُ الإفاضة ، ثـم أَمْضوا ثلاثَةَ أيّـامٍ اسْمُها (أيّامُ التَّشريقِ) يبيتـون فيها في مِنىٰ ليلاً ، ويـرمونَ الجمارَ بعد الزّوالِ ، وانْحـدروا بعْدَها إلىٰ مكّةَ ، فودَّعـوا الكعبة والبيْتَ الحرامَ وانْصَرفـوا كـلٌّ يَعـُودُ إلى بَلْدتـه . . لقَـدْ شَـاهـدوا كيْـفَ أدّىٰ الرَّسولُ ﷺ مناسِكَ الحجِّ ، فأدَّوها كما أدَّاها دونَ زيادةٍ أو نُقصان .

إتْمامُ الدِّينِ

لقَدْ أوْضحَ الرَّسولُ حقّاً لهُم شريعَـةَ الحجِّ بتَفاصيلِهـا ، وهيَ آخِرُ فَرْضٍ منْ فرائضِ الإسْلامِ بهذا الشَّكلِ ، وقَدْ أنْزلَ اللهُ علىٰ رسولِه وهُوَ واقفٌ في عرَفـة قولَهُ الكريـمَ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، فقرَأَها الرَّسولُ ﷺ عليهِمْ في نهايةِ الحجِّ ، وتمَّتْ بها كلمةُ اللهِ ، وانتهتِ المهمّةُ .. وقدْ وضعَ الرَّسولُ في أعْناقِ المسْلمينَ أمانةَ الإسلامِ ، يتناقلونَها فيما بيْنَهم جِيلاً بعْدَ جيلٍ ، وأوْصاهُم أنْ يبلِّغَ الشّاهدُ منهمُ الغائبَ ، وفي الصَّفحاتِ التّاليةِ سنودِّعُ الرَّسولَ ﷺ في المدينةِ بعْدَ أنْ ودَّعْناه هُنا في حجّةِ الوَداعِ .. سنودِّعُهُ بقلوبنا وأرْواحِنا أيُّها الأحبَّةُ ، لأنَّهُ سينظُرُ إلى العالمِ كلِّهِ نظرةً أخيرةً ، وهو يأمُلُ أنْ لا يخيبَ أملُهُ في براعِمِ الطُّهرِ والصَّفاءِ والمستقبلِ المؤمنِ فهُم منَ الذين يُؤمنونَ بِهِ ويُقدّرونَ وَداعه أيضاً .

نهاية الصحبة



حجَّةُ الْوَداعِ

سيودِّعُنا الرَّسُولُ ﷺ بنظراتِه وجلساتِه ، بعْدَ أنْ ودَّعَنا بخطبتهِ وتعليماتِه ، وسنعيشُ الآنَ آخِرَ سيرةِ هَذا الرَّسولِ الكريم محمَّدٍ ﷺ ، فقَدْ فَهِمَ الصَّحابَةُ أنَّ نهايةَ حياةِ الرَّسولِ باتَتْ وشيكةً عنْدَما قالَ لهُم في عرفاتٍ : (أيُّها النَّاسُ ، اسْمَعوا منّي أُبيِّنْ لكُمْ ، فإنّي لا أدري لعلّي لا أَلْقاكم بَعْدَ عامي هَذا بهَذا المَوْقفِ أبَداً) . وقَدْ كانَتْ حجَّةَ وداعٍ حَقّاً ، بكَتِ العيونُ بعدَ خطبتِها ، وأخذَتْ تنظرُ إلى الرَّسولِ نظراتِ المودِّعينَ ، وعادَ الرَّسولُ ﷺ معَها إلى المدينةِ ، وهيَ تَذْرفُ الدَّمْعَ غزيراً ، وتَعي ببصيرةٍ ما أرادَهُ الرَّسولُ في كلامِه ، وقَدْ نزلَ الوحْيُ ليزرعَ في حجَّةِ الوداعِ آيةَ الوداعِ ، فأكَّدتِ الآيةُ للنَّاسِ أنَّ أجَلَ الرَّسولِ قَدْ دنا ، وأنَّ صحبتَهُ وشيكَةُ الزَّوالِ ، هلْ تذكَّرْتُم ما هذِه الآيةُ ؟ .

آيةُ الكَمالِ

لا بَأْسَ سَأُعيدُها عليكُمْ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ وستَشْرحونَها لي بقولِكُمْ : إنَّهُ ليْسَ بعْدَ كمالِ الدِّينِ وتمامِ النِّعمةِ شيْءٌ يُرادُ ، فمهمَّةُ الرَّسولِ ﷺ في هذِه الدُّنيا قَدْ بلَّغَها وأدَّاها ، فإذا بلَّغَ الرَّسولُ الرِّسالةَ ،

وأدَّى الأمانَةَ ، وكَمُلَ الدينُ ، وتمَّتْ بهِ نعمةُ اللهِ علىٰ عبادِه ، فقدْ تحقَّقَ الغَرَضُ مِنْ إرسالِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ ، وأَصْبَحَ رحيلُ هذا الرَّسولِ عَنِ الدُّنيا مُتَرقَباً ، في كلِّ وَقْتٍ بعْدَ حجَّةِ الوداعِ . . أَراكم قَدْ فهِمْتُمْ مَعْنىٰ الآيةِ إذاً بارَكَ اللهُ بكمْ ، وأَلْفُ شكرٍ لكم ، لكنَّكم قَدْ تسألونني : ألَمْ يحدُثْ بعدَ حجةِ الوداعِ وقَبْلَ وفاةِ الرَّسولِ أمْرٌ يَسْتحقُّ الذِّكْرَ في حياةِ الرَّسولِ الكريم ؟ والجوابُ : بلىٰ يا أحبَّتي ، ولكنَّ ما حدَثَ لمْ يَنزل بهِ قرآنٌ .

جَيْشُ أُسامَةَ

لقَدْ شُغِلَ الرَّسولُ ﷺ في آخِرِ أيَّامِه بأمْرٍ هامٍّ جدّاً ، وهُوَ إعدادُ جَيْشٍ لمحاربةِ الرُّومِ الذينَ أظْهَروا عَداوتَهم مِنْ جديدٍ علىٰ أطرافِ الشَّامِ ، وأمَّرَ الرَّسولُ علىٰ الجيْشِ أصغرَ قائدٍ مِنَ الصَّحابةِ اسْمُه (أُسامةُ بْنُ زَيْد) ، وقَدْ قالَ الرَّسولُ لابْنِ الشَّهيد (زَيْدِ بْنِ حارِثَةَ) : (سِرْ إلىٰ مَوْضعِ قَتْلِ أبيكَ ، فأَوْطِئهم الخيلَ ، فقَدْ وليَّتُكَ هَذا الجيْشَ ، فأَغِرْ صباحاً ، وأَسْرِعِ السَّيرَ لتَسْبِقَ الأَخْبارَ ، فإنْ أظْفرَكَ اللهُ عليهم ، فأقِلَّ اللَّبْثَ – (البقاء) – فيهِمْ ، وخُذ الأَدِلاَّءَ ، وقَدِّمِ العُيونَ والطَّلائعَ معكَ) . وكانَ كبارُ الصَّحابةِ في جيْشِ أُسامةَ جُنوداً ، ولَمْ يَكُنْ قَدْ جاوزَ السَّابعةَ عشْرَةَ بكثيرٍ ، وإنَّ الغايةَ مِنْ ذَهابِهِ إرهابُ الرُّومِ مِنْ ناحيةٍ ، وإعادةُ الثِّقةِ إلىٰ قلوبِ النَّاسِ علىٰ الحدودِ مِنْ ناحيةٍ ثانيةٍ .

لكنَّ هذا الجيشَ لَمْ يُقدَّرْ لَهُ الخروجُ في حياةِ النبيِّ مَعَ كلِّ جُهدِ الرَّسولِ ﷺ لذلك ، والإسراعِ في إعْدادِه .

مَرَضُ الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ

ولقَدْ كانَ السَّببُ الذي جعَلَ الجَيْشَ لا يسيرُ في حياةِ الرَّسولِ ، هُوَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قدْ مرِضَ مرَضاً شَديداً ، وجَعلَ المرضُ يشتدُّ بِه يَوْماً بعْدَ يومٍ ، حتَّىٰ شُغِلَ النَّاسُ بأمْرِهِ عَنِ الجَيْشِ . لقَدْ بدَأَ الحزْنُ يعمُّ المدينَةَ ، فلَمْ يعهدِ الصَّحابةُ أنْ مرِضَ الرَّسولُ مرَضاً كهَذا الذي أصابَه هذا العامَ ، وكُلَّما تمكَّنَ مِنَ الحديثِ والجلوسِ كانَ يَسأَلُ عَنْ جَيْشِ أسامَةَ : أيْنَ هُوَ ؟ وأَينَ صارَ ؟ . .

لقَدْ بلَغَهُ أنَّ ناساً ، تكلَّموا في شأْنِ أُسامَةَ ، وأَخذوا يقُولون : لماذا يَضَعُ قائداً فتىً على الجَيْشِ ؟ لماذا يُؤمِّرُ شابّاً دونَ الثامنةَ عشْرةَ منْ عُمرِهِ علىٰ جُلَّةِ الصَّحابةِ مِنَ المهاجرينَ والأنْصارِ ؟ ولماذا ولماذا ؟ . أَسئلةٌ أَدْخلَت الضِّيقَ علىٰ قَلْبِ رسولِ اللهِ فَوْقَ حُزْنِه ، ومَرضِهِ ، فَصارَ الرسولُ يَنْتظرُ فرصَةً مواتيةً لكيْ يُجيبَ علىٰ هذِهِ التَّساؤلاتِ .

خَليقٌ بالإمارَةِ

وعلى الرُّغمِ مِنْ مرضِهِ فقَدْ خرجَ غاضِباً ، يعصبُ رأْسَهُ حتَّىٰ جَلسَ علىٰ المنْبرِ ، فَحمِدَ اللهَ ، وأَثْنىٰ عليْهِ ، ثُمَّ قالَ : (أيُّها النَّاسُ : أَنفِذوا

بعْثَ أُسامَةَ ، فَلَعمري لئِنْ قُلْتُمْ في إمارتِه ، لَقَدْ قُلْتُمْ في إمارَةِ أَبيهِ مِنْ قَبْلِه ، وَإِنَّهُ لَخَليقٌ - أي لَجَديرٌ - بِالإمارَةِ ، وَإنْ كانَ أَبُوه لخليقاً بها . .) .

ثُمَّ نزَلَ ﷺ ، وسَكتَ النَّاسُ عَنِ الكلامِ في ما أَغْضبَ رسولَهم . وجهَّزوا الجَيْشَ كما يجبُ ، فخرجَ أُسامةُ ، وخرَجَ جيْشُهُ معَهُ ، حتَّىٰ نَزَلَ في مكانٍ اسمُه (الْجرفُ) علىٰ بُعدٍ قليلٍ منَ المدينةِ ، فعَسْكَرَ هُناكَ . وجعَلَ النَّاسُ يَتلاحقونَ بهِ حتَّىٰ تكامَلوا ، ولكنَّ رسولَ اللهِ ثَقُلَ واشتَدَّ بهِ المرضُ فأقامَ أُسامَةُ والنَّاسُ ، لا يَسيرُ ولا يَسيرون ، حتَّىٰ يَنْظروا ماذا سَيَقْضي اللهُ في رَسُولِهِ ، وعادَ أُسامةُ إلىٰ بَيْتِ رسولِ اللهِ ، ودخَلَ عليهِ ، فجعَلَ الرَّسولُ يَرْفعُ يدَهُ إلىٰ السَّماءِ ، ثُمَّ يَضَعُها علىٰ أُسامةَ يدْعو لَهُ .

المُمَرِّضَةُ عائِشَةُ

واسْتأذَنَ رسولُ اللهِ ﷺ أزْواجَهُ في أنْ يعيشَ أيّامَهُ الأخيرَةَ في بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، وكانَتْ عائشةُ تمرِّضُهُ وتساعِدهُ ، وعيونُها تَفيضُ دمْعاً على مرضِ الرَّسولِ ووجعِهِ ، وأَلمِهِ ، وكلَّما اشْتَدَّ بِهِ الألَمُ يَطْلُبُ منها أَنْ تصبَّ عليهِ الماءَ حتَّىٰ يَنْشطَ ، فَيَصْحو قَليلاً ، ويَستغفر اللهَ تعالىٰ ، وكانَ حريصاً علىٰ أَنْ يُصلِّيَ بالمُسلمينَ إمَاماً كُلَّما حضرَتِ الصَّلاةُ ، وأَنْ يعظَهم ، ويكلِّمَهم كلَّما وجدَ قوَّةً مِنْ نَفْسِه ، وحضَرتِ الصَّلاةُ ذاتَ يومٍ ، فخرجَ يعصبُ رأْسَهُ مِنَ الألَمِ ، وذهبَ إلىٰ المسْجدِ ، فرآهُ

المسلمونَ ، واسْتعـدُّوا للصَّـلاةِ وراءَهُ فـرحينَ ، ودَعـوا اللهَ أَنْ يعـافيَـهُ ويشفيَهُ ، ثُمَّ صعدَ المنبرَ بعْدَ الصَّلاةِ ، وأَنْصتَ الصَّحابةُ ، إنَّهم رأَوا في عَيْنيه كَلاماً يـريدُ النُّطْقَ بِهِ فكانَ أَوَّل ما تكلَّـمَ أَنْ حَمِدَ اللهَ كعادتِه ، ثُمَّ صَلَّىٰ علىٰ أَصْحابِ أُحُدٍ ، وشُهداءِ هَذِهِ المعركةِ التي لا تُنْسىٰ في تاريخِ الدَّعوةِ والمُسْلمين .

عَبْدٌ لله

وقالَ أخيراً يعني نفسَهُ : (إنَّ عَبْدَاً مِنْ عِبادِ اللهِ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الدُّنيا ، وبَيْنَ ما عِنْدَهُ ، فاخْتار ما عِنْـدَ اللهِ) ، أي ؛ إنَّ الرَّسولَ إنَّما هُوَ عبْدٌ مِنْ عبادِ الله ، وقَدِ اخْتارَ الآخرةَ علىٰ البقاءِ في الدُّنيا . وفَهِمَ أَبُو بكرٍ ما أرادَهُ الرَّسولُ ، وعرف أنَّهُ يريدُ نَفْسَهُ ، فبكىٰ ، وقالَ للرَّسولِ ﷺ : (بَلْ نَحْنُ نَفْديكَ بأَنْفُسِنا وأَبْنائِنا) ، فقالَ الرَّسولُ ﷺ : (علىٰ رِسْلِكَ يا أبا بكر ، لا تَبْكِ) ، ثُمَّ قالَ : (أيُّها النَّـاسُ ، إنَّ أَمَنَّ النَّـاسِ عَلَيَّ — أيْ : أكْثَرَ النّاسِ فَضْـلاً عليَّ - في صُحْبَتِهِ ومـالِه أَبُو بكـرٍ ، ولو كُنْتُ مُتَّخِـذاً مِنَ النَّاسِ خليلاً لاتَّخَذْتُ أَبـا بكرٍ خَليلاً ، ولكنْ صحبـةٌ وإخاءٌ وإيمانٌ ، حتّىٰ يَجْمعَ اللهُ بَيْننا عِنْـدَهُ) . ولَمْ يزلِ الـرَّسولُ حَـريصاً علىٰ أَنْ يصلِّيَ بـالنّاسِ حتّـىٰ غلبَهُ المرضُ وأَثْقلَـهُ ، فقـالَ : (مُرُوا أبـا بكرٍ ، فليُصَـلِّ بالنَّـاسِ) ، فجعلَ أَبو بكـرٍ يصلِّي بالنَّاسِ ، وقَـدْ صلّىٰ بهم سَبْعَ عشْرَةَ مرةً .

مَنْظَرٌ حَبِيبٌ

ومَعَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قَدْ أَوْكَـلَ الإمارةَ في الصَّلاةِ إلى أبي بكرٍ ، إلاّ أنَّهُ كانَ يَحْلو لَـهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى صحابتِه وهُمْ يصلُّون جماعَـةً خَلفَ أبي بكرٍ ، فَيَسُرُّهُ ما يراهُ مِنِ اجتماعِهم وتآلفهِـم ، حتّىٰ كانَ هَذا المَنْظَرُ الحبيبُ إلىٰ نَفْسِه آخِرَ منْظرٍ وقعَتْ عليهِ عَيْناه .

وأنْتُم أَيْضاً تحرِصُون علىٰ أنْ تكونـوا منَ المصلِّينَ جماعةً في المسجدِ ، وإنْ فعلْتُم هَذا يحِبُّكم اللهُ ورسـولُ اللهِ ﷺ ، وإنَّهُ لأَحْلى منظرٍ يدلُّ علىٰ وحدةِ المسلمينَ وأُخوَّتِهم وتكافُلِهم ، وإنَّهُ لمنظَرٌ ، يتكرَّرُ كلَّ يوم خَمْسَ مرّاتٍ ، لكـيْ يَبْقىٰ شِعـارُ الأخـوَّةِ عمليّاً في المجتمعِ ، وقَـدْ بيَّنَ لنـا الرَّسولُ ضرورةَ هٰـذا الشِّعارِ العمليِّ ، وحثَّنا عليْهِ دَوْماً ، وأَوْضحَ لنا أَنَّ مَثَلَ المسلمينَ في تَوادِّهِـم وتراحمِهِم وتَعاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَـدِ الواحِدِ ، إذا اشْتَكىٰ منْهُ عضْوٌ تَداعىٰ لَهُ سائِرُ الأَعْضاءِ بالسَّهرِ والحمّىٰ .

فَرْحَةُ الانتِعاشِ

وجـاءَ يومُ الاثنينِ . . ووقَـفَ النّـاسُ يصلُّـونَ الصُّبحَ في المَسْجِـد ؛ ويخرجُ الـرَّسولُ ﷺ إليهـمْ لينظُـرَ صَـلاتَهم ، وهُمْ يَجْتمعـونَ ، وشعـرَ المُسْلمونَ أَنَّ رسـولَ اللهِ يَنْظرُ إليهـمْ ، فَفَرِحـوا أَشدَّ الفَـرحِ بقُدومـه ، فأَشـارَ إليهم أَنِ اثْبُتـوا في صلاتِكـم ، وتَبَسَّمَ سُروراً لسُرورِ أَصْحـابهِ ،

وَدَخَلَ المسجدَ حتّىٰ جَلَسَ إلىٰ جَنْبِ أبي بكرٍ ، فصلَّىٰ عَنْ يَمينِهِ قاعِداً، فلمَّا فرغَ مِنْ صلاتِه أَقْبَلَ علىٰ النَّاسِ ، فكلَّمَهُمْ رافِعاً صوْتَهُ ، ثُمَّ خرجَ مِنْ بابِ المسْجِدِ بعْدَ أَنْ فرغَ مِنْ كلامِهِ ، فقالَ لَهُ أَبو بكرٍ : (يا نَبيَّ اللهِ، إنّي أراكَ قَدْ أَصْبحْتَ بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ كَما نُحِبُّ) . وبَدا الرَّسولُ والحمدُ للهِ نَشيطاً صَحيحاً في ذاكَ الصَّباحِ ، حَتَّىٰ ظنَّ النَّاسُ أَنَّهُ قَدْ شُفيَ مِنْ مَرضِهِ ، وانْصَرفَ أبو بكرٍ إلىٰ أَهْلِهِ في ضَواحي المدينةِ، ظانًّا أَنَّ الرَّسولَ ﷺ سيعودُ ليشْغلَ مَكانَهُ في الإِمامَةِ ، وإِنَّها لفرحَةٌ ، لكنَّها لَمْ تَدُمْ .

صَحْوَةُ المَوْتِ

إنَّهُ لَمْ يَدُرْ بخُلْدِ أَحدٍ مِنَ الصَّحابَةِ أَنَّ الانتعاشَةَ التي رَأَوْها باديةً على الرَّسولِ ﷺ ، ما هيَ إلاّ صَحْوةُ الموتِ ووَمْضَةُ السِّراجِ قَبْلَ انطفائهِ، وإنَّ صَحْوةَ الموتِ يا أَحبَّتي لَتأْتي علىٰ الإنْسانِ قَبْلَ وفاتِهِ ، ويظنُّ النَّاسُ وأَهْلُهُ مِنْ حوْلِهِ أَنَّهُ قَدْ شُفيَ تماماً . وإِنَّ الرَّسولَ لمَّا رجَعَ إلىٰ عائشةَ بعْدَ خروجِهِ مِنَ المسْجِدِ ، اضطجعَ قَليلاً ، وبعْدَ ساعةٍ عاوَدَهُ المرضُ ، ودخَلَ إلىٰ بيْتِه رجُلٌ مِنْ أُسرةِ أبي بكرٍ ، وفي يدِهِ سواكٌ أَخْضر ، فنظَرَ رسولُ اللهِ إلىٰ يَدِ الدَّاخِلِ كأَنَّهُ يريدُ السِّواكَ فأَعْطاهُ إيَّاهُ ، فوضَعَهُ الرَّسولُ في فمِهِ ، وتسوَّكَ بِهِ بشَكْلٍ شديدٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ فعَلَهُ في حياتِه ، وتعجَّبتْ عائشةُ منْ عَملِهِ هَذا ، واسْتغربَتْ أمْرَهُ ، وانْقطعَ عَنِ

الحديثِ معَها نِهائياً . . وبَدأَ الصَّمتُ يخيِّمُ علىٰ جوِّ البيْتِ .

بَلِ الرَّفيقَ الأَعْلىٰ

وراحتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تنْظُرُ في وجْهِه ، فإذا بصرُهُ قَدْ شَخصَ إلىٰ الأَعلىٰ ، وهُوَ يقولُ : (بَلِ الرَّفيقَ الأَعْلىٰ مِنَ الجنَّةِ) ، فقالَتْ لَهُ : خُيِّرْتَ ، فاخْتَرْتَ ، والذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ . وصَعِدَتْ رُوحُ رسولِ اللهِ ﷺ، وعائشةُ ما زالَتْ تَنْظُرُ إليهِ ، وانْهمرتِ الدُّموعُ منْ عَيْنَيْها غزيرةً علىٰ وفاتِهِ ، فقدِ اخْتارَ جِوارَ ربِّهِ ، وانْتَهَتْ حياتُهُ علىٰ الأرْضِ يومَ الاثنينِ الذي انْتَعشَ فيهِ وصَحا صَحْوتَهُ الأخيرةَ .

وصمتَ أَهْلُ بيْتِهِ ، وصَمتَ البيتُ معَهُم ، لَمْ يتوقَّعْ أحدٌ أَنْ يموتَ الرسولُ ﷺ بهذهِ السُّهولةِ بعْدَ صَحْوتهِ التي صَحاها منذُ ساعاتٍ ، لذلكَ لَمْ يَسْتطيعوا أَنْ يُصدِّقوا الخبرَ ، وذُهلَ النَّاسُ أمامَ موتِ رسولِ اللهِ ، وفزعَتْ قُلوبُهم ، وَبَدوا كأَنَّهم حَيارَىٰ في شأْنِهِ حتّىٰ كأنَّهُ شيْءٌ لا يمكنُ أَنْ يكونَ ، إنَّ الرَّسولَ يا أحبَّتي قَد كانَ ملْءَ القلوبِ والنفوسِ والأبصارِ والأسماعِ . .

أَبو بكرٍ والذُّهولُ ! !

وانْتشرَ الخبرُ في المدينةِ ، وقامَ عمرُ بْنُ الخطَّابِ منْ فَوْرِه ثائراً يخطبُ، ويقولُ : (إنَّ رِجالاً مِنَ المنافقينَ يزعمونَ أنَّ رسولَ اللهِ قَدْ

تُوفِّي، وإنَّـهُ واللهِ ما مـاتَ، ولَيَقطعَنَّ أَيدي رجـالٍ وأَرْجلَهم زَعَمـوا أَنَّهُ ماتَ) . .

وسَمِعَ أَبو بكرٍ كلامَهُ، فلَمْ يُبْدِ رَأْيَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ في بَيْتِ عائِشَةَ، فوجَدَهُ قَدْ ماتَ وعليْـهِ غطاءٌ، فأَقْبَلَ حتّىٰ كَشَفَ عَنْ وجْهِه بثَباتٍ يكادُ يفلتُ مِنْ يدِهِ مِنْ شِدَّةِ الهولِ والذُّهولِ، ثُمَّ قَبَّلَهُ مِنْ جَبْهتِه، وقالَ: (بأَبي أَنْتَ وأُمّي)، وردَّ الغطاءَ علىٰ وجْهِ الرَّسولِ ﷺ، ثُمَّ خرجَ وعمرُ ما زالَ يكلِّمُ النَّـاسَ، فقالَ: يا عُمَرُ، أَنْصِتْ ! ! وانْتبَهَ النَّاسُ حَوْلَ عُمَرَ إِلىٰ وجودِ أَبي بكرٍ، فأَنْصتوا مَعَ عُمَرَ ليَروا ما يَرامُ أَعزُّ صاحِبٍ على رسولِ اللهِ ﷺ بعْدَ أَنْ رأَوا عُمَرَ وشِدَّةَ هَيَجانه وذُهولِه.

تَذْكيرٌ في مَحَلِّه

ويقولُ أَبـو بكرٍ: . . (أَيُّها النَّـاسُ، إِنَّهُ مَنْ كانَ يَعْبدُ مُحَمَّداً، فـإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ ماتَ، ومَنْ كانَ يَعْبدُ اللهَ فإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يموتُ)، ثُـمَّ تَلا هذِهِ الآيَةَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

وفهمَ الجميعُ أَنَّ الآيَةَ التي نزلَتْ في غزوةِ أُحُدٍ عنْدمـا قالَ النَّاسُ: (ماتَ مُحَمَّدٌ) قَدْ كانَتْ في محلِّهـا الآنَ . . أَلَمْ يذكِّرْهُم رسولُ اللهِ ﷺ أَنَّه

عَبْدٌ للهِ اخْتارَ الآخرةَ ؟ أَليْسَ العبدُ بميِّتٍ ؟ يعودُ الآنَ عمرُ إِلىٰ صَوابِه، وكأَنَّه لَمْ يَسْمَـعْ مِنْ قَبْلُ بالآيةِ التي تَـلاها أَبو بكرٍ . . ما أَكْرمَـكَ يا أَبا بكرٍ ! مَوقِفُكَ يدلُّ على الصَّوابِ والصَّبرِ علىٰ المَصائِبِ، تحقَّقْتَ مِنَ الخبرِ، وتحامَلْتَ علىٰ نَفْسِكَ على الرَّغمِ مِـن حُزْنِكَ وبُكـائِكَ، حتَّىٰ تُفَهِّمَ النَّاسَ حقيقةَ الأمرِ . . .

آمين آمين

وانْتهتْ ثلاثٌ وستُّونَ سنَةً مِنْ عُمْرِ رسولِ اللهِ ﷺ، فانْتهىٰ بانتهائِها عُمْرُهُ، بعْدَ أَنْ عـاشَ مِنْها في مكَّةَ داعياً ثلاثةَ عشَرَ عـاماً، وفي المدينةِ عَشْر سنواتٍ، وبدأَ النَّـاسُ يتدبَّـرونَ أَمرَ تجهيزِه، ثُـمَّ صلُّوا عليـهِ، ودَفَنوهُ في مكانِ مَـوْته (أَيْ في غُرفَةِ عائِشَـةَ رضِيَ اللهُ عنها) وفي المدينةِ مَرْكزِ حضـارتِه ودولتِه لا في مَكَّةَ مَكـانِ مَوْلدِه وبَعثتِه . . وإِنَّنـا مَعَ أَبي بكرٍ الصّديقِ وعمرَ الفاروقِ اللذَيْـنِ صَلَّيا علىٰ الرَّسولِ ﷺ قبلَ دفْنِه، ووَدَّعاهُ أَحسنَ وداعٍ حيْثُ رَفَعا أيديَهُما إلىٰ السَّماءِ قائليْنَ: (اللَّهُـمَّ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّـهُ قَدْ بَلَّغَ ما أُنْـزِلَ إِليْهِ، فاجْعَلْنا يـا إِلهنا ممَّنْ يتَّبعُ القَـوْلَ الذي أُنزِلَ معَهُ، واجمعْ بَيْننا وبَيْنَهُ حتَّىٰ يَعْرِفَنا وتعرِّفَهُ بنا، فإِنَّهُ كانَ بالمؤمنينَ رَؤوفاً رَحيماً ﷺ) .

وقـالَ النَّاسُ: آمِين . . آمين . . ونحـنُ نَقول: آمينَ آمين . . اللَّهـمَّ استجبْ دُعاءَنا يا ربَّ العالمين . .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٥٩

الإنسانُ الكامِلُ

الأَنْبِياءُ والبَشَرُ

وَدَّعْنا رسُولَ اللهِ ﷺ في الحلقةِ الماضيةِ على حُزْنٍ مِنّا ، وإنَّـهُ لآخِرُ الرُّسُلِ وخاتمُ الأنبياءِ ، فكيْفَ لا نَحْزنُ عليْهِ ؟ إنّنا نحمدُ اللهَ أنَّهُ لَمْ يحرِمْنا مِنْ فَهْمِ حياتِهِ وسيرَتِهِ ، وأَصْبَحْنا علىٰ عِلْمٍ بالرُّسلِ الذينَ سَبقوه، (وذلكَ في مجموعَةِ قَصَصِ القرآنِ التي سَبَقَتْ مجموعَةَ قصصِ السّيرةِ النبويّةِ) صلّىٰ اللهُ عليهِ وعليهِم أجمعينَ . لقَدْ تعَهَّدوا البشَرَ بالصَّلاحِ ، وحذَّروهم مِنْ غِوايةِ الشَّيطانِ ، فَما خلَتْ أُمَّةٌ مِنْ رسولٍ أو نذيرٍ ، وما انْقطعتْ رسالاتُ السَّماءِ وشرائعُ اللهِ عنِ التَّنزيلِ إلا بخَتْمِ النبوّةِ ، وقَدْ حَمَلَها الرُّسُلُ وبلَّغوها أحْسَنَ ما يكونُ التَّبليغُ ، فكانُوا أمثلةً ونماذِجَ عملٍ وتطبيقٍ ، وقدوةً للنّاسِ في التَّفكيرِ الصَّائبِ ، واسْتخدامِ القوىٰ الإنسانيةِ التي وَهَبَها اللهُ للبَشَرِ ، يُجاهدون بها الباطِلَ، ويُقيمونَ الحقَّ ، وأَنْعِمْ بِهِم نماذجَ كاملةً ومثلاً أعلىٰ للجميعِ ! .

مُحَمَّدٌ والأَنْبياءُ

لكنَّ جميعَ الأَنبياءِ قبلَ محمّدٍ ﷺ ، قَدْ ضاعَتْ صُوَرُ حياتِهم الكامِلَة مِنْ سجِلِّ التَّاريخ ، ولَمْ يَبْقَ منْها إلا نتفٌ يسيرةٌ ، لا يمكنُ الاقتداءُ بها والسَّيْرُ علىٰ هُداها الآنَ ، واليومَ لَيْسَ لدى العالمِ إلا شخصيةٌ تاريخيّةٌ واحِدةٌ هيَ شخصيّةُ محمدٍ ﷺ ، وضَحتْ كُلَّ حياتِهِ ، وسجّلَ التَّاريخُ أقْوالَـهُ وأفعالَـه، لمْ يتركْ صغيرةً ولا كبيرةً مِنَ السِّيرةِ إلا أحصاها ،

فرسولُنا ﷺ إذاً واضحُ الشَّخصيَّةِ بيْنَ الرُّسلِ والأنبياءِ ، وقدْ عَرفنا يا أحبَّتي في الحلقاتِ الماضيةِ سيرتَهُ منْذُ نعومةِ أظفارِهِ إلىٰ أنِ اختارَه اللهُ إلىٰ جِوارِهِ ، وإنَّهُ للنبيُّ الوحيدُ الذي ما زِلنا نَعرفُ مُمارسَتَهُ عملياً لكُلِّ المبادئ التي لقَّنَها للنَّاسِ ، فلا نَجدُ في القرآنِ حُكْماً أو أمراً إلاّ وعملَ بهِ النبيُّ الكريمُ ، فصارَ بذلكَ المثَلَ الأعلىٰ للقدوةِ الكاملةِ ، طِفْلاً وشَابّاً وشَيْخاً ووالِداً وزوْجاً وجاراً وصاحِباً وقائِداً .

مُحَمَّدٌ والكَوْنُ

ولقَدْ أرسلَ اللهُ محمَّداً ﷺ رحمةً للعالمينَ ، فإنْ آمَنوا بهِ جَميعاً فالعالَمُ قَدِ ارْتَقىٰ إلى مُستوى الكمالِ والاقتداءِ بالقُدْوةِ الحسنةِ ، أيْ : أصْبحَتْ لديْهِ الإمكانيَّةُ لذلكَ ، ولا سيَّما بعْدَ تجريبِ مبادِئَ أُخرىٰ غيرِ الإسلام.. واليومَ إنْ آمنَ النَّاسُ ، وسَخَّروا الكونَ مُستفيدينَ مِنْ قَوانينه، فعِندَها يصبحُ الكَوْنُ مُسْلِماً بما فيهِ مِنَ البشرِ للهِ تعالىٰ وحْدَه ! ولقَدْ علَّمَنا رسولُ اللهِ ﷺ كيْفَ نكونُ على هَذا المُستوىٰ ، فهُو الذي مارسَ مبادِئَ القرآنِ الصَّالحةَ لقيادةِ الكونِ والخلافةِ فيهِ . وإنِ اتَّبعنا رسولَ اللهِ ﷺ في عَملِهِ أمْكنَنا الارتفاعُ بالإنسانيّةِ إلى أُفقِ السَّعادةِ ، وإنْقاذُها مِنَ الانحدارِ إلى دَرْكِ الأسْفلين ، ولَنْ يَصِلَ الآخرونَ إلىٰ ما نُريدُهُ إلاّ إذا ساعَدْناهم ومَدَدْنا لَهُم نماذِجَنا ، وما أرْوعَ المؤمنَ الذي يعملُ الصَّالحاتِ ويَدْعو الآخرينَ إلىٰ الصَّلاحِ في الدُّنيا والآخرةِ معاً..

الشَّخْصيَّةُ الواضِحَةُ

ويقولُ الرَّسول ﷺ « إنما بُعثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخْلاق » ، والإنسانُ الذي يَتسلَّمُ هذه المهمَّةَ سوْفَ ينشأُ ولا شكَّ في أفْضلِ وضعٍ ، ومنْ هُنا يَأتي الوضوحُ في شخصيةِ رسولِنَا العظيم . واللهُ لا يحبُّ الغموضَ في تربيةِ عبادِه ، لذلكَ أرْسلَ لَنا محمَّداً بشخصيةٍ واضحةٍ أشَدَّ الوُضوحِ، يمكنُه بحقٍّ أنْ يدلَّنا بوضوحِهِ إلىٰ الخيرِ ، وإنَّها لسنَّةُ التَّاريخ: (العَمَلُ الواضِحُ يَصنعُ شخصيَّةً واضحةً ويعطي نتائجَ واضحةً ، وبالتالي يعرفُ النَّاسُ كيفَ يَصْنعونَ الوضوحَ في شخصيَّاتِهم) . . وقرآنُنا يا أحبَّتي فَصَّلَ كُلَّ خُلقٍ عظيمٍ واضحٍ ، ونبَّهنا إلى أنَّ العظمةَ تأتي مِن الوضوحِ والبُعدِ عنِ الغموضِ . . وخاطبَ رسولَنا محمَّداً ﷺ بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ . .

اللَّهمَّ يا ربِّ ساعِدْنا علىٰ فَهْمِ الوُضوحِ في العملِ ، ومحبَّةِ الوُضوحِ ، وتأسيسِ شَخْصيتنا عليْهِ . .

كَعْبَةُ الكَمالِ

وإنَّ الرَّسولَ ﷺ الذي يتّصِفُ بوضوحٍ كهذا سوْفَ يكونُ لَنا ولِكُلِّ مَنْ أرادَ . . أعْلىٰ وأعلىٰ مَثَلٍ حَتْماً . . ولقَدْ حدَّدَ اللهُ واجبنا في اتِّباعِ هذا الرَّسولِ فقالَ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

إنَّ هَذِهِ الآيَـةَ الكريمَةَ تَحُثُّنا علىٰ الاقْتـداءِ برسولِ اللهِ ﷺ ، لأنَّـهُ هُوَ الأسوةُ الحسَنَةُ ، أيْ المثَـلَ الأعْلىٰ لأفعـالِ المسلمينَ وأعمالِهم وإيمانِهم باللهِ واليومِ الآخرِ ولِذْكرِهم اللهَ تَعالىٰ حتَّىٰ يَوْمِ القيامَةِ . ومعْنىٰ قولِنا : (المثل الأعلىٰ) أيْ إنَّهُ جامِعُ المحَاسنِ والكمالاتِ التي تكونُ عادةً في الأفرادِ ، فقَدْ يتَّصِفُ واحدٌ بالصِّدقِ وآخرُ بالعلمِ وثالثٌ بالعملِ الصَّالحِ ورابعٌ بالجودِ والكرمِ وهكذا ، فإذا ما جَمَعْنا كلَّ هذِه الصِّفاتِ السَّاميةِ وجدْناها مجتمِعَةً في شخصيةِ رسُولِ اللهِ ، ومَنْ أحَقُّ مِنْهُ في جَمعِ هذِهِ الصِّفاتِ وقَدْ ربَّاهُ اللهُ ؟ .

الإنسانُ الكامِلُ

إنَّكَ يـا رسولَ اللهِ قَدْ كنْتَ الإنْسانَ الكامِلَ حقًّا ، وكثيراً مـا نَسْمعُ منْ أجْدادِنا وآبائِنا عبارةً في تبريرِ أخطائِهم العارِضَةِ تقولُ : (لَمْ يَكْمُلْ مِنَ البَشَرِ إلاّ محمَّدٌ ﷺ) . ومعَ أنَّهم بهذا الكلامِ يبرِّرونَ خطأَهُم أَوْ خطأَنا ، إلاّ أنَّ هَذا لا يَعْني أنَّنا لا نَسْتطيعُ أنْ نَتَّصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ التي جَمَعَها رسولُ اللهِ . إنَّنا نتمكَّنُ يا أحبَّتي ، ورسولُ اللهِ ﷺ لَمْ يقُمْ بما قامَ بهِ إلا ليعلِّمَنا صفاتِ الكمالِ وتَطْبيقَها علىٰ أنْفسِنا ، ولو كانَ البَشَرُ لا يملكونَ القُدْرَةَ علىٰ هذا الأمرِ لَمَا طلبَهُ الرَّسولُ منَّا ، بَلْ ولَمَا أتعب نَفْسَه في ذَلكَ ، ولقَدْ أوْضحَ الرَّسولُ هَذا بأنَّ يديْهِ الكريمتيْنِ قَدْ خرَّجَتا أبْطالاً منَ الصَّحابةِ اسْتَطاعوا أنْ يَصِلُوا إلى ما طَلَبَهُ منْهُم فأتَوا بالخُلُقِ العظيمِ ، وكانُوا بذلكَ خيْرَ النَّماذجِ الإنسانيّةِ ، وجيلاً قرآنياً كامِلاً ينيرُ

لنَا الطَّريق ويقولُ: بإمكانِكم أنْ تُصْبِحُوا جِيلاً قرآنياً أيضاً .

تَرْبيَةٌ ربَّانيَّةٌ

ومِنْ رحمةِ اللهِ بنا أنَّهُ طلَبَ منَّا اتبـاعَ نموذجٍ صنعَهُ علىٰ عيْنِه وبيدِهِ ، لكيْ لا يكونَ حُجَّةٌ للنَّاسِ علىٰ اللهِ ، وهَذا مـا كانَ حقّاً ، فاللهُ تعالىٰ قَدْ قدَّمَ لنا أفْضلَ نموذجٍ وهُـو محمَّد ﷺ ، وكُلُّ مَـنْ يطلبُ نموذجاً مِنَ البشرِ أعْلىٰ وأكْمل مِنْ محمَّـدٍ فإنَّهُ لَنْ يجِدَ ، وطَلَبُه مستحيلُ التحقُّقِ ، وإنَّ مِنْ وُسْعِ الإنْسـانِ وطاقتِهِ أنْ يصْنعَ ما صَنعَـهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ ، لا أنْ يطيرَ فَـوق ذلكَ المُسْتوى الـرَّفيعِ والعظيـمِ ، واللهُ لا يكلِّفُ نفْساً إلاّ وُسْعها ، ولَوْ لم يكُنْ أمامَنا مثالُ الرَّسولِ ﷺ لقُلْنا وقالَ النَّاسُ : (أيْنَ المثالُ الصَّالحُ الذي طَبَّقَ قَبْلَنا ما يُريدُهُ اللهُ حتى نَصْنعَ مثْلَهُ ؟) . وهذا حقٌّ يا أحبَّتـي ، فالنَّاسُ لا يُؤمِنُـونَ بقانونٍ إلا إذا رأوا نتائجَهُ بعْدَ تطبيقِه، وقانونُ الإسلامِ الكاملِ قَدْ جاءَ مثالاً أحسَنَ مثالٍ في شخصيةِ ربَّاها اللهُ ، وعرفْناها بكُلِّ مراحلِ حياتِها ، فلا عُذْرَ لنا أبداً في عَدمِ اتباعِها .

وتَرْبيةٌ نبويَّةٌ

وإنْ كانَ ربُّنا قَدْ قـدَّمَ لنا رسولَهُ نموذجاً صالحاً للمثَلِ الأعْلىٰ ، فإنَّ رسولَ اللهِ قَدْ فتَحَ مسجدَه في المدينةِ لتَخْريجِ دفعاتٍ مدرسيَّةٍ كثيرةٍ ، وفعلَ هذا مِنْ قبْلُ في دارِ الأرْقمِ بمكَّـةَ . . لهذا يا أحبتي ، إنْ قـالَ لنَا أحدٌ مِنَ البشَرِ : (لا يَكْفـي نموذجُ فردٍ واحدٍ ، لكـيْ يُصْبحَ المجتمعُ

مُقْتنعاً بالأمرِ) فإنَّ جوابَنا علىٰ ذلكَ . . سَيكونُ : (إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَبْرزَ للجميع تربيةً علىٰ مستوىٰ مجتمعٍ وجماعةٍ ، وإنَّنا لا نَعْجزُ عَنْ بناءِ أَنْفسِنا بنـاءً كامِـلاً فحسْبُ ، بَـلْ يُمْكنُنا بنَـاءُ مجتمعِنا أيضـاً ، والعذْرُ مَرْفُوضٌ ، وشخصيَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ مثالُ فردٍ كاملٍ واضحٍ ، وشخصيَّةُ صحابتِهِ مثالٌ كافٍ وكاملٌ ورائعٌ في نموذجٍ موحّدٍ ضِمنَ مجتمعٍ حياتيٍّ ناجـحٍ ، وإنَّ كُلَّ مَـنْ يتحجَّجُ بـأنَّ رسولَ اللهِ تـربيةٌ ربَّـانيَّةٌ لا تُتَّبـعُ ، نعرضُ لـهُ نماذجَ الصَّحابـةِ ، وما زالتْ تعـاليمُ وقـوانينُ الذي ربَّـاهُم واضحةً جاهزةً . .) .

اختِبارٌ أَوَّل

والآنَ اقْرؤوا معـي هذِه الأَسْئلـةَ ، وحاولـوا أَنْ تُجيبوا عليهـا دُونَ أَنْ تَقْرؤوا الجوابَ ، ثُمَّ تُقارِنوا بيْنَ كلامِكُم . . وبيْنَ الجوابِ الصحيحِ . .

س ١ : ما مَعْنى الخُلُقِ العَظيمِ ؟ .

ج : هُوَ الصِّفات العمليَّةُ الرّائعةُ الحسنَةُ التي لا يُوجَدُ أَفْضل منْها.

س ٢ : ومَنْ صاحبُ الخلُقِ العظيمِ ؟

ج : هُو الذي يتَّصفُ بهذه الصِّفاتِ في تاريخِ دعوةِ الإِسلامِ .

س ٣ : مَنْ كانَ يَتَّصف بهذِه الصِّفاتِ في تاريخِ دعوةِ الإِسلامِ ؟ .

ج : اتَّصفَ بها قائدُ الدَّعوةِ رسولُنَا محمَّدٌ ﷺ وصحابَتُه الكِرامُ .

س ٤ : هَلْ نَسْتطيعُ أَنْ نتَّصِفَ بهِذه الصِّفاتِ ونَحْنُ صِغَارٌ ؟ .

ج : نعَمْ . . وكـلُّ صغيرٍ وكبيرٍ يتمكَّنُ مِنْ ذلكَ إذا اسْتخـدمَ عَقْلَهُ وتَفْكيرَهُ .

الاختِبارُ الثَّاني

س ١ : ماذا نقُولُ عن الإِنسانِ الذي يتَّصِفُ بالخلُقِ العظيمِ ؟ .

ج : هُوَ الإِنسانُ الكامِلُ .

س ٢ : ما مَعْنى كلمةُ الكمالِ ؟ .

ج : الكمالُ إتْمامُ الشَّيءِ مُتْقناً دُونَ نَقْصٍ كَما هُوَ مطلوبٌ .

س ٣ : هَلْ هُناكَ مَعْنىً آخر للكمالِ ؟ .

ج : نعم ، الكمالُ هُوَ الثَّباتُ على الخُلُقِ العظيمِ أمامَ النَّاسِ في المعاملةِ معَهم .

س ٤ : هَلْ يَرْضىٰ الإِنسانُ أَنْ يتبعَ إِنْسـاناً ناقِصاً في أَعْمالِه ؟ ولماذَا ؟ .

ج : لا . . لا يَرضىٰ ، لأنَّه يُريد إنساناً يدلُّهُ على الكمال ، وفاقِدُ الشَّيءِ لا يُعْطيه .

س ٥ : هَلْ يَسْتطيعُ كلُّ إنسانٍ أَنْ يكونَ كاملاً ؟ وكَيْف ؟ .

ج : نَعَم ، إذا حاولَ أَنْ يَتَّصِفَ بالخلُقِ العظيمِ ويَسيرَ نحوَ الكمالِ دُونَ شَكٍّ . وإذا كانَ في إمكانِ الإِنسـانِ أنْ يتَّصِفَ بـالخُلُقِ العظيـمِ فإنَّـهُ يمكنُهُ الاتِّصافُ بالكمالِ ، ويُصْبحُ إنْ فَعلَ إنساناً كامِلاً .

اخْتِبارٌ ثالِثٌ

س ١ : هَلْ كلُّ إنسانٍ كامِلٍ يكونُ رسولاً ونَبيّاً ؟ .

ج : لا ، والعَكْسُ هُو الصَّحيحُ أيْ : إنَّ كُلَّ نبيٍّ ورسولٍ كامِلٌ .

س ٢ : هَلْ يَسْتطيعُ الكامِلُ أَنْ يَبْلُغَ مرتَبَةَ النُّبوةِ ؟ .

ج : إذَا لَمْ يصلِ الإِنسانُ إلىٰ النّبوَّة ، فلا يَعْني أَنَّه لا يَسْتطيعُ الوصولَ إلىٰ الكمالِ . وقَدْ نرى اليومَ أُناساً كامِلينَ دُونَ نبوَّةٍ ، فالنبوَّةُ ليْسَتْ قِسْماً مِنَ الكمالِ ، ولذلكَ لَنْ يَبْلغَها الكامِلون الآنَ لأنَّ آخِرَ نبيٍّ هُوَ محمَّدٌ ﷺ ، ولا نبيَّ بَعْدَهُ ، ونحنُ نَكْمُلُ إذا فعَلْنا ما فَعَلَهُ الرَّسُولُ ولَوْ لَمْ يَنْزِلْ علَيْنا وحْيٌ مِنَ السَّماءِ .

س ٣ : هَلْ يَعْني أَنَّ البشريَّةَ لَمْ تَعُدْ بحاجَةٍ إلىٰ أنبياءَ بعدَ محمَّدٍ ﷺ ؟ .

ج : هذا صحيحٌ لأَنَّ رِسَالَةَ محمَّدٍ نزلَتْ للعالَمينَ كافَّةً ، أيْ : إنَّ ما تركَهُ لنَا الرَّسولُ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ يكْفي لِصَلاحِ البشرِ بَعْدَهُ في أيِّ زَمَنٍ ، وفي أيِّ بُقعةٍ منَ الأَرْضِ ، وعلَيْنا أنْ نقرأَ القرآنَ ونطبِّقَهُ كأنَّهُ يتنزَّلُ علينا، ورسولُنا يأمرُنا : «بلّغوا عنّي ولو آيةً » .

دَمْعَةٌ سَخِيَّةٌ

تَعالَوا نَسْتَرجِع بحقٍّ شريطَ الرَّسولِ ﷺ الكاملِ العظيمِ . . ما رَأْيُكم؟ سنصلّي ونسلّم عليهِ كثيراً بعْدَ أَنْ قَرأْنا سيرتَهُ ، ونتصوَّرَ مَسْجدَهُ الحبيبَ ، شريطةَ أَنْ نُحاولَ إذا ما كَبرنَا أَنْ نذهَبَ بأَجْسامِنا وأَرْواحِنا إلىٰ مَسْجدِه في المدينةِ . . وهُناكَ أمامَ القَبْرِ سَتَنْهَمِرُ الدُّموعُ مِنْ

عُيونِنا دُونَ أَنْ نملكَ إيقافَها وحَبْسَها ، سَنَبْكي أَدَباً وخُشُوعاً واحْتراماً وحُبّاً في الاقتداءِ العمليِّ برسولِ الرَّحمةِ والأدبِ والخشوعِ والحبِّ ﷺ . وعليْنَا يا أحبَّتي أَنْ لا نَبْخَلَ بدمْعتينِ سَخيتيْنِ مِنْ عينيْنِ صغيرتيْنِ تَنْظُرانِ إلىٰ رسولِ اللهِ في القرآنِ ، وفي التَّاريخِ ، وفي السِّيرةِ . . بَلْ وسَنَبْكي فَرَحاً إنْ لَقيناهُ غَداً يوْمَ القِيامَةِ يمْسِكُ بيَدِنا لِنَدخُلَ الجنَّةَ مِنْ بابِ الخُلُقِ العظيمِ . . إنَّهُ يُعْطينا اليومَ مِفْتاحَ صُحْبتِهِ في الآخرةِ بعْدَ أَنْ فقَدْناه في الدُّنيا . . والمفتاحُ واحِدٌ لا ثَاني لَهُ : (اتباعُ رسولِ الله اتِّباعاً صَحِيحاً كامِلاً دونَ تحريفٍ ولا تبديلٍ) .

اللَّهمَّ صَلِّ وسلِّم عليْه

اللَّهمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ ، وعلىٰ آلهِ وأَصْحابِهِ وأَزْواجِه وذُرِّيتِهِ وأَتْباعِهِ إلى يَوْمِ الدِّين . . اللَّهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبارِكْ على حَبيبِنا محمَّدٍ ، لأنَّكَ أمرْتَنا بذلكَ ولأنَّنا نحبُّهُ ويحبُّنا ، وإنَّنا نُشْهِدُكَ ونُشْهِدُ ملائكتَكَ علىٰ هَذا الحبِّ لرسولِكَ وللصَّلاةِ والسلامِ عليْهِ . . اللَّهمَّ أَكْرِمْنا بدوامِ محبَّته لنَا ، فإنَّهُ قَدْ أَحَبَّنا . اللَّهمَّ اجْعَلْ حُبَّنا لَهُ مفْتَاحَ كَمالِنا ، وطَريقَ اقتدائِنا بِهِ علىٰ مِنْهاجِه . . لِنُصْبحَ مَثَلاً أَعْلىٰ للبشريَّةِ كما كانَ وَكَما نراهُ اليومَ مِنْ خِلالِ القرآنِ والسّيرةِ . . اللّهمَّ اكْتُبْنا في قائِمَةِ المؤمنينَ الصَّالحينَ . . واجْعَلْنا للمتَّقينَ إِمَاماً يا ربَّ المتَّقين . . اللَّهمَّ ارْزُقْنا أخوَّتَهُ في الدّنيا ، وصُحْبَتَهُ في الآخِرةِ ، ومَا خابَ مَنْ سألَكها يا ربَّ العالمين . اللَّهمَّ اجْعلْنا ممَّنْ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحْسَنَهُ يا أكرمَ الأكرمين .

قصص
السيرة النبوية
٦٠

الأسوة الحسنة



نهاية المطاف

مَرْحباً بكُم يا بَراعِم الإيمانِ ، وأَهْلاً بإخْوةِ الدَّرسِ والمعرفةِ . ها نَحْنُ أُولاءِ يا أحبَّتي قَدْ وَصَلْنا إلىٰ خاتمةِ المطافِ ، وكَمْ أنا فرِحٌ أَنْ جَمَعَني اللهُ بِكُمْ مَعَ أَنَّني لَمْ أَرَكُمْ . وجميلٌ بالإنسانِ أَنْ يختم لقاءَهُ مَعَ إخوةٍ مِثْلِكم بالشَّيْءِ المفيدِ . والشَّيْءُ المفيدُ هُو النَّصيحَةُ ، وإنَّ أَحْلىٰ نصيحةٍ أُقَدِّمُها لكُم أَنْ تُرْشِدوا الآخرينَ مِنَ الصِّغارِ والكبارِ إلىٰ قراءةِ وتعَلُّمِ سيرةِ رسولِنا ورسولِهم ورسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ ، هَلْ تذكُرونَ عِنْدَما نَصَحَ الرَّسولُ لصحابتهِ في حجَّةِ الوداعِ بأَنْ يُبلِّغَ الشَّاهِدُ منهُمُ الغائِبَ ؟ حقّاً إنَّها لنصيحةٌ قيِّمةٌ ، وأنا اليَوْمَ لا أَمْلكُ أَغْلىٰ مِنْها فهيَ مِنْ تعاليمِ الرَّسولِ ، فبلِّغوا كُلَّ ما تَعْرفونَهُ مِنَ الحقِّ لغيرِكم في رفقٍ وفهمٍ وامتثالٍ تامٍّ ..

أَشْكُرُكُم مِنَ القَلْبِ

ويَحْلو لي بعْدَ النَّصيحةِ أَنْ أُقدِّمَ لكُمْ شُكري :

[الرَّسولُ قَدْ علَّمَنا أَنْ نردَّ المعروفَ بالمعروفِ لكُلِّ مَنْ صَنَعَ مَعْروفاً معَنا ، وإنْ لَمْ نَسْتطعْ مكافأَتَهُ بمعروفٍ فالواجبُ يَفْرضُ عَلَيْنا أَنْ نَشكرَ لهُ علىٰ الأَقَلِّ ، وأَنا أَشْكرُ لَكُمْ لأَنَّكم قرَأْتم ما كَتَبْتُهُ لكُم ، وشُكْري لكُم واجبٌ لا أَمْلكُ غيرَهُ اليومَ ، ولكِنْ أُعاهِدُكم أَنَّني سَأَقْرأُ غداً ما سَتُقدِّمونَهُ للآخرين إنْ أَصْبحْتُم مِنْ مُؤلِّفي القَصَصِ المفيدةِ ، وبهذا

تكْسبونَ شُكري وقِراءَتي معاً لما تقدِّمُونَهُ . ولا تَنْسوا أنِّي أحبُّ المطالعةَ كَثيراً ، وإنَّها لمفيدَةٌ جدّاً . وأَرْجو مِنَ الله أَنْ يقوِّيَني لأَسْتمرَّ في القِراءة ، وكُلَّما قَرأَ الإِنْسانُ زادَ إيمانُهُ وإسْلامُهُ . وبالقِراءةِ يأْتي إلينا العِلْمُ والكرامَةُ . . وأَوَّلُ نصيحةٍ خالدةٍ نزلَتْ مِنَ القرآنِ هي ﴿ اقْرأْ ﴾ ، ولقَدْ حضَّ الرَّسولُ ﷺ صحابَتَهُ على تعلُّمِ القِراءَةِ لما فيها مِنْ خيْرٍ كبيرٍ] .

أَرْبَعَةُ شُروطٍ

ومَتى تمكَّنَ الإنْسانُ مِن القِراءةِ فإنَّهُ سيَقطعُ شوْطاً هامّاً مِنْ شروطِ النَّجاحِ ، وسيَصِلُ إلى امْتلاكِ الشَّرطِ الأوَّلِ بحقٍّ . . إليْكم هذه الشُّروط : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ . بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ .
﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾

والشَّرط الأوَّل هُوَ العِلْمُ . . وكلمةُ آمنُوا تَعْني العِلْمَ واليَقينَ ، فإنْ قَرأْنا وتَعلَّمْنا ، اسْتَطعنا أَنْ نَعْملَ ما فَهِمناه ، ونُفهِّمَهُ لغَيْرنا صابرِين . . ما أَروعَ ما تحتويهِ يا سورَةَ العَصْرِ ، يا سُورةَ الفَوْزِ والنَّجاح !. وإنَّهُ لقَسَمٌ رائعٌ بالزَّمنِ والوقْتِ ، يُقسِمُهُ ربُّ العالمينَ ليبيِّنَ لنا كيْفَ نملأُ الوقْتَ بإيمانٍ وعملٍ صالحٍ ، ودعوةٍ إلى الحقِّ ، ونحنُ صابرونَ صامِدون لا نَتَراجعُ ولا نتردَّدُ ، وإنَّهُ لنِعْمَ الرِّبح ما حوَتْهُ السورةُ . .

نَشِيدُ الْفَلاحِ

ولكيْ نَحْفظ مَعاني السُّورةِ جيِّداً ، تَعالَوا نَحْفظ هذا النَّشيدَ الجميلَ :

سورة العصْرِ قصيرَهْ   في مَعانيها غزيرَهْ
قَدْ حوَتْ مَعْنى الحياهْ   وطريقاً للنَّجاهْ
آمِنُوا باللهِ ربّاً   تملؤوا الآفاقَ حُبّاً
ثُمَّ رَكْضاً للعمَلْ   دُونَ بُطْءٍ أو مَلَلْ
بعدَ هذا فانْشُروا   دينَ رَبِّي واصْبِروا

ورسولُ اللهِ ﷺ قَدْ علَّمنا سورةَ العَصْرِ بأُسْلوبٍ آخَرَ مِنْ كلامِهِ الشَّريف : (قُلْ : آمَنْتُ باللهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ) أيْ : لا فائدةَ مِنْ إيمانٍ دونَ عملٍ ، وكلُّ مَنْ يقولُ لنا : إنَّ الإيمانَ في القَلْبِ ، نقولُ لَهُ ما قالَهُ رسولُنا العظيمُ : (الإيمانُ ما وَقَرَ في القَلْبِ ، وصدَّقَهُ العَمَلُ) أي : نؤمنُ بقُلوبنا وبسُلوكنا وبعَمَلنا الصَّالحِ .

في الطُّفولَةِ

ولا تَقُولوا : (إنَّ الاستقامَةَ صَعْبَةٌ مِن الآن) . لا . فَمَنْ أرادَ مِنكُم أَنْ تَسْتقيمَ أُمورهُ في طُفولتِه ، فَلْيَتذكَّرْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وهُو صغيرٌ لمْ يرَ مِنْهُ قومُهُ إلا الاستقامةَ والصَّلاحَ . ومنْ صِغرِه قدْ تعلَّمْنا أنَّ :

١ – المسلمَ الصَّغيرَ يُحبُّ الذينَ يُقدِّمون لَهُ المعونَةَ في صِغرِهِ .

٢ – ويَفْتحُ عقْلَهُ لمَا يَصْنعُهُ المُجتمعُ مِنْ حَوْلِه ، فإنْ كانَ خيراً استْساغَهُ، وقَبِلَهُ ، وإنْ كانَ شَرّاً ابْتعدَ عنْهُ ورفَضَهُ .

٣ – والمسلمُ الصَّغيرُ يحمِلُ مِنْ صِغَرِه نَفْساً شَفَّافةً ، وقَلْباً واعياً ، ويعرفُ ما عَليهِ مِنْ مَسؤُوليةٍ صغيرةٍ هامّةٍ ، يُعْلي بها نَفْسَهُ ، ويَفْهمُ أعْباءَ الحياةِ شَيْئاً فَشَيْئاً دُونَ كَسَلٍ أَوْ إهمالٍ أَوْ تواكلٍ .

وطُوبىٰ لِمَنْ يَفْعلُ كُلَّ هَذا في صغرِه . . مثْل محمَّدٍ ﷺ عنْدَما كانَ بُرْعماً مثلكمْ .

ومَرْحَلَةَ الشَّبابِ

وإذَا كبِرنا قليلاً ، فَسوْفَ نَفْهمُ تَطْبيقَ سُورةِ العصْرِ منْ شبابِ الرّسولِ ﷺ ، أيْ مِنْ عملِهِ في شبابِه ، فكيْفَ نَلْمحُ الشّابَّ المسلمَ في شَخْصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ ؟

١ – الشّابُّ المسْلِم يَصُونُ نَفْسَهُ عَنْ مَتاهاتِ الشّبابِ ومَفاسدِ اللّهوِ، ويَنْساقُ نَحْوَ الكمالِ والفَضيلة والوَقارِ والعَفاف .

٢ – ويَتَّخذ مِنَ المعاملةِ الحسنةِ مَعَ الآخرين شِعَاراً لَهُ : (كالأمانةِ والصّدقِ والإخلاصِ ، والحِلمِ ، وكَرمِ المعْشَرِ ، وحُسْنِ الجوارِ ، ورَجاحةِ العقْلِ ، وعُلوِّ الهمَّةِ ، وكلِّ صفاتِ الخيرِ والمعْروفِ) .

٣ – ويُشاركُ قوْمَهُ فيما كانَ فيهِ فائدةٌ للمجتمعِ دُونَ انعزالٍ أوْ تقوقعٍ،

أو هروبٍ مِن وسطِهم وعاداتِهم جملةً وتَفْصيلاً .

وطُوبى للشَّابِّ منكُم غداً إنْ عَصمَهُ اللهُ عَنِ الانزلاقِ في مَهاوي الشَّيطانِ ، وَأسألُ اللهَ لكم رفقاءَ من الشّبابِ الصّالحين .

وسِنّ الرجُولةِ

ورسولُ اللهِ ﷺ أثْبتَ في رُجولتِهِ أيْضاً كُلَّ صفاتِ الرَّجلِ السّعيدِ العاقلِ :

١ – فالرّجلُ المسلمُ يألفُ قَوْمَهُ ، يحبّهم ويحبّونه ، يجذبهم نَحْوَهُ ، ويخلّصهم مِنْ عاداتِهم الجافيَةِ . .

٢ – ويُشَاركهم في إبداءِ رَأْيِهِ للضّروراتِ الحياتيّةِ ، كالحُكْمِ والإصْلاحِ ، ويُدلي بقوّتِهِ الجسميَّةِ وخبرَتِهِ في مَهامِّ الأُمورِ ومُعْتَركِ الحياةِ .

٣ – ويتزوَّج مِنَ النِّساءِ الصَّالحاتِ العفيفاتِ اللّواتي يَصْلحنَ لإنشاءِ أسرةٍ مسلمةٍ صالحةٍ ، وإنْجابِ ذرّيةٍ مؤمنةٍ تقيَّةٍ .

وطُوبىٰ أيْضاً للرَّجلِ منكُم غداً ، لأنَّه سَيَنْجحُ في مَهمَّة دَعْوتِهِ للنّاسِ ، فهُوَ رَجلٌ واعٍ صحيحُ العقْلِ والتّفكيرِ ، سليمُ المنْطقِ ، ويحْتَاجُ لكُلِّ هذِه الصِّفاتِ في حَمْلِ الرّسالةِ حَمْلاً صَحِيحاً .

وطَريقةِ الدَّعوةِ

وإذا ما انْتَقلْنا إلى الدّعوة الصّحيحةِ ، فإنّنا لَنْ نَنْسىٰ رسولَ اللهِ ﷺ :

١ – أنَّه كانَ رائِعاً في جُرأَتِهِ ، فقَدْ دَعا إلىٰ اللهِ دُونَ خَوفٍ أوْ وجلٍ ، أَوْ

تردُّدٍ أو تراجعٍ أبداً عنِ الحقِّ مهما لاقىٰ مِنَ الصُّعوبات والمشقَّةِ .

٢ – وأنَّهُ لَمْ يَمُدَّ يدَ العنفِ والسِّلاحِ والبطْشِ ضِد المشركِينَ إلاّ بعْدَ أنْ أسَّسَ مُجْتمَعاً إسْلامياً ودولةً مُسلمةً في المدينةِ لا يَدْفَعه إلىٰ ذلك إلا طاعةُ اللهِ ، ورَفْعُ الظُّلْمِ .

٣ – كانَ في حَرْبِه لأَعْدائِه لا يَبْدأُ العدوانَ ، ويَصْمدُ إنْ بَدَؤوهُ ، ويَعْرفُ كَيْفَ يُسَالمهم ، ويَجْعلُهم يَعترفونَ بدَوْلتِه ، ويَسْتغلُّ كلَّ فُرصةٍ صالحةٍ للمستقبلِ (كَمَا فعلَ في صُلْحِ الحديْبِية) .

٤ – وكانَ رائعاً في فُتُوحاتِه وانْتِصاراتِه ، رَحِيماً بالأَسرىٰ والضُّعفاءِ ، يَقْسمُ الْغنائمَ بينَ أصحابِه ويُعطِي المسْتحقينَ مِنَ الأَعداء الذينَ لَمْ يُسْلموا بعْدُ ليؤلِّفَ قلوبَهم بالعطاءِ . .

وتَحْصِيل المعاش

وخلالَ شَبابِنا ورُجولتِنا ودَعْوتِنا ، لا نَحيدُ عَنْ شُروطِ المعاملةِ الصَّالحةِ في أُمورِ العيْشِ الاقتصاديّةِ كَما عَلَّمنا الرَّسولُ ﷺ :

١ – عَلَيْنَا معاملة الآخرينَ بصِدْقٍ وأمانةٍ . .

٢ – وأنْ نكونَ معَهم مُيسِّرين في البَيْعِ والشِّراءِ والدَّيْنِ وما شَابهَ ذلك .

٣ – وأنْ نَصْبرَ في العُسْرِ والضِّيقِ والفَقْرِ . .

٤ – وأنْ لا نَبْخَلَ على مُجْتمعِنا في يُسْرِنا ورَخَائِنا إذا احْتَاجَ لنا .

٥ – وأَنْ لا نَتَشاركَ في العملِ إلا مع الصَّادقين . .

٦ – وأَنْ لا نتَعَاملَ مَعَهم طمَعاً في المالِ وحَسَداً لما آتاهُم اللهُ .

وإنَّ مَنْ لا يَنْسىٰ هَذا في معاملاتِه ، سيَكسبُ ثِقَةَ الآخرينَ ، ويحوزُ علىٰ إعجابِهم ، ويَنالُ رضَا اللهِ والمجتمع عنه عَنْ جَدارةٍ .

وعِنْدَ الهَرَمِ

وسيَكْبرُ الدَّاعيةُ المسْلِم ، وإذا ما أرادَ صورةً صحيحةً للحياةِ عنْدَ الكِبرِ ، عليْهِ أنْ يتذكَّرَ رسولَ اللهِ ﷺ الذي :

١ – اسْتَمرَّ في أخلاقِه الحسنةِ ، ولَمْ يدَعْها تعَباً أَوْ مَرضاً أَوْ يأْساً .

٢ – بذَلَ كُلَّ ما في وسعِه منَ الحكمةِ والخبرةِ النَّاصِحةِ التي اكْتَسبَها مِنْ تجارتِه في شَبابِه ورُجولتِه ، ولا سيَّما في إصْلاحِه لمجتمعِه وحمايتِه لدولتِه . .

٣ – بقيَ رحيماً عادِلاً مُتَواضعاً لا يتكبَّرُ ، حتّىٰ مَعَ المشركين ، وذلك ليَفْسحَ المجالَ لقلوبِهم أنْ تُحبَّ الإسْلامَ وأتْباعَهُ الثَّابتين علىٰ الخُلُقِ العظيم .

٤ – لَمْ يدْعُه هرمُه إلى تَرْكِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، ورَفْعِ الظُّلْمِ .

٥ – لَمْ يَتْرُكِ الاستغفارَ ، معَ أنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وما تأخرَ .. وإنَّهُ لِنعمَ الشُّكرِ .

وإذا حضَرَ الموْتُ

وبعْد الهرمِ ، لا يوجَدُ إلا الموْتُ . . وفـرقٌ كبيرٌ بيْنَ مَنْ يموتُ مُسْلماً أَوْ يموتُ كافِراً . . والمسلِمُ قَبْلَ أَنْ يمـوتَ يكـونُ مَـراقِباً للهِ في كُـلِّ أَعْمالِه.. فكيفَ سَيَخْتمُ صفحةَ أَعْمالِه وحياتِه ؟ .

١ - إنَّهُ لا شَكَّ سَيُوصي أَهْلَهُ وذريَّتَهُ وأَصْحابَهُ وكلَّ من اسْتَطاعَ ، بأَنْ يتَّقوا اللهَ في بقيَّةِ حَياتِهم . .

٢ - وإنَّهُ سَيُصَفّي قَبْلَ وَفاته وكُلَّما تذكَّرَ : (ديونَهُ وحقوقَ النَّاسِ عليْهِ)، ويبينُ ما يَفْعَلُهُ الورثَةُ بمالِه وأَمْلاكِهِ بعْدَ وفاتِه بكتابةِ وصيته .

٣ - وإنَّهُ سَيقولُ آخر كلامِه عنْدَ الوفاةِ :

أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ .

وهَنيئاً لمَنْ يَخْتمُ حياتَهُ بصَفْحَةٍ بيضَـاءَ نقيَّةٍ نُزولاً عنْدَ أَمْرِ اللهِ : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

كِتابُ اللهِ

وكلُّ ما تريدونَهُ يا أَحبَّتي مِنَ الحديثِ عَنْ مراحِلِ الحياةِ تجدونَه في ما وَصَّانا بِهِ الرَّسولُ قَبْلَ وفاتِه بأَنْ نتمسَّكَ به حتَّىٰ لا نَضِلَّ أَبداً : (القرآنُ والسنَّةُ) ، فعَنِ الأمرِ الأوَّلِ أيْ : كتاب الله فَقَدْ أَمرَنا الرَّسولُ ﷺ أَنْ نَتعلَّمَهُ ونعلّمه لغَيْرِنا ، فقالَ : (خَيْرُكم مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ) . وأَنَا

بدوري سأُهـديكم هذا النَّشيدَ الصَّغيرَ ذِي الكلماتِ النّاعمةِ الحلوةِ ، فأَسْمِعونيه بصَوتِكم العذبِ :

رسـولُ الله علَّمَنـا ... مِـنَ الإيمانِ أَجْمَلَـهُ
كتـابَ اللهِ نحملُـه ... ونقـرؤُه ونَفْهمُـهُ
أخـي هيَّـا نـرتِّلُـهُ ... علىٰ مهـلٍ نجـوِّدُهُ
بـهِ الأجْـرُ ، بِـه الفـوْزُ ... إذا قُمْنـا نبلِّغـهُ
تعلَّـمْ منْـه لا تيْـأَسْ ... وللـدُّنيـا فعلِّمْـهُ
وليـتَ الكُـلَّ يسمَعُنـا ... فَتَمْـلأهُ محبَّتُـهُ
فبُشرىٰ إنْ سمعْـتَ القـ ... ـوْلَ ثُـمَّ تَبعْتَ أحْسَنَهُ

وسُنَّةُ الرَّسولِ ﷺ

وعَنِ الأَمرِ الثَّاني (السُنَّة) ، فقَدْ أَرْشَدَنا اللهُ إلى ذلِكَ فقالَ في كتابِه العزيـز: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

ونَصَحَ لنا رسـولُ الله ﷺ أَنْ نَأْخُـذَ عَنْـهُ كُلَّ ما تُريـدُهُ وَلا سيَّما في العِبادَةِ وأَداءِ الفرائِضِ الخمْسِ وأَرْكـانِ الإِسلامِ : (خُذُوا مناسِكَكم عنّي) ، (صَلُّوا كَما رَأَيْتُموني أُصلِّي) .

فَلا يَجُوز أَبَداً أَنْ نُخَالِفَ رسولَ اللهِ ، خشْيَةَ أَنْ يقع علينا غَضَبُ اللهِ، لأَنَّ اللهَ اشْتَرطَ عَلَيْنا لمحبَّتِهِ أَنْ نتَّبعَ رسولَهُ ، وعنْدَها يحبُّنا اللهُ ، ويَغْفرُ لَنا ذُنُوبنا كَما ذكَرتِ الآيَةُ . . وبُشْرى لمَنْ سَيأْخُذُ بنَصَائِحِ القرآنِ ، ونَصائح الرَّسولِ ﷺ ، وطُوبىٰ لمَنْ يفْهمُ كتابَ الله ، وأَحَاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ .

وَنسْأَلُكَ الأَجْرَ

وخِتاماً يا ربّ . . نرفَعُ أَيْدينا إلَيْكَ لنَدْعوكَ دعاءَ الشَّاكرين : (اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أَنْ خلَقْتَنا وأَنْشأْتَنا مسلمينَ ، وعلَّمْتنا كتابَكَ وسيرةَ رسولكَ ﷺ ، ونسْأَلكَ أَنْ تجْعلَنا مِنْ دُعاةِ المسلمين . .

اللَّهمَّ اغفِرْ لكلِّ مَنْ نَصَحَ لنا في تعلُّمِ دينكَ . .

واسْتَجبْ دعاءَنَا . . وساعِدْنا أَنْ نُتابعَ قراءَةَ مجموعاتِ الخير والعَطاءِ . فلقاؤُنا لَمْ يتوقَّفْ ، ولَنا موعِدٌ معَ قَصَصِ أُمَّهاتِ المؤْمنينَ . . وبناتِ رسولنا الكريمِ عليهِ وعليهِنَّ الصَّلاةُ والتَّسليم . . ومجموعاتٍ طيِّبة أخرىٰ).

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

******